موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية



الجامعات الأوربية في العصور الوسطى



أ.د. سعيد عاشور





الجامعات الأوروبية
فى العصور الوسطى



تأليف
أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

التعليم الكنسى بداية الجامعات

٩٤٠,١٤
س ع ج ا

سعيد عبد الفتاح عاشور.
الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى/ تأليف سعيد عبد الفتاح عاشور. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٧م.
أ-د ١١٣ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ٨).
ببليوجرافية: ص .
تدمك: ٤ - ٢١٢١ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - الجامعات الأوروبية ونشأتها. ٢- الجامعات وانتشارها فى أوروبا .

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٨٣٦٤ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم السلسلة

التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

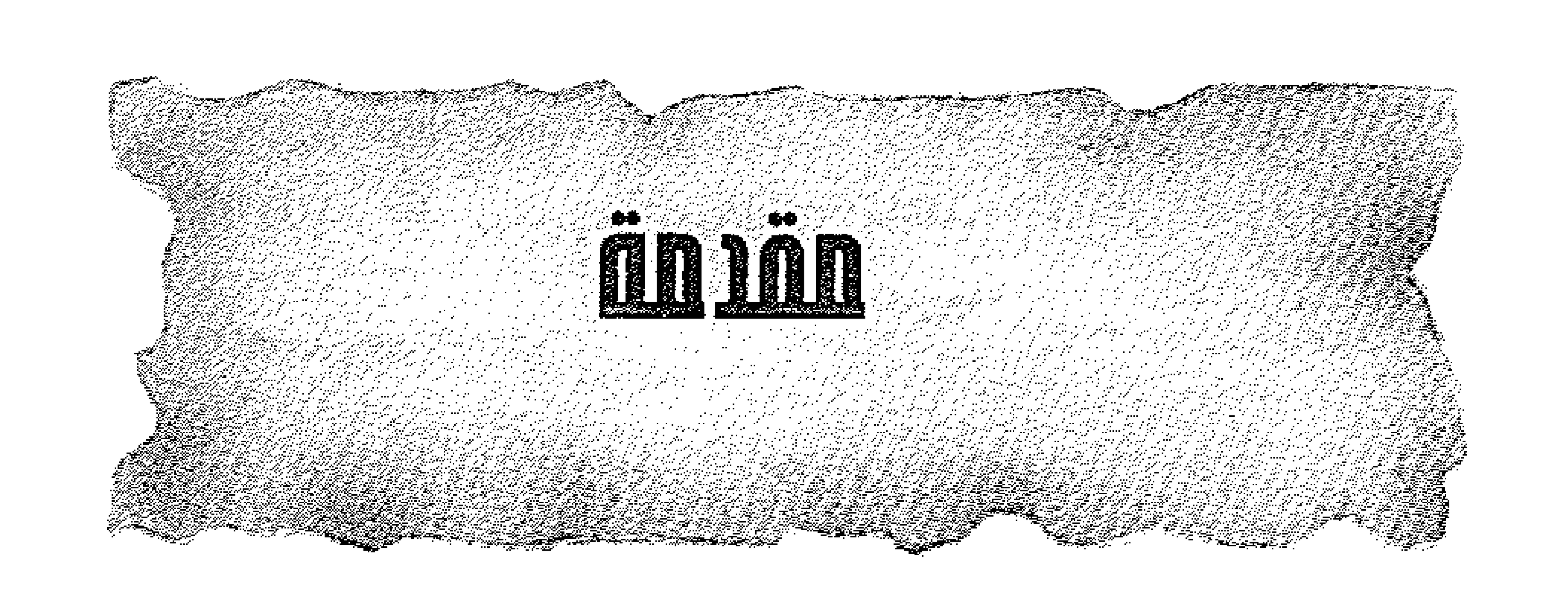
وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





جمعت .. فأوعت

فى تتبع المسيرة الزمنية للتاريخ، نجده يتألف من عصور، لكل عصر طابعه وخصائصه وصفاته، مع وجود رباط يربط السابق باللاحق، ويحقق ما يمكن أن نسميه تسلسل التاريخ واستمراريته، وفى ضوء هذه المسيرة يمكن أن يكون التاريخ سلسلة متشابكة الحلقات، مترابطة الكيان والصفات، بحيث يواصل الخلف بعض أركان سياسة السلف، ويتابع مسيرته، فى نفس الوقت الذى تمهد المسيرة لطلائع جديدة تجمع بين الماضى والحاضر، وبذلك تسير عجلة التاريخ، وفى ضوء هذه الصورة المتتابعة تسير عجلة التاريخ وتتعاقب الحقب، ويقف كل عصر مرتبطا بسابقه ولاحقه، فيتداخل الماضى والحاضر ويرتبط القديم والجديد.

وفى مضمون هذا الواقع اصطلح المؤرخون على تقسيم المسيرة الزمنية إلى ثلاثة عصور كبرى؛ قديمة ووسطى وحديثة، بحيث يشكل كل عصر حلقة فى سلسلة التاريخ، ومن ناحية أخرى، فإن كل حلقة أو عصر تتميز عن غيرها بما يطرأ عليها من تقلبات وتغيرات، وبما يستجد حولها من أوضاع، وفى ضوء هذه الأجواء برزت العصور الوسطى كحلقة لها خصائصها وطابعها وفى نفس الوقت فإنها تربط بين قديم وجديد؛ وتمهد الطريق لمستقبل يعبر عن صفحة جديدة فى التاريخ.

ولعل أبرز ما تميز به العصر الوسيط فى الغرب الأوروبى، هو انتصار المسيحية وانتشار تعاليمها وانتعاش مؤسساتها وتضخم نفوذ رجالها، وهكذا صارت الكلمة الأولى النافذة للدين ورجال الدين، من بابوات ورؤساء أساقفة وأساقفة وقساوسة، كل فى موقعه ودرجته، كما صارت المدارس لا تعبر إلا عن الدين ورجال الدين، والأمر والنهى لمقدمى الأديرة. . أما العلوم الدنيوية فلا مكان ولا موضع لها، وإذا كانت الأديرة والكاتدرائيات قد صادفت - شيئا من حب بعض الحكام واحترامهم- مثل شارلمان، فإن ذلك الوضع لم يستمر طويلا وإنما أخذت أعراض الإنهاك تمتد إليها تدريجيا منذ القرن التاسع، حتى إذا ما كان القرن الثانى عشر وعندئذ أفاق الغرب الأوروبى من غفلته وظهرت فى آفاقه معالم نهضة شاملة، عمت الحياة الفكرية والثقافية وشملت

أنواع العلوم والفنون، وقد تعددت أسباب ودوافع هذه النهضة التى تعنينا منها ما كان من ظهور الجامعات بكل ما يحتويه مصطلح (الجامعة) من حرية فى الرأى وتنوع فى حقول الفكر والثقافة، وعلى رأس هذه الجامعات كانت جامعة بولونيا فى إيطاليا وجامعة باريس فى فرنسا؛ وعن هاتين الجامعتين تفرع العديد من الجامعات فى أوروبا، ولئن اختلفت بعض هذه الجامعات فى هيكلها العام إلا أنها اتفقت فى هدفها الرئيسى، وهو تطوير المجتمع القائم وخلق مجتمع جديد يعبر عن الحرية: حرية الجسد وحرية الرأى والفكر، ويمهد لظاهرة جديدة عمت العالم تدريجيا مع مولد العصور الوسطى، وهذا ما نستهدف إلقاء الضوء على بعض جوانبه فى هذا الكتاب..

المؤلف





الفصل الأول
نشأة الجامعات الأوروبية
بولونا - باريس - سالرنو

اتسع نطاق المعرفة فى غرب أوروبا واشتد الإقبال على التعلم منذ القرن الحادى عشر، بحيث اتضح فى القرن التالى أن المدارس القديمة المألوفة ـ التى لم تعرف أوروبا غيرها فى العصور المظلمة- أصبحت أضيق من أن تتسع للعلوم الجديدة والروح العلمية الجديدة. وهكذا تجمعت العوامل التى أدت إلى مولد الجامعات الغربية، ثم نموها وانتشارها حتى غدت عاملا أساسيا من أقوى العوامل التى كيفت الحياة الأوروبية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى بله الحديثة.

والواقع إن لفظ «جامعة Universitas» كثر استعماله فى أوروبا فى العصور الوسطى فى أغراض متعددة بعيدة عن معناه الأصلى، فى حين أن المعنى الحقيقى للفظ هو الذى يفسر لنا طبيعة الأصل التاريخى لنظام الجامعات، فلفظ جامعة لا يعنى فى مبدأ الأمر أكثر من رابطة أو اتحاد بين عدة أفراد؛ ولذا أطلق هذا اللفظ فى العصور الوسطى على كثير من نقابات التجار والصناع، فضلا عن بلديات المدن، غير أن لفظ جامعة تحور عند نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر حتى أصبح يطلق على اتحادات المشتغلين بالعلم والتعليم من الطلاب والأساتذة، وبذلك بدأنا نسمع فى البيئات الجامعية عن «جامعة الطلبة» بمعنى اتحاد الطلبة، «وجامعة الأساتذة» بمعنى اتحاد الأساتذة، فالجامعة لم يقصد بها فى ذلك العصر المكان أو البيئة العلمية التى يلتقى فيها رجال العلم من معلمين ومتعلمين، وإنما قصد بها الاتحاد الذى يكونه كل فريق من هذين الفريقين لرعاية مصالحه وتنظيم أموره.

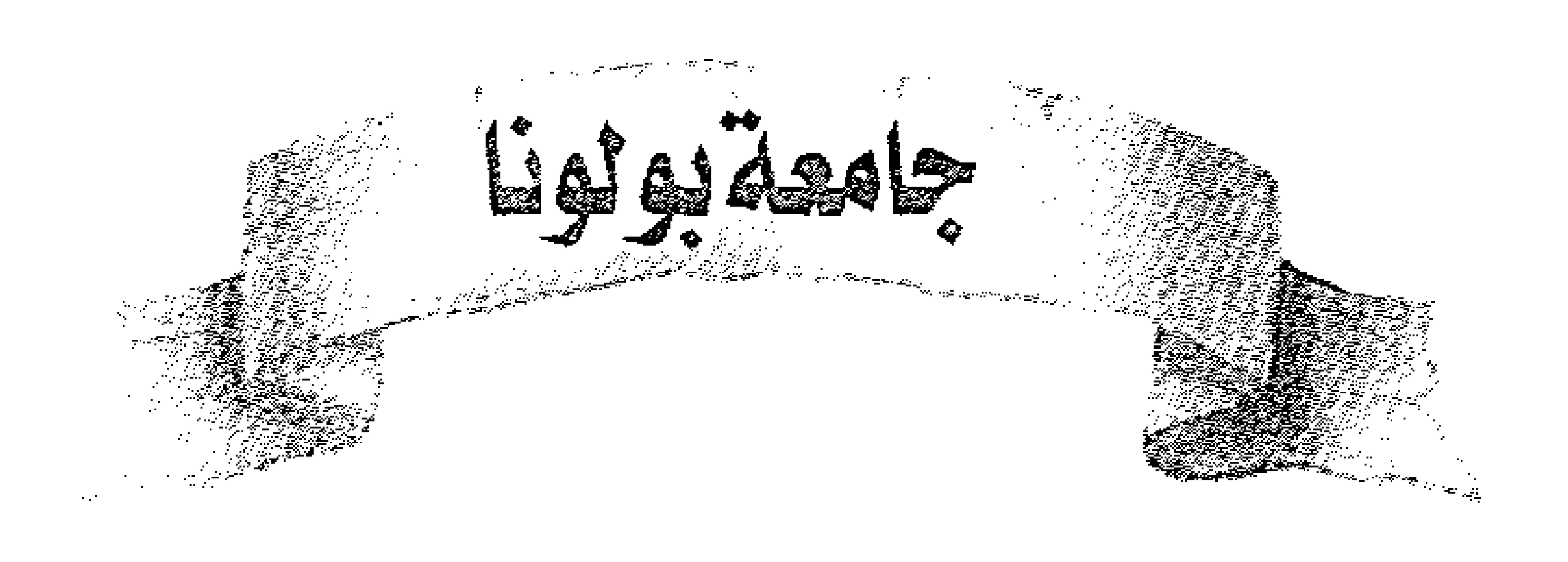
أما المكان أو البيئة العلمية التى نعبر عنها اليوم باسم «جامعة» فقد أطلق عليها فى أوروبا فى العصور الوسطى اسم «المدرسة العامة Studium General» بمعنى المكان الذى يستقبل طلاب العلم الوافدين من جميع الجهات، لا المكان الذى تدرس فيه جميع المواد ـ كما فسره البعض خطأ، وعندما أصبح لفظ «المدرسة العامة» ـ الذى يعبر عن الجامعة فى معناها الحديث ـ شائعا فى مستهل القرن الثالث عشر، غدت له ثلاث خصائص مميزة: **أولاها** أن هذا المكان أو المدرسة صارت تستقبل طلاب العلم الوافدين من جميع الجهات والبلاد لا من جهة معينة أو بلد محدد،



وثانيتها أنها كانت مركزا للدراسات العليا، بمعنى أنها اشتهرت بتدريس علم على الأقل من العلوم التى تتطلب دراستها قسطا من التخصص مثل القانون أو اللاهوت أو الفلسفة أو الطب أو غيرها، **وثالثتها** أن هذه العلوم قام بتدريسها بعض الأساتذة ذات الكفاءة المتخصصين. ومن الواضح أن الصفة الأولى كانت أهمها جميعا، لأنها هى التى أعطت ذلك المكان صفة الجامعة التى جعلته يضم بين جوانبه طلابا من كل صعيد ومصر، وبذلك اختلف عن غيره من المدارس المحلية المحدودة الأفق التى عرفتها أوروبا فى العصور المظلمة.

ومهما كان الأمر، فإنه وجدت فى أوروبا ـ عند مستهل القرن الثالث عشر ـ ثلاثة مراكز علمية جامعة من هذا النوع، تمتعت جميعا بشهرة عالمية واسعة فى الغرب الأوروبى، وتخصص كل منها فى جانب أو أكثر من جوانب المعرفة. أما الأولى فكانت فى باريس واشتهرت باللاهوت والآداب، وقامت الثانية فى بولونا واشتهرت بالقانون فى حين وجدت الثالثة فى سالرنو واشتهرت بالطب.

وأول ما يعنينا فى هذا الفصل هو الكلام عن جامعتى بولونا وباريس بالتفصيل؛ نظرا لأن نشأتهما جاءت إحدى النتائج الهامة التى تمخضت عنها النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر.



جامعة بولونا

أما عن مولد جامعة «بولونا» فيرتبط بأن النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر عبرت عن نفسها تعبيرا قويا فى إيطاليا بدراسة القانون، فتزعمت مدرسة بولونا هذه النهضة القانونية الكبرى.

ويرجع أول اعتراف رسمى بمجموع الطلاب الذين غرسوا أساس الحركة الجامعية فى شمال إيطاليا إلى سنة ١١٥٨، عندما أصدر الإمبراطور فردريك بربروسا براءة تضمنت بعض الامتيازات لجموع الطلاب فى المدن اللمباردية، بما فيها «بولونا»، أما مضمون هذه البراءة فهو رعاية الإمبراطور للأساتذة والطلاب، وفى حالة إقامة دعوى ضد طالب فإن له الخيار فى أن يطلب محاكمته أمام أساتذة أو أمام الأسقف التابع له. ومع أن اسم «بولونا» بالذات لم يرد صراحة فى هذه الوثيقة ـ التى لم تنص أيضا على قيام رابطة رسمية أو الأساتذة فيها ـ إلا أنه ليس ثمة شك فى أن هذا البراءة صدرت لمصلحة رجال القانون فى «بولونا» مما يدل على ظهور نفوذهم فى ذلك الوقت، وسرعان ما أخذ طلاب العلم فى مختلف المدن الإيطالية يعملون للحصول على

الامتيازات التى خولتها البراءة السابقة للطلاب فى لمبارديا، حتى غدت هذه البراءة بمثابة القاعدة الأساسية لجميع الامتيازات التى منحتها الحكومات للجامعات الإيطالية الناشئة.

ومن الثابت قيام شبه رابطة للأساتذة فى بولونا قبل سنة ١٠٥٠، وإن كانت هذه الرابطة لم ترق أو تتطور عندئذ إلى الدرجة التى تمكنها من إصدار قوانين ولوائح مكتوبة أو استخدام موظفين عموميين، وترجع أول إشارة فى الوثائق إلى قيام مثل هذه الرابطة فى بولونا إلى سنة ١٢١٥ عندما نسمع عن قراءة بعض كتب القانون «أمام رابطة أساتذة القانون المدنى والكنسى» هذا، وإن كان نظام الدرجات العلمية الذى اكتملت صورته فى «بولونا» قبل حلول سنة ١٢١٩ يدل على أن رابطة الأساتذة كان لها وجود فعلى قبل هذه السنة بكثير. وسرعان ما تكاثرت الإشارات منذ أواخر القرن الثانى عشر التى تثبت اعتراف الإمبراطور والبابوية جميعا بجامعة بولونا.

وتوصف جامعة بولونا بأنها «جامعة طلبة»؛ لأن اتحادات الطلبة فيها استطاعت أن تجمع فى قبضتها السيطرة التامة على الجامعة، وتشرف على المسائل التى ظلت من اختصاص رابطة الأساتذة فى باريس وغيرها من الجامعات الشمالية. وهناك ناحية واحدة ظل أساتذة بولونا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها تحكما مطلقا، هى كل ما يختص بامتحان الطلاب والسماح لهم بالتدريس أو بالدخول فى رابطة هيئة التدريس. أما عن نشأة اتحاد الطلبة فى بولونا فإنها تمثل فى الواقع اتجاها جديدا فى تاريخ التعليم، وليس من الصعب شرح مولد هذه الهيئة الجديدة إذا أحطنا علما بظروف البيئة التى نشأت فيها؛ ذلك أن أسر الأشراف والنبلاء فى إيطاليا ظلت - كما سبق أن أشرنا - تتمسك بالتراث التعليمى القديم فى الوقت الذى اعتبر نبلاء فرنسا معرفة القراءة والكتابة نوعا من التفاهات التى لا يصلح لها إلا عامة رجال الدين، هذا إلى أن طبيعة الدراسات القانونية - التى وجدت بيئة صالحة لها فى شمال إيطاليا - استهوت الناضجين من ذوى الحيثية والمكانة والثروة، بعكس الدراسات الأدبية فى باريس التى أقبل عليها الأحداث والشباب؛ لذلك لم يكن الأساتذة فى بولونا أكثر من محاضر استأجره بعض السادة الطلاب الذين تراوحت أعمارهم بين السابعة عشرة والأربعين تقريبا.

وهناك عامل آخر كان له أثر كبير فى هذا التطور الخاص بنشأة اتحاد الطلبة فى بولونا، هو الوضع السياسى للمدينة الإيطالية التى نشأت فيها هذه الجامعة، فالمدن الإيطالية دأبت فى ذلك العصر على منح حقوق المواطنة لأبنائها وحرمان نزلائها المغتربين من هذه الحقوق، حتى لو كانوا من أهالى المدن الأخرى المجاورة؛ لذلك وجد طلاب العلم الوافدون على بولونا أنفسهم محرومين من كافة الحقوق المدنية فى بيئتهم العلمية الجديدة، على الرغم من أنهم كانوا فى سن تسمح لهم



بممارسة الحياة السياسية وحقوقها، وكان أن أراد هؤلاء الطلاب أن يستدركوا داخل نطاق الجامعة ما يشعرون به من نقص داخل محيط المدينة، ففرضوا سيطرتهم على أساتذتهم.

طلبة إيطاليون - جزء من لوحة للفنان فيتورى كارباشيو سنة ١٤٩٨



أما عن موقف السلطات الحاكمة فى مدينة بولونا ذاتها من مجتمع الطلبة واتحاداتهم، فيبدو أن هذه السلطات قبلت الوضع الجديد لما يترتب على وجود أعداد غفيرة من طلاب العلم من رواج اقتصادى فى المدينة، على أن هناك عاملين أساسيين يساعدان على فهم الأسباب التى جعلت بولونا وغيرها من المدن التى قامت فيها جامعات مشابهة ـ فى إيطاليا العصور الوسطى ـ تقبل هذا الوضع الخاص بقيام اتحادات أو «جامعات» للطلبة لتكون بمثابة دولة داخل الدولة، بعد أن تمتعت هذه الاتحادات بحقوق معترف بها وصارت تخضع لقوانينها الخاصة لا لقوانين المدينة، أما العامل الأول فيبدو فى تمسك المعاصرين بفكرة «القانون الشخصى» وهو أن تعيش مختلف العناصر داخل أسوار مدينة واحدة أو فى بلد واحد على أن تخضع كل فئة لقانونها الخاص، وإذا كان اللمبارديون والرومان قد عاشوا فى إيطاليا عدة قرون جنبا إلى جنب مع خضوع كل فريق منهم لقوانينه الخاصة، فليس من المستغرب أن تعيش جموع من الطلبة الغرباء داخل مدينة إيطالية ـ مثل بولونا ـ فى ظل قوانينهم الجامعية ممتثلين لسلطة الجامعة ونظمها.

أما العامل الثانى فيبدو فى الحقيقة التى تعتبر المفتاح الأساسى لفهم طبيعة نشأة الجامعات سواء فى بولونا أو غيرها من البيئات الجامعية، وتتلخص هذه الحقيقة فى أن الجامعة لم تكن إلا نوعا جديدا من أنواع النقابات أو الاتحادات التى عرفتها أوروبا العصور الوسطى، وبعبارة أخرى فإن نشأة الجامعات كانت مظهرا من مظاهر الحركة النقابية الضخمة التى أخذت تنتشر فى المدن الأوروبية على نطاق واسع منذ القرن الحادى عشر، وكانت النقابات المهنية والتجارية قد أحرزت مكانة شرعية فى بولونا بحيث أصبح ممثلو هذه النقابات مستقلين فى نفوذهم عن حكام المدينة بل لا يقلون فى النفوذ والسلطان، وفى مثل هذه الأوضاع صارت عضوية النقابة أمرا ضروريا لاحتفاظ الفرد بسلامته وحقوقه؛ ولذلك أدرك الطلاب المغتربون فى بولونا أنهم سيتعرضون لأخطار جسيمة إن لم يتكتلوا فى هيئة نقابة أو نقابات ترعى حقوقهم، ومن الواضح أن هذه الاعتبارات لم تنطبق على مواطنى مدينة بولونا نفسها من الطلبة والأساتذة؛ ولذلك استبعد هذا الفريق من اتحادات جامعة بولونا، واقتصرت هذه الاتحادات على المغتربين وحدهم.

ومن المرجح أن الطلبة الألمان فى بولونا كانوا أول من أحسوا بحاجتهم إلى الترابط والتعاون لحماية أنفسهم والدفاع عن مصالحهم ثم أخذت هذه الروح تمتد تدريجيا ـ وبطريقة تلقائية ـ إلى غيرهم من فئات الطلبة المغتربين. وهكذا ازدادت النقابات الخاصة بهؤلاء الطلبة ونجحت فى فرض سيطرتها حتى على الطلبة من أبناء بولونا ذاتها، وهم الذين ظلوا خارج نقابات الجامعة لا يقسمون لمديرها يمين الطاعة ولا يتمتعون بصوت يعبر عن رغباتهم فى اجتماعاتها ولا يتولون وظيفة من



وظائف الجامعة، وتدل الشواهد على أن طلبة جامعة بولونا كونوا فى أوائل القرن الثالث عشر أربع نقابات أو اتحادات (جامعات)، الأولى تضم الطلبة اللمبارديين والثانية الطلبة الوافدين من بلاد ما وراء الألب، والثالثة تشمل طلبة تسكانا، والرابعة تضم طلبة روما وكمبانيا، على أن وجود هذه الاتحادات الأربعة فى أوائل القرن الثالث عشر لا يعنى أنها نشأت فى وقت واحد، إذ تشير الأدلة إلى أن قيامها جاء فى أوقات متفرقة حسب حاجة كل فريق إلى الاتحاد والترابط، ومهما كان الأمر فإن هذه الاتحادات الخاصة بطلبة بولونا لم تلبث أن أخذت تتطور حتى انتهى الأمر فى أواسط القرن الثالث عشر بتداخلها فى هيئتين أو اتحادين كبيرين، يضم الأول الطلبة الوافدين من جميع البلاد الواقعة شمالى جبال الألب، فى حين يضم الثانى الطلبة الوافدين من مختلف الأقاليم الإيطالية.

على أن الحقيقة الخاصة بأن اتحادات الطلبة فى بولونا ضمت الطلاب المغتربين وحدهم دون غيرهم من أبناء المدينة، تفسر لنا ظاهرة أخرى امتازت بها هذه الجامعة وغيرها من الجامعات الإيطالية، ألا وهى إقصاء الأساتذة عن عضوية هذه النقابات الجامعية، وبالتالى عن إدارة شئون الجامعة، ومن الواضح أن السبب فى ذلك أن أساتذة بولونا ـ فى المراحل الأولى من نشأة الجامعة ـ كانوا من مواطنى المدينة، مما جعلهم ينضمون إلى جانب السلطات الحاكمة ضد تكتلات الطلبة المغتربين، وبعبارة أخرى فإنه عندما اصطدمت مصالح المدينة مع مصالح الطلبة ساند الأساتذة مدينتهم ضد الطلبة الأجانب، وهكذا أدى تنافر المصالح بين الأساتذة وطلبتهم إلى سرعة مولد اتحادات الطلبة، كما أن ارتباط أساتذة بولونا بالسلطات الحاكمة فى المدينة وتباعدهم عن الطلبة أدى إلى استبعادهم عن كل ما له شأن بإدارة الجامعة مما أوقعهم فى النهاية تحت سيطرة الطلبة بصورة مزرية، ولو كان أساتذة بولونا الأوائل أغرابا عن المدينة، لاحتلوا مراكز هامة فى التنظيمات الجامعية، ولأمكن أن يكون لهم صوت مسموع فى إدارة شئون الجامعة.

ولم تلبث هذه الاتحادات الجامعية التى كونها الطلبة المغتربون أن أخذت تنمو تدريجيا بحيث أصبح من الضرورى أن يفكر أعضاء كل اتحاد فى تعيين مدير أو رئيس لاتحادهم، وهى الخطوة التى تمت فعلا فى أواخر القرن الثانى عشر وبداية الثالث عشر. وهنا يبدو أن الاتحادات الجامعية استعارت لقب «مدير rector» من النقابات المعاصرة فى المدن، حيث كان لكل نقابة مدير أو رئيس يوجه أمورها ويرعى مصالح أعضائها ويدير سياستها، وهذه النقابات التى عرفتها المدن فى العصور الوسطى بدت دائما ـ سواء كانت علمية أو سياسية أو اقتصادية ـ فى صورة دولة مصغرة أو دولة داخل الدولة.



ويبدو أن قيام نقابات أو اتحادات خاصة بالطلبة على هذه الصورة، لم يلق معارضة من السلطات الحاكمة فى بولونا أو غيرها من المدن اللمباردية التى قامت جامعات مشابهة، أما المعارضة التى لقيتها هذه الاتحادات فكانت من جانب أساتذة القانون أنفسهم الذين اعتبروا قيام نقابات الطلبة على هذا الوضع أمرا ماسا بكرامتهم ومراكزهم وحقوقهم؛ لذلك نادى أساتذة القانون بأنه إذا كان لفئة فى المحيط العلمى حق فى أن تختار رئيسا وتضع نظما وقوانين يتبعها الجميع، فإن هذا الحق ينبغى من الناحية القانونية أن يكون للأساتذة وحدهم، كما كان الحال فعلا بالنسبة لأساتذة باريس.

على أن هذه الصرخات التى أطلقها أساتذة بولونا لم تفلح فى وقف تطور اتحادات الطلبة، وسرعان ما أثبتت هذه الاتحادات أنها على درجة من القوة مكنتها من الوقوف فى وجه الأساتذة من ناحية وسلطات المدينة من ناحية أخرى، ويكفى أنها كانت تستطيع إشهار سلاح المقاطعة فى وجه أى أستاذ، وعندئذ تحرمه من دخله الذى يعيش عليه، لاسيما بعد أن أصبح أساتذة بولونا يتقاضون رواتب معينة من هذه الاتحادات، هذا إلى أن اتحاد الطلبة دأب على تهديد حكام المدينة بالهجرة إلى أية مدينة أخرى مجاورة، وفى ذلك قضاء على ما تجنيه بولونا من رواج اقتصادى نتيجة لوجود هذه الأعداد الغفيرة من المعلمين والمتعلمين داخل أسوارها.

وهكذا لم تلبث اتحادات الطلبة فى بولونا أن حققت - بمرور الوقت سيطرة تامة على الأساتذة، كما حرمتهم من كثير من السلطات والحقوق التى تمتع بها إخوانهم أساتذة الجامعات الشمالية، على أنه يلاحظ دائما أن الغرض الأساسى من قيام اتحادات الطلبة فى بولونا كان حماية مصالح المغتربين.

وبعد أن اندمجت الاتحادات الأربعة لطلبة جامعة بولونا أثناء القرن الثالث عشر لينشأ منها اتحادان كبيران، جاءت الخطوة التالية فى القرن الرابع عشر بالاندماج التام وفيها اتحاد واحد لطلبة بولونا له نظمه الموحدة، وعلى الرغم من عدم وجود رئيس أو مدير واحد لهذا الاتحاد، إذ ظل هناك رئيسان ينوب أحدهما عن الآخر فى حالة غيابه، فإن الاتحاد كان له خاتم واحد تدمغ به أوراقه وقراراته الرسمية، وكان اختصاص مدير الاتحاد - وهو مدير الجامعة - مستمدا فى أول الأمر من قوانين الاتحاد، وله أن يطبق العقوبات التى فرضها الاتحاد على المخالفين من أعضائه، وقد اعترفت السلطات الحاكمة فى بولونا بسلطة مدير الجامعة على الطلبة وحقه فى توقيع الجزاءات عليهم، وكان المفروض أن هذا الاعتراف جاء خاصا بالحالات التى يكون فيها الطرفان المتخاصمان أعضاء فى اتحاد الطلبة، ولكن هذه الاتحادات طمعت فيما هو أكثر من ذلك - أى فى أن يصبح لها حق الفصل فى أية قضية أحد طرفيها فى الاتحاد سواء كان جانيا أو مجنيا عليه. ومن الواضح أن



السلطات الحاكمة فى المدينة لم تستطع أن توافق على مثل هذا الوضع، مما جعل الأمر موضع نزاع دائم بين المدينة والجامعة.

ويبدو أن رئيس الاتحاد ـ أو مدير الجامعة ـ استمد نفوذه من لائحة الجامعة، بمعنى أن سلطته كانت تنفيذية بحتة فيطبق العقوبات التى فرضتها اللائحة على المخالفين من أعضاء الاتحاد، على أن سلطة مدير الجامعة لم تقتصر على طلبة الجامعة فحسب، بل امتدت إلى نسبة كبيرة من أهل بولونا الذين ربطتهم علاقات مباشرة ـ أو غير مباشرة ـ بالوسط الجامعى.

وكان مدير جامعة بولونا ـ وهو رئيس اتحاد طلبتها ـ يختار عن طريق الانتخاب غير المباشر، على أن يراعى فيه التدين وأن يكون أعزب ولا يقل سنه عن أربع وعشرين عاما قضى منها خمسة أعوام على الأقل فى دراسة القانون، ومن الواضح أن صاحب هذه الوظيفة كان لابد وأن يظهر فى مظهر يتناسب وأهميتها، وأن يعيش فى مستوى معين، فى حين أنه لم يكن يتقاضى أجرا عن وظيفته سوى نصف قيمة الغرامات التى يحصلها من الطلبة المخالفين؛ لذلك أعرض كثيرون عن قبول وظيفة مدير جامعة بولونا، مما أدى إلى تناقص أهميتها تدريجيا حتى تلاشت قرب نهاية القرن الخامس عشر، هذا بالإضافة إلى ما صادفه مديرو جامعة بولونا من مقاومة من جانب بلدية المدينة للحد من نفوذهم وسطوتهم، أما الهيئة العليا التى ظلت تتمتع بسلطة واسعة فى إدارة شئون جامعة بولونا، فظلت مجلس الجامعة الذى ضم كافة طلابها.



جامعة باريس


شارلمان

وإذا كانت الحركة التى تمخضت عن الجامعات لم تتخذ طابعا دينيا فى إيطاليا وجنوب أوروبا، فإن هذه الحركة ذاتها اتخذت طابعا دينيا واضحا فى بلاد شمال أوروبا، وحسبنا أن جامعة باريس -أم الجامعات الشمالية- ولدت داخل نطاق أسقفية باريس ومدرستها، كما أنها اتجهت فى دراستها نحو اللاهوت والدراسات التأملية والمشاكل الفلسفية، وهنا نكرر القول بأن المدارس الأسقفية فى أوروبا العصور الوسطى لم تقل عن المدارس



الديرية فى طابعها الكنسى وأهدافها الدينية، الأمر الذى كانت له أهميته القصوى فى تحديد صورة الحركة الثقافية التى نشأت عنها جامعة باريس، وبالتالى بقية الجامعات فى شمال أوروبا.

وهناك أسطورة قديمة تحاول الرجوع بالأصول الأولى لجامعة باريس إلى مدرسة القصر فى عهد شارلمان (سنة ٨٠٠)، أو على الأقل فى عهد شارل الأصلع، على أن بطلان هذه الأسطورة يجعلها أضعف من أن تحتمل التكذيب، إذ يكفى أننا لم نسمع إطلاقا عن مدرسة فى باريس على عصر شارلمان وشارل الأصلع، وربما كانت تورويمس وفولدا هى أشهر مدارس ذلك العصر قبل أن يظهر اسم باريس فى ميدان العلم والتعليم.

هذا إلى أنه من الثابت أن جامعة باريس نشأت من المدرسة الكاتدرائية فى تلك المدينة، وهى المدرسة التى لم تحظ بأدنى قسط من الشهرة حتى أواخر القرن الحادى عشر، والواقع أن انتقال النشاط التعليمى فى غرب أوروبا من المدارس الديرية إلى المدارس الكاتدرائية ـ الأوسع أفقا والأكثر ارتباطا بالحياة الدنيوية ـ كان أهم ثورة تعليمية شهدها القرن الحادى عشر، أى فى الوقت الذى نستطيع أن نتتبع البذور الأولى للحركة الجامعية فى باريس.

وكان الاتجاه السائد فى غرب أوروبا منذ القرن الحادى عشر فصاعدا هو أن يكون القائمون بالتدريس فى المدارس الدينية أعضاء نظاميين فى الهيئة الكنسية، وذلك عن طريق جعل الإشراف على المدارس الأسقفية من اختصاص أمين الكاتدرائية Chancel-lor وقد تركز اختصاص أمين الكاتدرائية فى أول الأمر فى الاحتفاظ



نموذج للمكتبة الديرية – فى لوحة سان چيروم سنة ١٤٦٤



بخاتم الكنيسة وتدوين الخطابات والوثائق التى يستدعى الأمر ختمها بذلك الخاتم، ولما كانت هذه المهام تتطلب من القائم بها الإلمام بقدر كاف من المعرفة، فقد أصبح طبيعيا أن يناط بصاحب هذه الوظيفة الإشراف على مدارس الأسقفية والعناية بمكتبة الكاتدرائية وأرشيفها. وهكذا أخذ أمين الكاتدرائية يقوم بتعيين المدرسين اللازمين للتدريس بمدرستها تحت إشرافه دون أن يسهم هو بقسط فى التدريس إلا تدريس اللاهوت فى بعض الحالات، على أن يترك تدريس النحو والجدل لغيره من الأساتذة.

وقد تطلب انتشار التعليم انتشارا سريعا فى القرن الثانى عشر ازدياد أعداد الأساتذة الذين التفوا حول المدارس الكنسية طالبين السماح لهم بالتدريس للطلبة القادرين على دفع أجور التعليم، ومنذ ذلك الوقت أصبح مألوفا أن يمنح أمين الكاتدرائية تراخيص لهؤلاء الأساتذة بفتح مدارس خاصة بجوار الكنيسة. ويبدو أن أمين كاتدرائية باريس كان يتقاضى ضريبة معينة مقابل منح هذه التراخيص، بدليل أن أحد المجامع الدينية حرم سنة ١١٣٨ بيع التراخيص الخاصة بفتح مدارس بجوار الكنائس، كذلك اتخذ البابا إسكندر الثالث بعض الإجراءات لوقف بيع التراخيص بالتدريس، حتى أصدر مجمع اللاتران الثالث سنة ١١٧٩ قرارا صريحا لا بتحريم جمع ضرائب أو رسوم مقابل الترخيص للأفراد بالتدريس فحسب، بل أيضا بحث المشرفين على المدارس الكنسية على منح هذه التراخيص فورا لكل من يطلبها ما دامت تتوافر فى المتقدمين الصلاحية لمزاولة مهنة التدريس، وهكذا لم يعد أمين كاتدرائية باريس يتمتع باحتكار هذه التراخيص أداة لجمع المال، وإنما أصبح مجرد حكم على صلاحية الشخص للتدريس، وبعبارة أخرى مشرفا عاما على شئون التعليم داخل حدود الأسقفية.

وازداد الاتجاه فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر نحو الاعتراف بالطلبة فى باريس كهيئة قائمة بذاتها لها وضعها الخاص وامتيازاتها المعترف بها، على أن الامتيازات التى حصل عليها الطلبة فى جامعات شمال أوروبا اختلفت عن تلك التى تمتعوا بها فى الجامعات الإيطالية، فالنظرة إلى الطلبة فى المدن الإيطالية اتجهت نحو اعتبارهم طبقة منفصلة عن رجال الدين من ناحية وعن عامة المواطنين العلمانيين من ناحية أخرى، ومن ثم حصلوا على امتيازاتهم عن طريق الاتفاق مع بلديات المدن ومواطنيها.

أما فى فرنسا فقد اتجهت النظرة إلى جميع الطلبة ـ فضلا عن الأساتذة ـ على أنهم من رجال الدين ما داموا مرتبطين بمدارس كلية؛ ولذلك تمتعوا بالحصانة والامتيازات التى تمتع بها غيرهم من الأفراد المرتبطين بالكنيسة.



ثم كانت الثورة التى قام بهـا طلاب باريس سنة ١٢٠٠ بسبب اعتداء بعض أهالى المدينة عليـهم، وقد نكل محـافظ باريس عندئذ بالطلبة تنكيـلا شديدا، مما جعل الأسـاتذة يستنجدون بملك فـرنسا فيليب أوغـسطس لرفع الحيف عن طلاب العلم. ويبدو أن فيليب أوغسطس خشى أن يؤدى غضب الأساتذة إلى أن يهجروا باريس كلية، مما يعـود عليها بخسارة فـادحة؛ ولذلك أسرع إلى استرضـائهم فأمر بحبس محافظ باريس وعقاب المعتـدين بشدة وحزم، كذلك منح فيليب أوغسطس براءة للجامـعة سنة ١٢٠٠ نصت على أن أى طالب تقبض عليـه السلطات المدنية فى تهمة أو جريمة ما، يجب تسليمه للكنيسة لتتولى هى محاكمته، كما طلب من مواطنى باريس أن يتعهدوا باحترام حقوق الطلبة ويحسنوا معاملتهم، أما محافظ باريس الجديد فقد اشترط عليه أن يحترم امتيازات الجامعيين، على أن يقسم على ذلك أمام جموع الطلبة قبل أن يباشر مهام وظيفته، ومن الواضح أن هذه البراءة - التى يمـيل البعض إلى اتخاذها دليلا على مولد جـامعة باريس - لم تنص رسميا على الاعتراف بالجامعة، وإن اعترفت ضمنيا بقيام مجتمع من رجال العلم لهم حقوق تجب مراعاتها.

وحوالى ذلك الوقت حصلت جامعة باريس على الاعـتراف رسمى بها، عندما أصدر البابا أنوسنت الثالث مرسـوما يخول لجامعـة الأساتذة الحق فى اختيار نائب عنهـا أو مندوب يمثلها فى البلاط البابوى، ومن الواضح أن هذا القـرار البابوى يعنى من الناحية القانونية الاعتـراف بالجامعة كهيـئة تتبادل التـمثيل مع غيرها من الهـيئات، وهنا نشيـر إلى أنه لم يكن من الضرورى فى ذلك العصر صدور براءات من الملوك والبابوات لتنص صراحة على الاعـتراف بهيئة أو نقابة معينة؛ لأن نشأة مـثل هذه الهيـئات والنقـابات جاءت تدريجـية؛ وإنما كـانت البراءة تصـدر لإثبات حـقوق وامتيازات تمتـعت بها الهيئة أو النقابة فـعلا وباشرتها قبل صدور البـراءة، وهكذا اعترف أنوسنت الثالث بـحق الأساتذة فى تكوين نقـابة تضمهم، وجـاء هذا الاعتـراف ضمنيا فـى المرسوم الذى يعطيهم حق تعيين مندوب عنهم فى البلاط البابوى.

على أن نفوذ أمـين الكاتدرائية فى السنوات الأولى لمولد الجامعـة لم يقتصر علـى حقه فى الترخيص لمن يشاء بمزاولة مهنة التدريس، وإنما امتد إلى حرمان من يشاء من الأساتذة المعترف بهم من مـزاولة هذه المهنة؛ فضـلا عن حقـه فى توقـيع الجزاءات على رجـال العلم المذنبين وإصـدار التعليمات الخاصـة بتنظيم شئون الأساتذة والطلاب جميعا، ولكن بقـدر ما كان لأمين الكاتدرائية من نفوذ واسع على الأساتذة كأفراد، إلا أنه لم يتمتع بمركـز فى نقابتهم لأنه لم يكن عضوا فيها، وإذا كان أمين الكاتدرائية امتلك سلاحا قويا هو السماح للفرد بمزاولة مهنة التدريس، فإن الأساتذة امتلكوا سلاحا أقـوى - أو على الأقل لا يقل قوة - هو حقهم فى قبـول أو رفض أى عضو جديد

يريد الانضمام إلى نقابتهم، فضلا عما يجب على العضو الجديد من أن يقسم يمين الولاء للنقابة التى سينضم إليها؛ لذلك لم تكن هناك أية قيمة لحق أمين الكاتدرائية فى السماح لفرد بالتدريس ما دام هذا الحق سيصبح رهنا بموافقة نقابة الأساتذة على قبول هذا العضو الجديد فيها، ومن الواضح أن الغرض من قيام نقابة الأساتذة فى أول الأمر كان حماية أعضائها من استبداد أمين الكاتدرائية، ولكنها لم تلبث أن تحولت ـ مثل غيرها من النقابات المهنية ـ إلى هيئة تستهدف احتكار مزاولة مهنة التدريس وجعل هذا الحق وقفا على دائرة ضيقة من أعضائها، وهكذا يبدو أن كلا من أمين الكاتدرائية ونقابة الأساتذة كان يمثل فى باريس سلطة منفصلة عن الأخرى تمام الانفصال، بل أخذ كل فريق يوجه جهوده نحو إبطال حقوق الجانب الآخر أو الحد منها. ولو ترك الفريقان يتنازعان النفوذ دون تدخل سلطة ثالثة خارجية لاستطاع أمين الكاتدرائية ـ بحكم ما لمركزه من أصالة شرعية ـ أن يقضى على الهيئة الجامعية الناشئة وهى فى المهد، ولكن تدخل البابوية رجح إحدى كفتى الميزان، فاستطاعت رابطة الأساتذة ـ أو بعبارة أخرى جامعة باريس الناشئة ـ أن تكسب الكثير بفضل استجارتها بالبابوية بين حين وآخر طالبة إنصافها من تحكم أمين الكاتدرائية.

وقد حرَّم البابا على أمين كاتدرائية باريس فرض عقوبة السجن على الطلبة إلا فى حالات خاصة عندما يكون الذنب كبيرا، وأن يفرج عن المذنب فى الحالات البسيطة إذا ضمنه ضامن، وفى نفس الوقت حرم عليه أيضا فرض غرامات مالية على الطلاب مهما كانت الملابسات.

وكان أن نظمت جميع هذه القرارات السابقة ـ وغيرها ـ فى النصف الأول من القرن الثالث عشر فى صورة لائحة مدونة للجامعة الجديدة، فى الوقت الذى تمتعت جامعة باريس ـ أى رابطة الأساتذة فيها ـ بحق وضع التشريعات واللوائح التى تنظم شئونها، وجاءت هذه الخطوة مصحوبة بعمل خاتم رسمى للجامعة لختم أوراقها الرسمية، كما صحب ذلك أيضا تعيين بعض الموظفين للقيام بالشئون الإدارية، حتى يتفرغ الأساتذة لمهامهم العلمية.

وأخيرا وجد أسقف باريس أن الهيئة الجامعية الجديدة، أقوى من أن تهدم بالطرق العادية، فوقع قرار الحرمان على الجامعة «بكامل هيئتها» سنة ١٢٢٢، ولكن البابوية أنكرت على الأسقف إصدار مثل هذا القرار دون إذن خاص منها، وهكذا ظلت البابوية تناصر جامعة باريس، وإن كانت الجامعة قد دفعت ثمن هذه المساعدة غاليا، إذ دخلت فى دائرة النظام الكنسى، وأصبحت خاضعة خضوعا يكاد يكون تاما للنظم الكنسية.

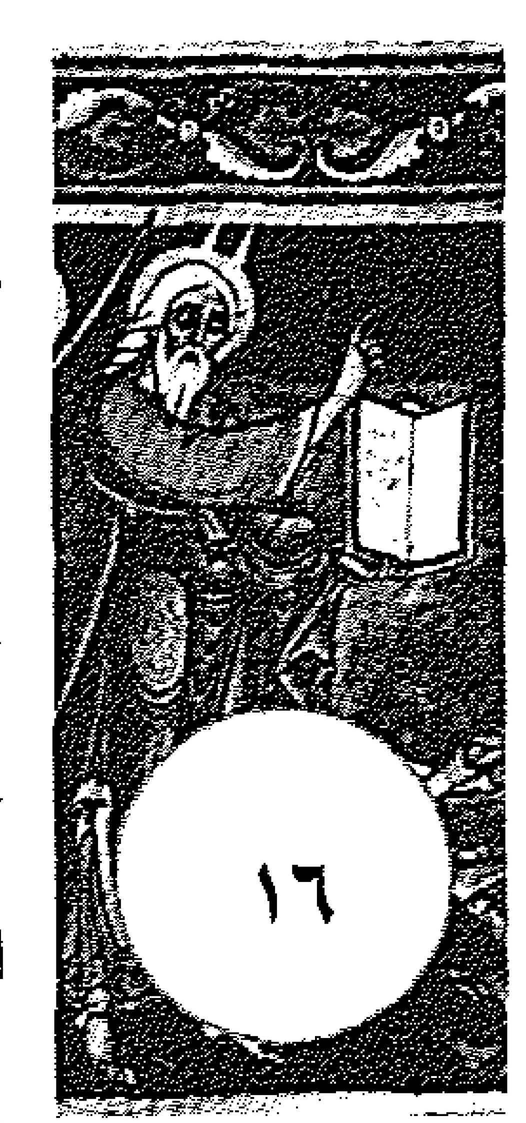
وثمة تطور آخر هام شهدته جامعة باريس فى النصف الأول من القرن الثالث عشر هو نشأة نظام الأروقة الجامعية، ومن الثابت أن أروقة جامعة باريس شملت أساتذة الآداب وحدهم،



فانقسموا إلى أربعة أقسام كل منهم يحمل اسم إحدى القوميات أو العناصر الرئيسية التى تألفت منها جامعة باريس عند قيامها، ومن الأمور التى تسترعى انتباهنا أن أروقة جامعة باريس ـ وهى الأروقة الخاصة بكلية الآداب ـ صار لها حق اختيار مدير الجامعة، مع العلم بأن جامعة باريس كانت بها ثلاث كليات أخرى للاهوت والقانون الكنسى والطب، ومع أن هذه الكليات الثلاث كانت أعلى مستوى من كلية الآداب ـ لأن مهمة الكلية الأخيرة صارت إعداد الطلاب للدراسات العليا التى تقوم بها بقية الكليات، إلا أن كلية الآداب كانت أسبق إلى تنظيم أمورها، مما حقق لها ولأساتذتها نوعا من الزعامة على بقية الكليات فى باريس، وهكذا كان يحدث عند عقد اجتماع بين كليات باريس الأربع أن تكون الرئاسة لعميد الآداب، وإن كانت هذه الاجتماعات العامة عديمة الأهمية لخلوها من أية مناقشة فعلية.

وكان أهم امتياز حصلت عليه الجامعة فى ذلك الوقت هو المرسوم البابوى الذى وصف بأنه «العهد الأعظم» بالنسبة للجامعة، وبمقتضاه صرح البابا للجامعة بالإضراب عن العمل إذا تعرضت لإهانة، فضلا عن حق الجامعة فى وضع اللوائح وعقاب الخارجين على نظامها، وفى الوقت نفسه

«نوتردام» القديمة أهم الكنائس فى باريس فى العصور الوسطى



وضعت عدة قيود لتحد من سلطة أمين الكاتدرائية وسلطة أسقف باريس، فعند تولية أمين جديد للكاتدرائية أصبح واجبا عليه أن يقسم على أن يكون عادلا بعيدا عن الهوى فى الامتحانات، فى حين طلب من الأسقف أن يكون معتدلا فى مباشرة سلطته القضائية وألا يلقى القبض على الطلبة الأبرياء، أو يفرض عليهم عقوبات مالية، ومن الواضح أن هذه التنظيمات استهدفت تحطيم الولاية القضائية التى تمتع بها أسقف باريس وأمين كاتدرائيتها على طلبة الجامعة، وفى سنة ١٢٤٥ حصلت جامعة باريس من البابا أنوسنت الرابع على حق جديد يقضى بعدم محاكمة الطلبة واستجوابهم أمام المحاكم الكنسية التى تقع بعيدا عن باريس، حتى لا يؤدى ذلك إلى تعطيلهم عن الدراسة، وإذا كان البابا قد منح الجامعة هذا الحق فيما يتعلق بالقضايا ذات الصبغة الدينية، فإن الملك لم يلبث أن خوله للجامعة بعد ذلك فيما يختص بالقضايا المدنية، وبذلك أصبح هذا الحق من أهم المميزات التى تمتعت بها جميع الجامعات التى قامت على نمط جامعة باريس.

ومهما كان الأمر فإنه يمكن القول بأن نظم جامعة باريس بلغت عند نهاية القرن الثالث عشر الصورة التى ظلت عليها حتى نهاية العصور الوسطى، وامتازت السنوات الأخيرة من هذا القرن بآخر حلقة هامة من حلقات الصراع بين الجامعة وأمين الكاتدرائية.

وهكذا أظهرت جامعة باريس حرصا شديدا على امتيازاتها وتمسكا بحقوقها فأخذت تقاوم كل محاولة للانتقاص من حقوقها القضائية وإعفاءاتها المالية، ومع ذلك فقد ظهر فى أواخر القرن الخامس عشر أن جامعة باريس استنفدت طاقتها فى المنازعات التى لم تنقطع مع السلطتين الكنسية والمدنية، بحيث لم تعد الجامعة تقوى على الاحتفاظ بكل حقوقها وامتيازاتها الأولى، وساعد على انكماش هذه الحقوق والامتيازات تطور روح العصر تطورا جعل من الصعب على أية هيئة أو نقابة فى أواخر القرن الخامس عشر أن تحتفظ بحقوقها التى تمتعت بها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر سليمة كاملة، ويبدو أنه كان فى استطاعة جامعة باريس أن تحتفظ بقدر لا بأس به من امتيازاتها لو أنها نهجت طريقا أكثر اعتدالا واستخدمت فى الدفاع عن حقوقها أساليب أكثر اتزانا من الأسلحة القديمة البالية التى لم تعد تناسب عقلية القرن الخامس عشر.

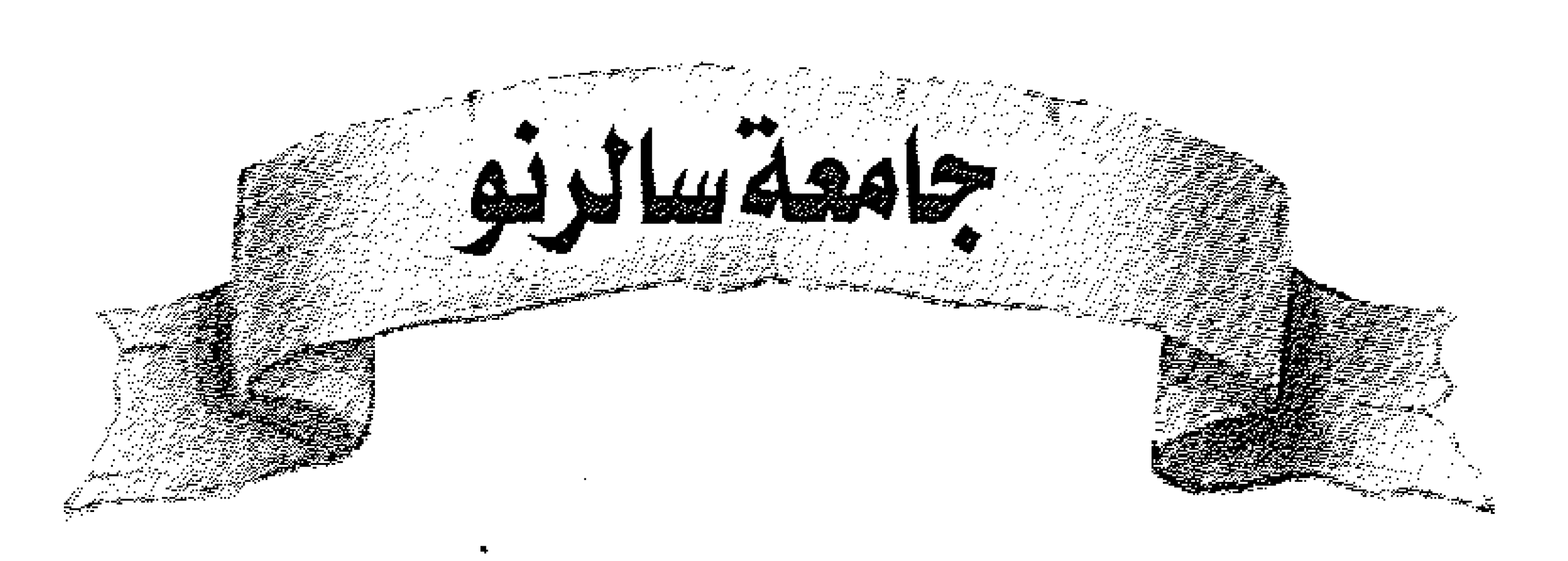
وقد شهد عهد لويس الحادى عشر (١٤٦١- ١٤٨٢) زوال البقية الأخيرة من مظاهر نفوذ الجامعة واستقلالها، فبعد أن أشرك هذا الملك ستة من أساتذة الجامعة فى مجلسه الخاص عاد واتهمهم بالخيانة، وأصدر قرارا سنة ١٤٦٧ يحرم على الجامعة ورجالها الاشتغال بالسياسة أو الخوض فى مشاكلها «حتى فى رسائلهم الخاصة التى يبعثون بها إلى ذويهم».



كـذلك أمر الملك بتطبـيق أحد القـوانين المهـملة، وينص على أن يحضـر مندوب من قبل الملك عـملية انتخـاب مدير الجامعـة. ولـم تستطع جامـعة باريس عندئذ ـ نتيجـة لكثرة الحروب ـ إعفاء طلبـتها من الخدمة العـسكرية الإجبارية إلا بمشـقة بالغـة، ولـم تلبث الدولة أن أخـذت تتدخل تدريجـيا فى دقـائق الشئـون الداخلية لـلجامعـة، بعد أن ظلت نحـوا من قرنين تعـمل كما لو أنهـا اكتـسبت حقوقها بمقتضى «قانون إلهى» وهكذا أفـاقت جامعة باريس أخيرا لتنزل من برجها العاجى، وتتذكر أن الامـتيازات التى منحها الملك للجامـعة يمكن للملك أيضا أن يسلبها إياها.

وكان ذلك سنة ١٤٧٤ عندما أمر لويس الحادى عشر بأن يكون مدير جامعة باريس خاضعا لنفوذه على الدوام، فلما عصى المدير الأمر أقيل من وظيفته وحـرمت الجامعة من جميع امتيازاتها السابقة، حقـيقة إن الجامعة استـردت هذه الامتيازات عند اختيار مـدير جديد لها ولكن ذلك جاء بعد أن فقدت الجامعة كبرياءها، ويتضح ذلك بالمقارنة بين النغمة التى كانت جامعة باريس تخاطب بها الملك وبرلمان باريس فى أوائل حكم لويس الحادى عشر، وتلك التى غدت تستعملها فى أواخر ذلك الحكم، وبعد أن كانت الجامـعة تقاوم تدخل برلمان باريس فى شئونها، إذا بهـا تلجأ إليه بين حين وآخر لفض مشاكلها وتقدم لأعضائه الشكر على ما يبذلونه من جهد فى هذا السبيل.

وإذا كانت جـامعـة باريس قد تمتـعت بشىء من العطف فى عـهد شارل الـثامن (١٤٨٣-١٤٩٨)، إلا أنها تـلقت الضربة الأخـيرة فى عـهد لويس الثـانى عشر (١٤٩٨- ١٥١٥) عـندما حرمت من حق الإضراب. وهكـذا تم خضوع جامعـة باريس للتاج الملكى خضوعـا تاما، فزالت آخر بقايا الامتيـازات التى تمتعت بها هيئة من أهم الهيئات التى عرفـتها أوروبا العصور الوسطى، ولـم يكن ذلك التطور فى حقـيقة الأمر إلا مظهـرا من مظاهر الاتجاه الذى امتاز به الـقرن السادس عشر نحو القضاء على ما تبقى من امتيازات العصر الإقطاعى فى أوروبا العصور الوسطى.



وإذا كنا فى الحديث عن نشـأة الجامعات الأوروبية فـى العصور الوسطى قد آثرنا جـامعتى بولونا وباريس بالقسط الأكبر من عنايتنا، فإن السبب فى ذلك يرجع ـ إلى أثر هاتين الجامعتين فى نشأة وتطور بقية الجامعات التى عرفتهـا أوروبا منذ القرن الثانى عشر على أن هناك جامعة ثالثة لا تقل عمـرا عن جامعـة بولونا أو جامـعة باريس، بل إن أصولهـا ترجع إلى ما قبـل ظهور هاتين



الجامعتين بوقت طويل، ونقصد بها جامعة سالرنو التى ظلت زهاء قرنين تتمتع بشهرة واسعة فى ميدان الطب، ما ثبت شهرة بولونا فى القانون وشهرة باريس فى الدراسات المدرسية؛ ذلك أن القرن الحادى عشر امتاز بإحياء الدراسات الطبية فى أوروبا بالضبط كما امتاز بإحياء الدراسات القانونية واللاهوتية والجدلية، بل يمكن القول بأنه من ناحية الزمن جاءت حركة إحياء الدراسات الطبية مبكرة عن غيرها، حتى ذاعت شهرة سالرنو كمدرسة للطب قبل أن يبزغ نجم بولونا فى سماء الدراسات القانونية ونجم باريس فى ميدان الدراسات التأملية.

ويحوط الغموض الشديد نشأة مدرسة سالرنو وأصول دراسة الطب فيها، ومن الثابت أن كتابات علماء اليونان فى الطب - مثل هيبوقراط وجالينوس - ترجمت إلى اللاتينية منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن السادس، كما انتقلت العرب وأبحاثهم إلى سالرنو على يد قسطنطين الإفريقى، وإذا كان الغموض يحيط بشخصية قسطنطين الأفريقى، هذا إلا أنه من الثابت أنه قام بترجمة بعض مؤلفات العرب فى الطب إلى اللاتينية، وأشهرها مؤلفات على بن العباس، هذا إلى أن سالرنو نفسها اشتهرت بجوها الصحى ومياهها المعدنية، مما جعلها مشفى للمرضى ومقصد طالبى الاستشفاء فى أوروبا العصور الوسطى، وقد بلغت هذه المدينة أوج شهرتها فى الطب عندما زارها روبرت النورمانى للاستشفاء سنة ١٠٩٩ بعد أن أصيب بجراح فى الحروب الصليبية.

ومهما كان الأمر فإنه لا يمكننا القول بقيام جامعة بالمعنى المعروف فى سالرنو، لأننا لا ندرى شيئا عن نظم هذه



الملك «لويس» الحادى عشر فى بلاطه

المدرسة، كما أن بقية مدارس الطب فى أوروبا العصور الوسطى لم تتأثر من ناحية النظم والنشأة بمدرسة سالرنو، ولم يكن ذلك إلا سنة ١٢٣١ عندما حظيت سالرنو - لأول مرة - باعتراف رسمى، عندما أصدر الإمبراطور فردريك الثانى فى تلك السنة مرسوما يحرم ممارسة مهنة الطب أو تدريس أصول هذه المهنة داخل دولته دون الحصول على ترخيص ملكى على أن يعطى هذا الترخيص بعد امتحان الطالب أمام لجنة من أساتذة سالرنو. كذلك أصدر الإمبراطور مرسوما يحدد السنوات التى يجب أن يقضيها الطالب فى دراسة الطب.



كتاب «الترياق» العربى الذى ترجم عن جالينوس

وإذا كان الإمبراطور فردريك الثانى قد أنشأ جامعة فى نابلى، إلا أن سالرنو ظلت مركز الدراسات الطبية، حتى اضمحلت وأخذت تموت موتا بطيئا صامتا فى القرن الرابع عشر دون أن تترك أثرا فى النظم الجامعية فى العصور الوسطى.

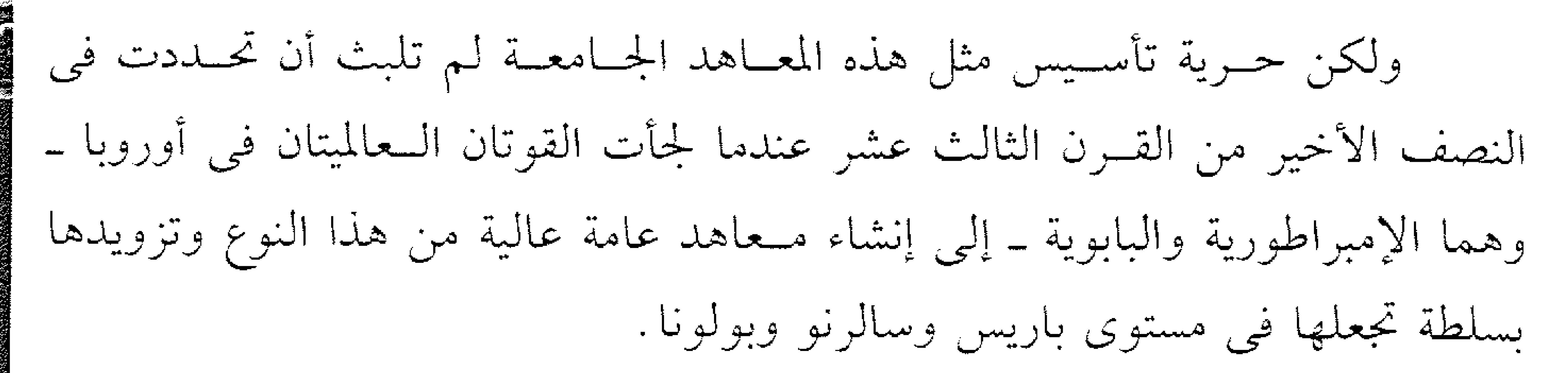


رسم لبدايات دراسة التشريح.. فى فرنسا

الفصل الثانى
انتشار الجامعات فى أوروبا

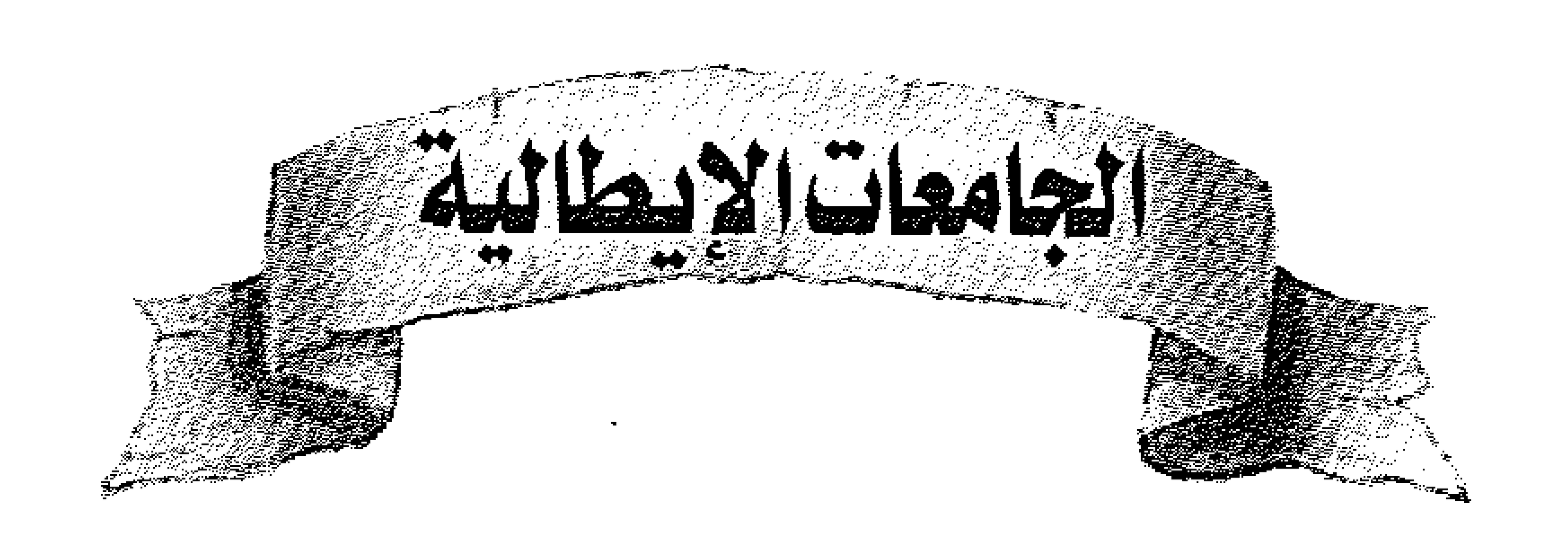
اتضح لنا من دراسة نشأة جامعتى بولونا وباريس أن هاتين الجامعتين يمثلان نمطين أو نوعين مختلفين من أنواع الجامعات، فالأولى تمثل الجامعات التى قامت على أساس اتحاد الطلبة والثانية تمثل الجامعات التى قامت على أساس اتحاد الأساتذة، ولم تلبث بلاد غرب أوروبا أن شهدت منذ القرن الثالث عشر نشأة عدد كبير من الجامعات المتفرقة، ومن هذه الجامعات ما كان أصله مدارس قديمة سابقة خلعت على نفسها صفة الجامعة، ومنها ما قام بتأسيسه بعض الحكام أو المدن أو أساتذة الجامعات الأقدم عمرا، والذى يهمنا من أمر هذه الجامعات الناشئة هو أن بعضها سار وفق النظم المعمول بها فى جامعة بولونا، فى حين سار البعض الآخر وفق النظم المعمول بها فى باريس، وإن كان من الصعب فى كثير من الأحيان وضع خط فاصل دقيق بين هذين النوعين من الجامعات؛ لأن كثيرا من الجامعات الناشئة فى أواخر العصور الوسطى تأثرت ببولونا وباريس معا، واستمدت نظمها منهما جميعا، وهنا يجب أن نتذكر أنه على الرغم مما كان لنقابة الطلبة فى جامعة بولونا من سيطرة تامة على هيئة التدريس، إلا أن الأساتذة فى هذه الجامعة كانت لهم رابطة اختصت وحدها بمنح الدرجات العلمية وبالإذن لأى عضو جديد بالدخول فى رابطة الهيئة.

وإذا كان لفظ المدرسة العامة أو الجامعة Studium Generale يعنى ـ كما سبق أن ذكرنا ـ المكان الذى يفد إليه الطلبة من جميع الجهات للدراسة، على أن تكون الدراسة فيه على مستوى عال ويحوى إحدى الكليات العالية على الأقل، فإن هذه الشروط لم تتوافر فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر إلا فى مراكز قليلة محدودة وسرعان ما ظهرت عدة عوامل دفعت بعض أساتذة هذه الجامعات وطلابها إلى الهجرة إلى مدن أخرى حاملين معهم تقاليد الجامعة الأم ونظمها، مما أدى إلى تكاثر الجامعات وهى العملية التى شبهها بعض الكتاب بتكاثر خلايا النحل، أما هذه العوامل فأهمها الخلافات الداخلية فى الجامعات الأولى ـ وبخاصة بولونا وباريس ـ مما أدى إلى هجرة بعض الأساتذة الغاضبين، وشعور الغيرة الذى أحست به المدن الأخرى المجاورة فحاولت أن تغرى أساتذة الجامعات إليها لتستفيد اقتصاديا وأدبيا من قيام مجتمع جامعى فيها، ثم ازدياد عدد الأساتذة المرخص لهم بالتدريس فى بيئة جامعية مما دفعهم إلى البحث عن مكان جديد يجدون فيه مجالا أوسع للعمل، ومهما كان الأمر فإن الجامعات الجديدة تفاوتت فى مصيرها ومقدار حظها من النجاح، فمنها ما تعرض للفشل والذبول السريع ومنها ما استطاع البقاء وتطبيق الأساليب نفسها المعمول بها فى الجامعة الأم.



ولكن حرية تأسيس مثل هذه المعاهد الجامعة لم تلبث أن تحددت فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما لجأت القوتان العالميتان فى أوروبا ـ وهما الإمبراطورية والبابوية ـ إلى إنشاء معاهد عامة عالية من هذا النوع وتزويدها بسلطة تجعلها فى مستوى باريس وسالرنو وبولونا.

ففى سنة ١٢٢٤ أنشأ الإمبراطور فردريك الثانى جامعة فى نابلى، وفى سنة ١٢٢٩ أنشأ البابا جريجورى التاسع جامعة مشابهة فى تولوز، فى حين أنشأ البابا أنوسنت الرابع جامعة من هذا النوع فى البلاط البابوى نفسه (١٢٤٤- ١٢٤٥) ولا شك فى أن قيام الإمبراطورية والبابوية بإنشاء مؤسسات جامعية أوجد فكرة جديدة هى أن الجامعات الناشئة يجب أن تحصل على ترخيص من الإمبراطور أو البابا يكسبها صفة شرعية، وهكذا لم تلبث بعض المدن فى غرب أوروبا أن حصلت على مراسيم بابوية أو إمبراطورية لتسموا بمدارسها إلى مستوى الجامعات، بل إن بعض الجامعات الأولَى ـ مثل باريس وبولونا ـ استصدرت مراسيم من البابا نيقولا الرابع للاعتراف بها وإكسابها صفة شرعية عالمية (١٢٩١- ١٢٩٢) ولكن ليس معنى ذلك أن جميع الجامعات التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى حصلت على مراسيم بابوية أو إمبراطورية، فقد قامت بعض الجامعات ـ مثل أكسفورد وبادوا ـ دون أن يؤسسها إمبراطور أو بابا، ودون أن تحصل على مرسوم بشرعيتها من إحدى هاتين السلطتين العالميتين، ومع ذلك اعترف فقهاء القرن الرابع عشر بأنها جامعات شرعية «بحكم العرف والعادة»، هذا إلى أن بعض الجامعات الأخرى ـ وبخاصة فى أسبانيا ـ أسسها ملوك البلاد دون استشارة بابا أو إمبراطور ودون الحصول على اعتراف بها من إحدى هاتين السلطتين العالميتين، ومع ذلك اكتسبت ثوبا شرعيا، ومهما كان الأمر فإننا نجد أمثلة عديدة لهذه الجامعات وغيرها باستعراض انتشار الجامعات فى مختلف بلدان أوروبا فى العصور الوسطى.



الجامعات الإيطالية

كانت إيطاليا ـ كما سبق أن رأينا ـ من أولى البلاد الأوروبية التى شهدت نشأة الجامعات فى العصور الوسطى، وإذا كانت مدينة بولونا قد وافقت ـ عن طيب خاطر ـ على منح نقابة الطلبة ما خولته لبقية النقابات المهنية والتجارية من حقوق، فإن الجامعة لم تكتف بهذا القدر وطلبت من

المدينة مزيدا من الامتيازات، مما أدى إلى نزاع بين مدينة بولونا من ناحية وجامعتها الناشئة من ناحية أخرى.

وقد شهدت إيطاليا منذ أواخر القرن الثانى عشر قيام كثير من الجامعات المتنافسة. حقيقة إن بعض هذه الجامعات لم تكن سوى مدارس محدودة الأفق، ولكن كان فى استطاعتها أن تطلق على نفسها اسم جامعة مادامت تضم طلابا ينتمون إلى وحدات سياسية أخرى، وإن كانت هذه الوحدات ليست فى حقيقة أمرها سوى مدن مستقلة، وأشهر الجامعات الإيطالية التى ظهرت فى الشطر الأخير من العصور الوسطى جامعة رجيو التى نشأت من مدرسة قديمة للبلاغة والنحو فى تلك المدينة، ثم تطورت إلى جامعة للقانون، حتى تم الاعتراف بها رسميا سنة ١٢١٠، أما جامعة فيتشنزا فتدين بنشأتها إلى هجرة قام بها رجال جامعة بولونا إلى تلك المدينة سنة ١٢٠٤، ولكن كانت هذه الجامعة قصيرة العمر، فلم تلبث أن ذبلت بعد سنوات قليلة، وكذلك قامت جامعة أرزو حوالى سنة ١٢١٥ نتيجة لهجرة علمية من بولونا، حتى أصبحت تلك الجامعة عند منتصف القرن الثالث عشر من أهم الجامعات الإيطالية، وقد وصلتنا لائحة لجامعة أرزو هذه ترجع إلى سنة ١٢٥٥، وهى من أولى لوائح الجامعات الإيطالية التى نعتمد عليها فى دراسة تاريخ هذه الجامعات فى العصور الوسطى، والغريب فى أمر هذه اللائحة أنها اختلفت اختلافا واضحا عن اللوائح التى كان معمولا بها عندئذ فى بولونا، الجامعة الأم؛ ذلك أن لائحة جامعة أرزو وضعها الأساتذة لا الطلبة؛ لأن جامعة أرزو نفسها قامت نتيجة لهجرة بعض أساتذة بولونا لا طلبتها، ومن ثم كانت الكلمة الأولى فى تصريف شئون الجامعة للأساتذة، وفى سنة ١٣٥٥ حصلت جامعة أرزو على براءة رسمية من الإمبراطور شارل الرابع.

على أن أهم الجامعات الإيطالية التى تفرعت عن بولونا كانت بدون شك جامعة بادوا (سنة ١٢٢٢) التى أخذت تبدو فى صورة منافس خطير لجامعة بولونا ذاتها حتى فاقتها فى جميع



مخطوطة محفوظة بأكسفورد تعود إلى القرن ١١ هـ



الميادين. ولم تلبث مدينة بادوا هى الأخرى أن أظهرت اتجاها تعسفيا نحو الطلبة، فى الوقت الذى وافقت مدينة فركيلى على أن تمنح الطلبة خمسمائة من خيرة منازلها، فضلا عما يحتاجون إليه من منح وامتيازات وقد أدى هذا العرض إلى هجرة عدد كبير من طلبة جامعة بادوا إلى فركيلى سنة ١٢٢٨، وإن كانت هذه الهجرة لم تؤثر بأى حال فى مصير جامعة بادوا ومستقبلها، وكان أن حصلت جامعة بادوا على اعتراف بحقوقها وامتيازاتها من البابا كلمنت السادس سنة ١٣٤٦، بعد أن ازدادت أعداد طلبتها فى أوائل القرن الرابع عشر نتيجة لهجرات وفدت إليها من بولونا سنة ١٣٠٦ وسنة ١٣٢٢، كذلك أفادت جامعة بادوا من التدهور التدريجى الذى أصاب سمعة بولونا وأساتذتها فى القرن الرابع عشر، وفى سنة ١٣٩٩ حصلت جامعة بادوا من حكام المدينة على مبنى خاص بها، كما خصصت بعض الضرائب فى المدينة لدفع مرتبات أساتذتها، وعندما خضعت مدينة بادوا لسيطرة البندقية سنة ١٤٠٤ لم تتأثر الجامعة بل دأبت حكومة البندقية على تشجيع جامعة بادوا وزادت مرتبات أساتذتها، والحق إن جامعة بادوا بلغت ذروة مجدها فى العصر الذى خضعت فيه المدينة لسيطرة البندقية، حتى غدت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر إحدى الجامعات الثلاث الأولى فى أوروبا؛ ذلك أنه حرم على رعايا البندقية أن يدرسوا فى جامعة أخرى غير جامعة بادوا؛ ولذلك هرع رعايا البندقية إلى جامعة بادوا ليتزودوا بالمعرفة التى تؤهلهم لتولى المناصب العامة، هذا إلى أن التسامح الدينى الذى تمتع به رعايا البندقية دفع كثيرا من أهالى البلاد البروتستانتية إلى مواصلة دراستهم فى بادوا بعقيدتهم من حركة الاضطهاد المضادة التى قام بها الكاثوليك، وهكذا غدت بادوا فى ظل حكم البندقية بمثابة مدينة جامعية كبرى، بل غدت - على قول بعض الكتاب - «الحى اللاتينى للبندقية».

أما جامعة نابلى فجاءت وليدة الصراع بين البابوية والإمبراطورية، إذ



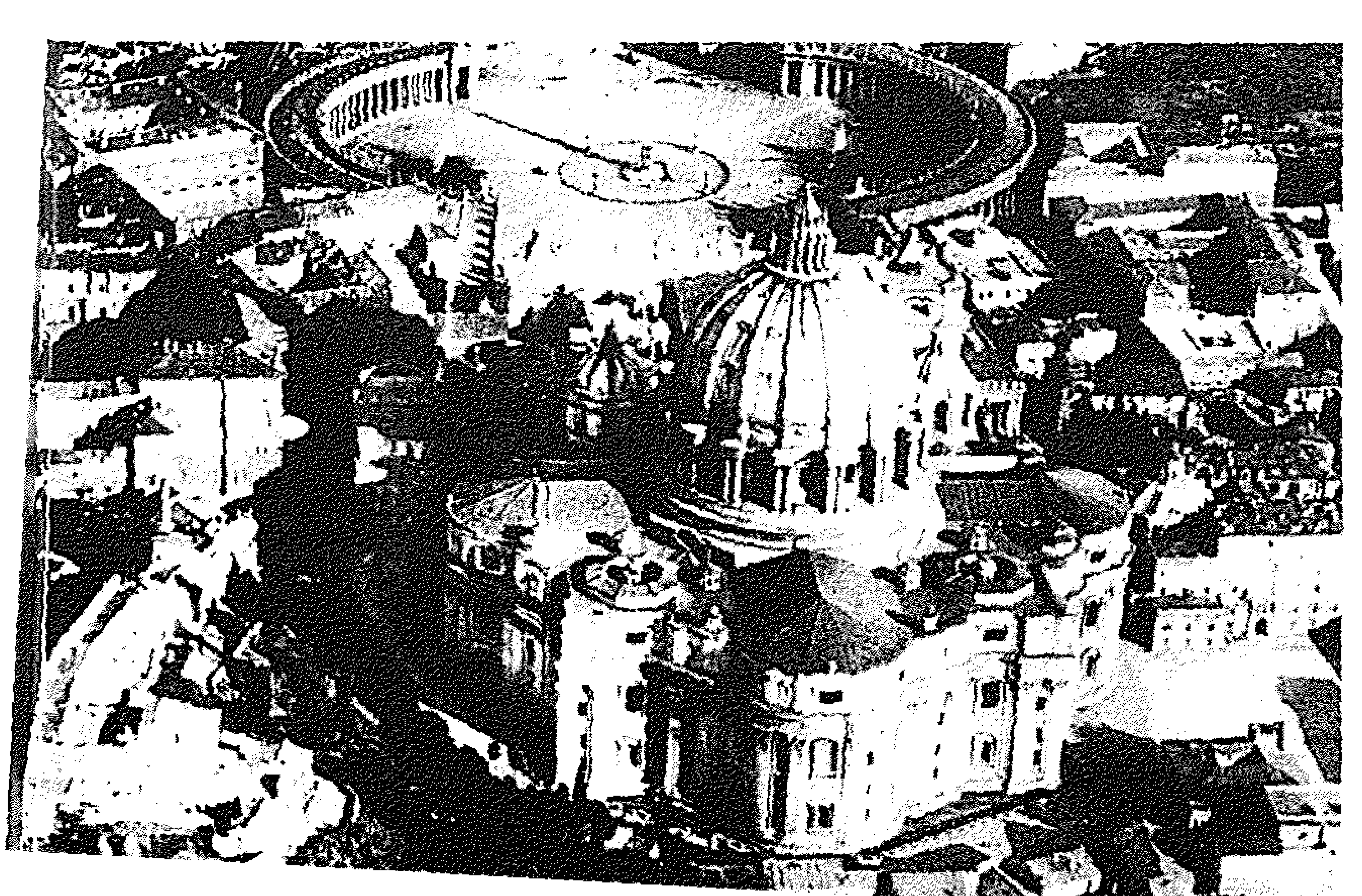
قصر الحكم فى البندقية فى العصور الوسطى والنهضة



حرصت كل من هاتين القوتين على كسب تأييد الجامعات واتخاذ الحركة الجامعية الجديدة سندا لها فى صراعها ضد خصومها، وكان السبق فى هذا المضمار للإمبراطورية التى أسرعت إلى إقامة جامعات جديدة أو إلى الاعتراف ببعض الجامعات القائمة فعلا وكسبها إلى جانبها عن طريق منحها براءات، ومن جامعات النوع الأول جامعة نابلى التى كانت أول جامعة فى إيطاليا - بل فى أوروبا - أسست فى وقت محدد بمقتضى براءة أو مرسوم معين، هو المرسوم الذى أصدره الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٢٤، ومن الواضح أن جامعة نابلى جاءت صنيعة الإمبراطورية، ومن ثم خضعت لها خضوعا تاما، بحيث إنها تعتبر مثلا فريدا فى العصور الوسطى لجامعة خضعت للسلطة العلمانية، حتى فى أبسط أمورها.

وهناك جامعة امتازت بوضعها الغريب وسط بقية الجامعات التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى بله الحديثة، هى جامعة البلاط البابوى التى قامت سنة ١٢٤٤- ١٢٤٥. ومصدر الغرابة فى هذه الجامعة هو أنها كانت متنقلة غير ثابتة فى مكان بعينه، تتبع البابا فى حله وترحاله، وقد أسس هذه الجامعة البابا أنوسنت الرابع بقصد العناية بالدراسات القانونية وحدها، ولكننا نسمع بعد ذلك عن قيام كلية اللاهوت فيها، كما ثبت أنها منحت فى القرن الخامس عشر درجات علمية فى الطب والفلسفة، ومن الواضح أن المبادئ الديمقراطية الخاصة بحقوق الطلبة أو الأساتذة لم يكن لها وجود إطلاقا فى هذه الجامعة، إذ خضعت للبابوية خضوعا تاما مباشرا، ولم تلبث أن قامت جامعة أخرى خاصة بمدينة روما سنة ١٣٠٣ وبذلك غدا بهذه المدينة جامعتان، مادام البابا مقيما فى روما، ولكن حدث عند انتقال البابا إلى أفيثون فى عصر الأسر البابلى أن تبعته جامعة البلاط البابوى إلى مقره الجديد فلم يبق بروما سوى جامعة المدينة.

أما جامعة سينا فقد ورد ذكرها لأول مرة فى الوثائق المعاصرة سنة ١٢٤٠. وقد حدث سنة ١٢٤٦ أن عمل فردريك الثانى على منع الطلبة من الالتحاق بجامعة بولونا نتيجة لميول هذه الجامعة نحو البابوية، فاستغلت



كاتدرائية القديس بطرس مقر البابوية فى روما فى العصور الوسطى



سينا الفرصة وأذاعت استعدادها لمنح الطلبة المغتربين جميع التسهيلات اللازمة، وفى سنة ١٢٥٣ منح البابا أنوسنت الرابع أساتذة جامعة سينا وطلبتها بعض الإعفاءات المالية كما شملهم برعاية الكنيسة وحمايتها ثم كان أن استفادت سينا من هجرة بعض رجال جامعة بولونا إليها سنة ١٣٢١ ثم سنة ١٣٣٨ نتيجة لتجدد النزاع بين جامعة بولونا والمدينة، وعندئذ قفزت سينا خطوات إلى الإمام لتصبح فى عداد الجامعات الإيطالية الكبرى فى القرن الرابع عشر، وفى سنة ١٣٥٧ حصلت سينا على مرسوم من الإمبراطور شارل الرابع اعترف بها ومنحها الامتيازات التى تمتعت بها عندئذ غيرها من الجامعات، ولم تلبث أن حصلت هذه الجامعة بعد قليل على مجموعة أخرى من الامتيازات من البابا جريجورى الثانى عشر.

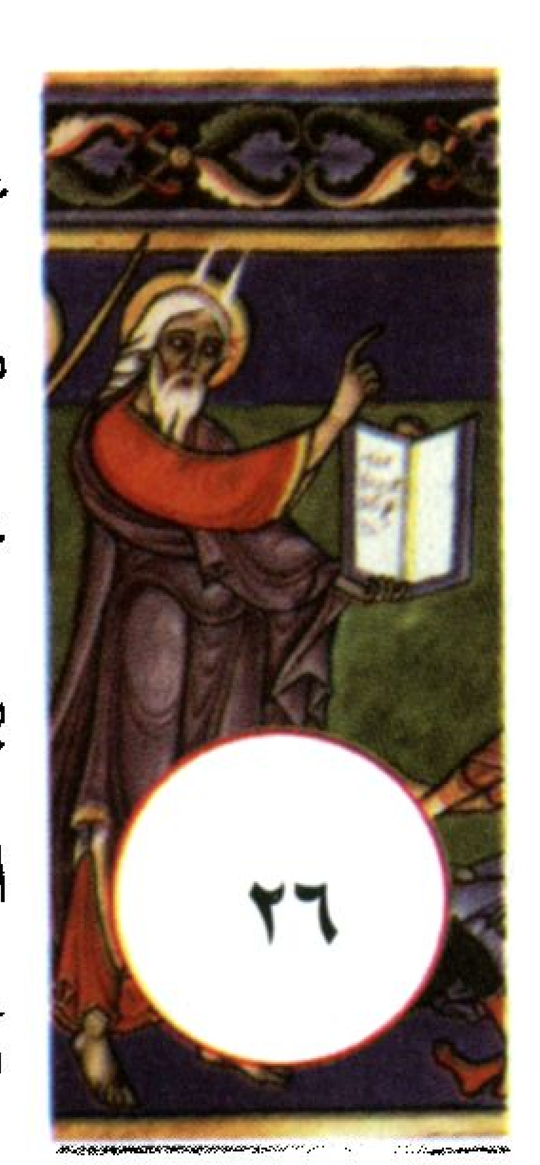
وهناك نوع آخر من الجامعات توجد منه أمثلة كثيرة فى إيطاليا فى العصور الوسطى، وهى الجامعات التى لم يقمها البابوات والأباطرة ولم تنشأ تلقائيا مثل جامعة بولونا، وإنما كانت فى أول أمرها مدارس خاصة فى المدن حتى ساعدتها البلديات فى الحصول على امتيازات الجامعة وصفاتها بمقتضى براءات بابوية أو إمبراطورية، وأوضح مثل لهذا النوع جامعة بياكنزا التى تأسست سنة ١٢٤٨ عندما صدر مرسوم من البابا أنوسنت الرابع يضفى على أساتذتها وطلابها جميع الامتيازات التى تمتع بها رجال جامعة باريس.

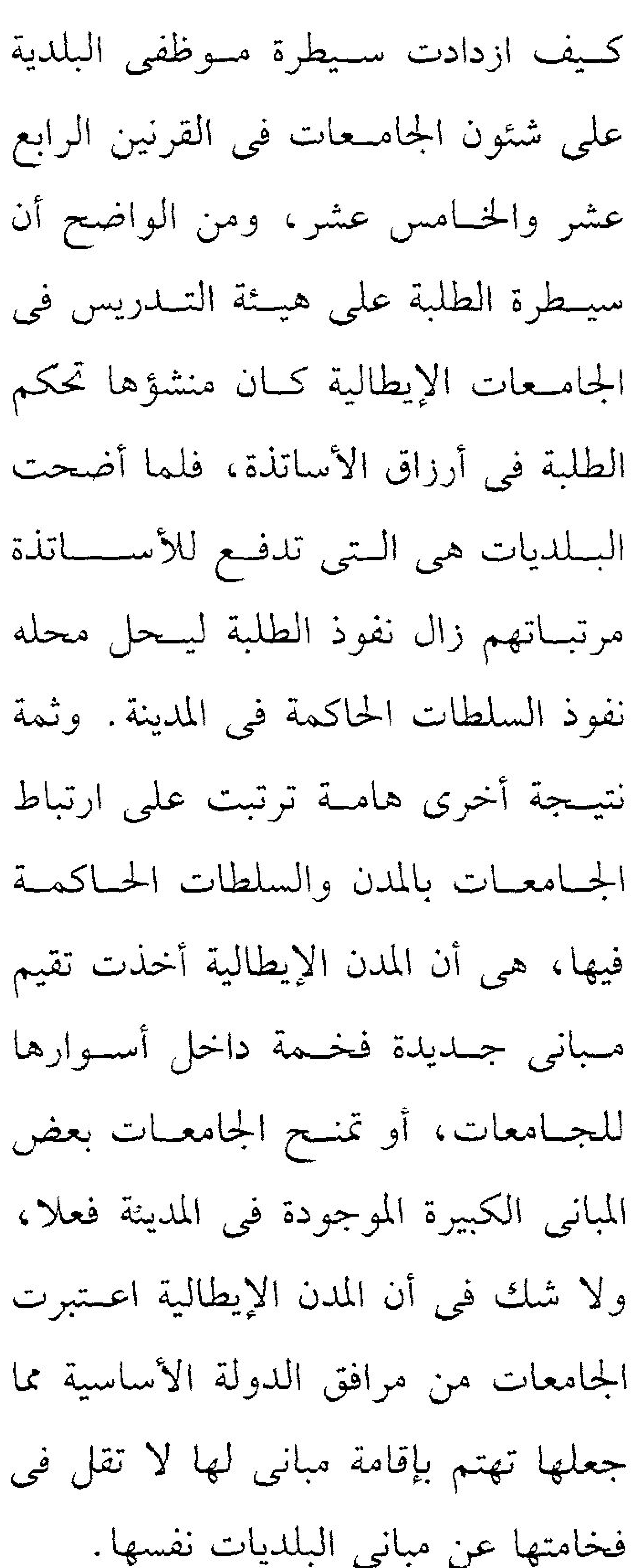
أما بقية الجامعات الإيطالية فى العصور الوسطى فلم تخرج فى صفاتها ونظمها وطريقه نشأتها عن الأمثلة السابقة، ومن هذه الجامعات جامعة بروجيا (سنة ١٣٠٨)، وجامعة ترڤيزو (سنة ١٣٠٨) وجامعة ڤيرونا (سنة ١٣٣٩) وجامعة بيزا (سنة ١٣٤٣) وجامعة فلورنسا (سنة ١٣٤٩) وجامعة بافيا (سنة ١٣٦١) وجامعة فرارا (سنة ١٣٩١) وجامعة تورينو (سنة ١٤٠٥) وجامعة قطانيا ـ بصقلية (سنة ١٤٤٤) ومهما كان الأمر فإننا نستطيع أن نجمل المميزات العامة للجامعات الإيطالية فى العصور الوسطى فيما يلى:

أولا: قامت جميع الجامعات الإيطالية ـ باستثناء أرزو ونابلى والبلاط البابوى ـ على نمط واحد، هو نمط جامعة بولونا.

ثانيا: احتلت الدراسات القانونية المكانة الأولى فى الجامعات الإيطالية فى العصور الوسطى، وبعد ذلك احتل الطب المكانة الثانية، وبعبارة أخرى فإن الجامعات الإيطالية أضحت فى تلك العصور مراكز لدراسة القانون والعلوم الطبيعية.

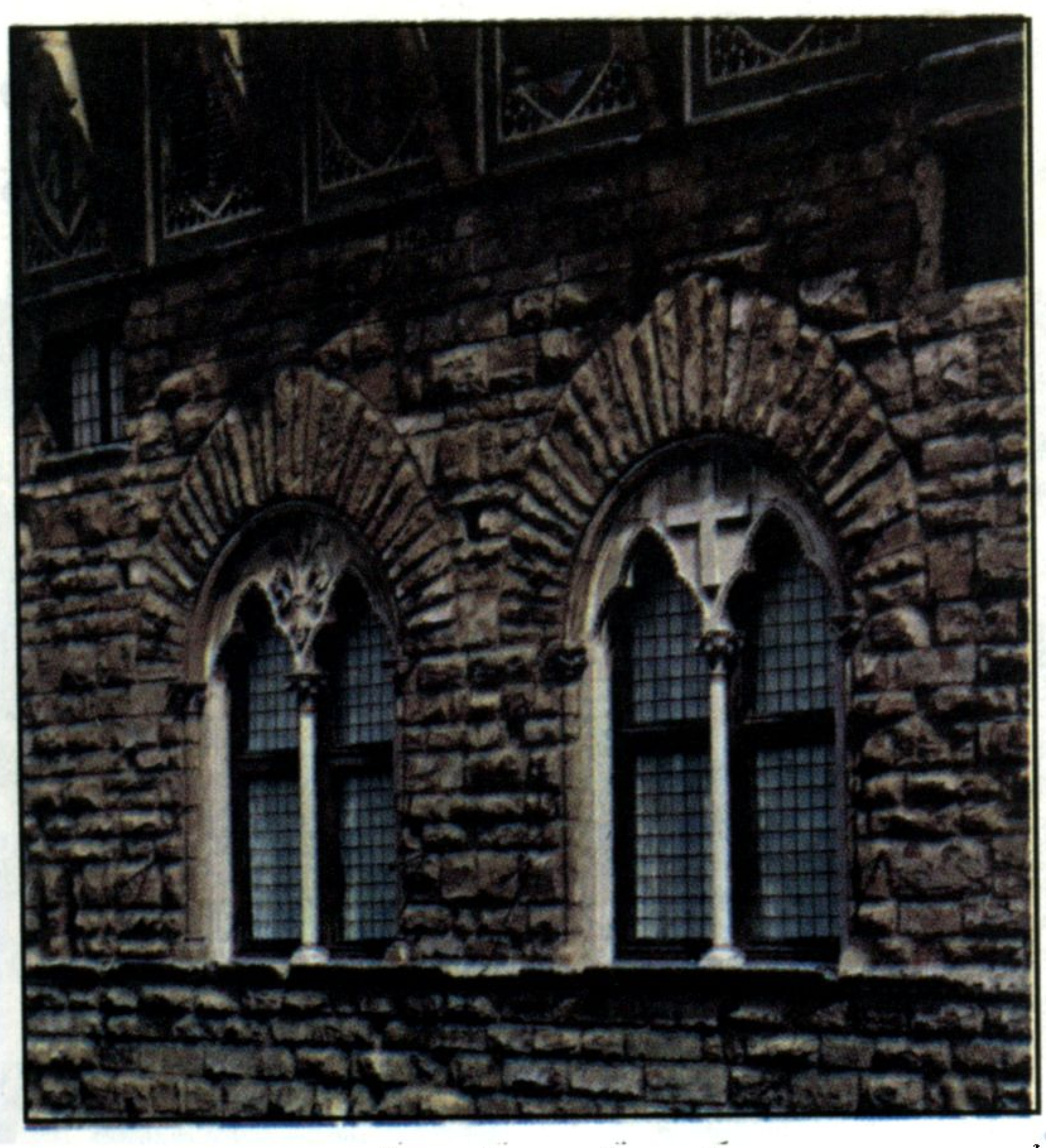
ثالثا: اعتمدت الجامعات الإيطالية على المدن وبلدياتها ودانت للسلطات الحاكمة فيها، بعد أن أصبح أساتذتها منذ نهاية القرن الثالث عشر ـ على الأقل ـ يعتمدون فى معيشتهم





على ما يتلقونه من بلدية المدينة من مرتبات وإعانات. ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى جامعة بولونا التى ظلت فى صراع مع السلطات الحاكمة فى المدينة أمدا طويلا، وتصور لنا اللوائح الخاصة بجامعة بيزا وفلورنسا كيف ازدادت سيطرة موظفى البلدية على شئون الجامعات فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ومن الواضح أن سيطرة الطلبة على هيئة التدريس فى الجامعات الإيطالية كان منشؤها تحكم الطلبة فى أرزاق الأساتذة، فلما أضحت البلديات هى التى تدفع للأساتذة مرتباتهم زال نفوذ الطلبة ليحل محله نفوذ السلطات الحاكمة فى المدينة. وثمة نتيجة أخرى هامة ترتبت على ارتباط الجامعات بالمدن والسلطات الحاكمة فيها، هى أن المدن الإيطالية أخذت تقيم مبانى جديدة فخمة داخل أسوارها للجامعات، أو تمنح الجامعات بعض المبانى الكبيرة الموجودة فى المدينة فعلا، ولا شك فى أن المدن الإيطالية اعتبرت الجامعات من مرافق الدولة الأساسية مما جعلها تهتم بإقامة مبانى لها لا تقل فى فخامتها عن مبانى البلديات نفسها.





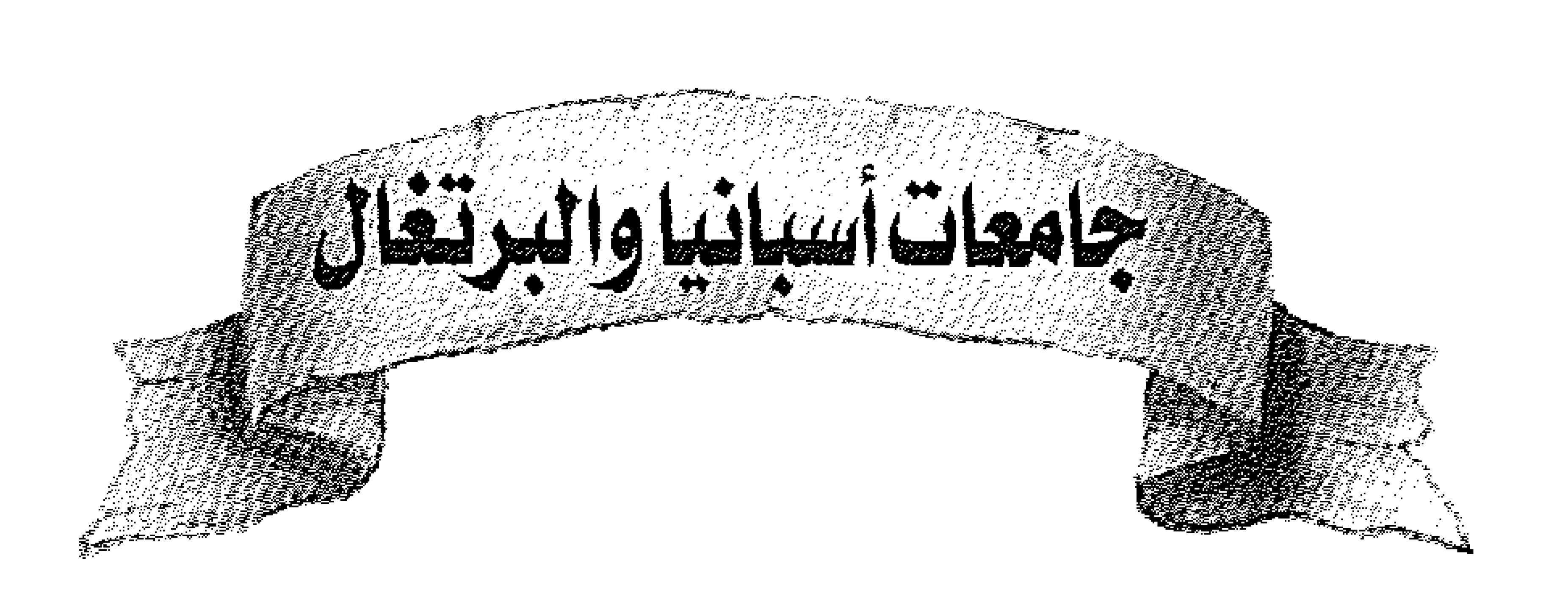
كنيسة مدينة سينا



رابعا: وأخيرا نجد أن جميع الخصائص السابقة ارتبطت بالطابع العام الذى اتصفت به الجامعات الإيطالية، وهو أنها لم تكن كنسية، فالجامعات الإيطالية كلها - باستثناء جامعة البلاط البابوى - لم تربطها رابطة بالكنيسة أكثر من المرسوم البابوى الذى يقر قيام بعضها أو اعتماد أسقف المدينة للإجازات العلمية التى منحتها الجامعة، وإذا كانت البابوية قد تدخلت أحيانا - ولا سيما فى الدور الأول لنشأة الجامعات الإيطالية - فى شئونها الداخلية، فإن هذا التدخل اتخذ طابعا سياسيا لا دينيا، فالبابا كان يتصرف مع الجامعات الإيطالية بوصفه الزعيم المنافس للإمبراطورية حول السيطرة على إيطاليا، لا بوصفه رأس الكنيسة الغربية وأباها الروحى.

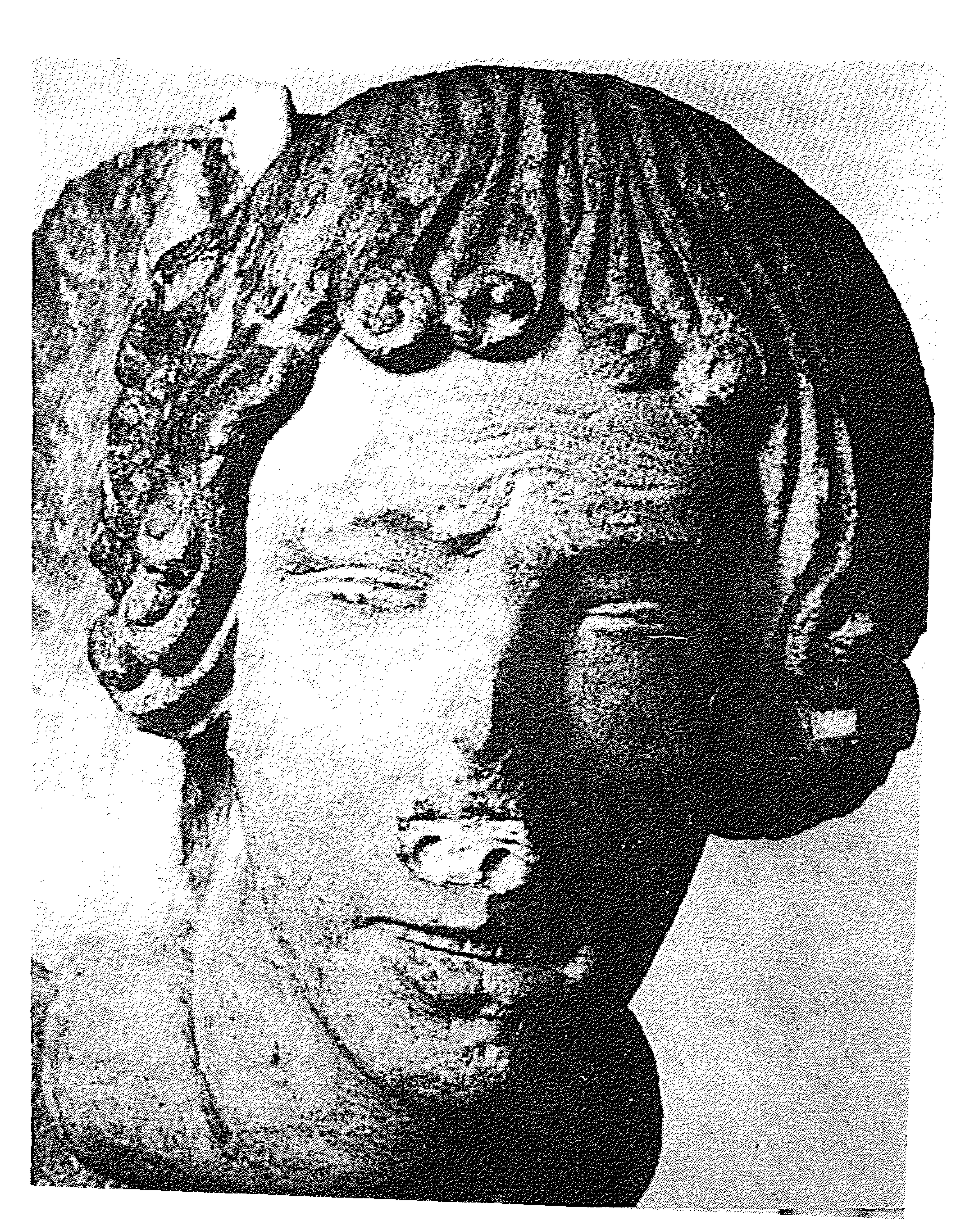
كاتدرائية سانت ماريا - فلورنسا

٢٨



أما جامعات أسبانيا والبرتغال فامتازت فى العصور الوسطى بعدة صفات أساسية تتضح لنا من استعراض أهم هذه الجامعات وتاريخ نشأتها فى تلك العصور، وكانت أولى جامعات قشتالة هى جامعة بلنسية التى أسسها ألفونس التاسع ملك قشتالة سنة ١٢٠٩: والمعروف أنه وجدت مدرسة أسقفية فى بلنسية قامت بنشاط ملحوظ، ويقال: إن القديس دومنيك درس فيها اللاهوت والفنون الحرة سنة ١١٨٤، أما ما فعله ألفونس التاسع فهو أنه دعا الأساتذة من المراكز العلمية الشهيرة - مثل باريس وبولونا - للتدريس فى مدرسة بلنسية مقابل مرتبات مغرية. ومن هذا تبدو أهمية ألفونس التاسع فى تاريخ الجامعات بوصفه أول من قرر مبدأ صرف مرتبات ثابتة للأساتذة، ومهما كان الأمر فإن جامعة بلنسية لم تستطع البقاء طويلا، فانتهى دورها سنة ١٢٥٠ بعد أن انقطعت عنها المعونة التى اعتمدت عليها، والتى كانت تستمدها من الكنيسة، هذا إلى أن جامعة بلنسية تعرضت لمنافسة قوية من جانب جامعتى شلمنقة وبلد الوليد دون أن تستطيع التغلب على هذه المنافسة.

أما جامعة بلد الوليد فيرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث عشر على الأقل، وقد شملها ملوك قشتالة منذ أواخر ذلك القرن بعطفهم فأضفوا عليها بعض الامتيازات، كما منحها فردناند الرابع ملك قشتالة إعانة مالية سنوية كبيرة سنة ١٣٠٤ وفى أواخر



تمثال هنرى الثالث - ملك إنجلترا



القرن الرابع عشر وجد بهذه الجامعة سبعة كراسى لكل منها مرتب ثابت، حتى أضاف إليها هنرى الثالث (١٣٩٠- ١٤٠٦) ثلاثة كراسى أخرى للاهوت والفلسفة والطب.

وفى سنة ١٢٢٧ أسس ألفونس التاسع ملك ليون جامعة شلمنقة، ثم حصلت هذه الجامعة على براءة من فردناند الثالث خولتها بعض الامتيازات سنة ١٣٤٣، على أن جامعة شلمنقة لم تزدهر إلا فى عهد ألفونس العاشر الملقب بالحكيم (١٢٥٢- ١٢٨٤) الذى كان فلكيا وكيماويا وشاعرا ومؤرخا ومشرعا، فوجدت فيه جامعة شلمنقة خير نصير.

ثم كان أن أيد البابا إسكندر الرابع الامتيازات التى حصلت عليها الجامعة، كما أضفى عليها امتيازات جديدة سنة ١٢٥٥، أهمها حق خريجى شلمنقة فى التدريس فى كافة الجامعات الأخرى، عدا بولونا وباريس، وهكذا كان التقارب شديدا بين البابوية وجامعة شلمنقة بحيث إن البابوية لم تجد لها نصيرا بين الجامعات الأوروبية أثناء مقاومتها لفكرة استقلال الكنيسة الفرنسية، ثم أثناء النزاع مع البروتستانت أقوى من جامعة شلمنقة أما من ناحية التنظيم الداخلى فإن جامعة شلمنقة كانت أقرب إلى جامعة بولونا منها إلى جامعة باريس؛ ذلك أنها كانت «جامعة طلبة» تمتع فيها الطلاب بالنفوذ الأعلى وقاموا باختيار مدير الجامعة، هذا وإن كانت هناك عدة فروق ثانوية بين جامعتى بولونا وشلمنقة فى التنظيم العام. ويبدو أن جامعة شلمنقة ضمت بعض الفتيات، إذ يقال: إن الملكة إيزابلا الكاثوليكية (١٤٧٤- ١٥٠٤) استحضرت من هذه الجامعة من علمتها اللاتينية.

أما جامعة أشبيلية فقد قامت بقصد دراسة اللاتينية والعربية، والمعروف أن هذه المحاولة نتيجة لجهود الرهبان الدومنيكان الذين أخذوا يعدون أنفسهم منذ سنة ١٢٥٠ لدراسة العربية حتى يتمكنوا من القيام بجهود تبشيرية هدفها نشر المسيحية بين المسلمين. ويرجح أن أول مدرسة أقامها الدومنيكان لدراسة اللغة العربية كانت فى أشبيلية، وقد عمل ألفونس الحكيم على التوسع فى هذه الدراسات العربية لا بقصد تسهيل التبادل التجارى مع المسلمين أو نشر المسيحية بينهم فحسب، بل لأن ألفونس ـ الذى اهتم اهتماما كبيرا بالدراسات الفلكية ـ أراد أن يتخذ من التوسع فى دراسة اللغة العربية أداة للوقوف على علوم العرب وحضارتهم، لا سيما أن بلاط قشتالة انتقل إلى أشبيلية أكثر من مرة، وهكذا حظيت جامعة أشبيلية سنة ١٩٥٤ ببراءة ملكية خولتها الامتيازات التى تمتعت بها جامعة شلمنقة، كما أصدر البابا إسكندر الرابع مرسوما سنة ١٢٦٠ يعترف فيه بجامعة أشبيلية ويضفى عليها بعض الحقوق.



وإذا كانت الحماسة للتعليم والنزعة القومية نحو الاستقلال قد أديا إلى تأسيس ثلاث جامعات فى مملكة قشتالة فى القرن الثالث عشر، فإن هذا الشعور سرعان ما امتد إلى مملكة أرغونة المنافسة لمملكة قشتالة، والحق إن الجامعات الأسبانية كانت قبل كل شىء مؤسسات وطنية، بحيث لم تكد تنتهى العصور الوسطى إلا وكانت لكل مملكة من الممالك الأسبانية جامعة أو أكثر، وكانت أولى جامعات مملكة أرغونة هى جامعة لارده، التى لا تدين بنشأتها إلى الملكية وحدها أو البابوية دون غيرها، وإنما إلى الطرفين معا فهذه الجامعة أسسها جيمس الثانى ملك أرغونة سنة ١٣٠٠ ولكن الوثيقة التى عبر فيها عن رغبته فى إقامة هذه الجامعة فى بلاده عبارة عن رسالة وجهها إلى البابا طالبا موافقته على المشروع، وهكذا صدرت براءة لجامعة لارده تشهد بأن هذه الجامعة جاءت وليدة الإرادة المشتركة للبابوية والملكية، وكان المرسوم الذى أصدره البابا بونيفيس الثامن يخول لجامعة لارده الامتيازات نفسها التى تمتعت بها جامعة تولوز.

كذلك يشبه هذا المرسوم مرسوم الإمبراطور فردريك الثانى الخاص بإنشاء جامعة نابلى من ناحية أنه حرم تدريس القانون والطب والفلسفة فى أى جزء آخر من أجزاء المملكة خارج نطاق الجامعة الجديدة، وتدل لائحة جامعة لارده على أنها اتبعت فى تنظيماتها نفس الخطوط العريضة التى اتبعتها جامعة بولونا مع فارق واحد هو أن جامعة لارده جعلت الترخيص بالتدريس من اختصاص أمين يحدده الملك، فى حين أن بولونا جعلت هذا الترخيص من حق أسقف المدينة، كذلك تعرضت جامعة بولونا لمعارضة شديدة من جانب السلطة الحاكمة فى المدينة حول حق الجامعة القضائى فى محاكمة أعضائها، فى حين نصت لائحة جامعة لارده على حق مدير الجامعة وأساتذتها فى محاكمة الطلاب المخالفين.

ويبدو أن بلديات المدن كانت أقوى فى مملكة أرغونة منها فى مملكة قشتالة، مما جعل بلدية لارده تقوم بدور هام فى تأسيس جامعتها، لا سيما فى إمدادها بالأموال اللازمة لإنشاء كراسى لأساتذة القانون والفلسفة والطب والنحو، وفى سنة ١٣١١ وافقت بلدية لارده على أن تقوم بدفع مرتبات أساتذة الجامعة بشروط خاصة، الأمر الذى جعل الملك يقسم مصاريف جامعة لارده بين بلدية المدينة وكنيستها، ولم تكن جامعة لارده هى الجامعة الوحيدة فى أرغونة، إذ أسس بطرس الرابع ملك أرغونة جامعة بريجنان سنة ١٣٥٠، وإن كانت هذه الجامعة لم تقم لها قائمة فعلا إلا سنة ١٣٧٩ عندما أصدر أحد بابوات أفينون ـ وهو كلمنت السابع ـ مرسوما بإنشاء جميع الكليات فيها، ما عدا كلية اللاهوت، وقد تأثرت لوائح هذه الجامعة إلى حد بعيد بلوائح جامعة لارده، فضلا عن بعض المؤثرات التى وصلتها من جامعة تولوز.

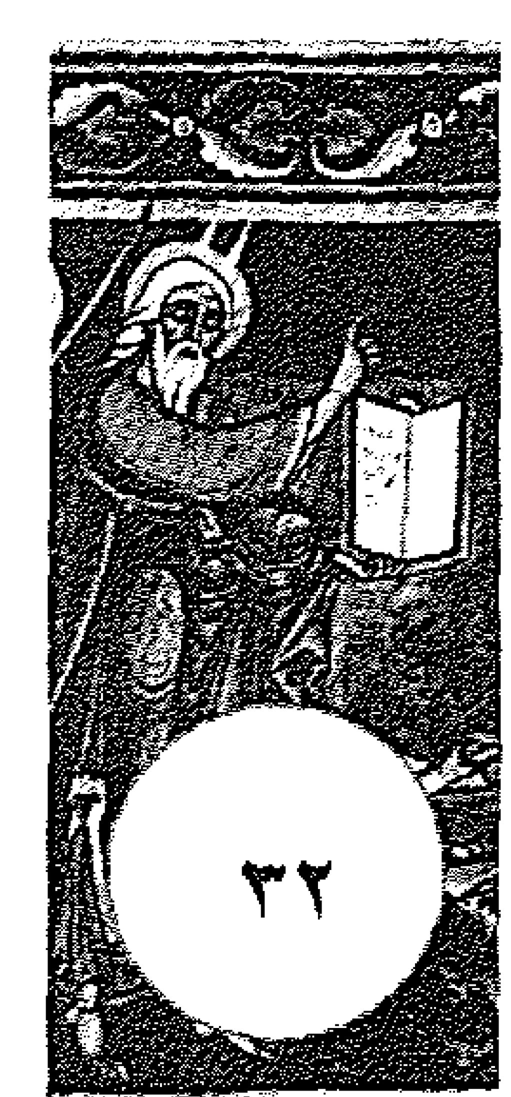


أما جامعة برشلونة فقد أقامتها بلدية المدينة سنة ١٤٣٠ وحصلت على براءة من ألفونس الخامس، ثم على مرسوم بابـوى من البابا نيقولا الخامس، ولكن هذه الجامعـة لم تتمتع بأهمية خاصـة إلا بعد أن تم تجديدها وإصلاحهـا قرب منتصف القرن السادس عشر.

وفى سنة ١٤٧٤ أصـدر البابا سكستوس الرابع مـرسومـا بإنشـاء جامـعة سرقسطة، كـذلك أقام فردناند الكاثوليكى جـامعة فى بالما (بجزيرة مـيورقة) سنة ١٤٨٣، ويرجح أن هذه الجامعـة قامت على أساس الشهرة التى أحـرزتها المدرسة المؤسسـة فى بالما منذ سنة ١٢٧٦ لتعليم اللغة العـربية، وبالتالى نشـر المسيحيـة بين سكان الجزيرة المسلمين، وهناك ثلاث جامعات أخرى قامت فى أسبانيا قرب ختام القرن الخامس عشر هى جامعة سجونزا (سنة ١٤٨٩) وجامعة القالة (سنة ١٤٩٩) وجامعة بلنسية (سنة ١٥٠٠).

وإذا كانت كثرة الجامعات فى أسبانيا جاءت نتيجة لتعدد الوحدات السياسية فيها قبل أن يتم توحيـد المملكة نهـائيا فى عهـد شارل الخـامس (١٥١٦- ١٥٥٨)، فإن خـير شاهد عـلى وحدة البرتغال السيـاسية منذ قيامهـا هو وجود جامعة واحدة وطنية فـيها، هى جامعة لشـبونة (أشبونة) وعلى الرغم من أن جامعة البرتغال امتازت بتاريخـها المتصل المستمر، إلا أنها أنصفت بكثرة التنقل وتغيير مـوضعها، فهذه الجامعـة نشأت فى مدينة لشبونة بمقتـضى المرسوم البابوى الذى صدر سنة ١٢٩٠، والذى اعتـرف بها وخـولها بعض الامـتيـازات الخاصة، ولكن أهالـى مدينة لشبـونة لم يحسنوا مـعاملة الطلبة، مما أدى إلى هجرتهم - وبالـتالى انتقال الجامـعة - إلى مدينة كويمـبرا سنة ١٣٠٨، حيث حظيت الجامعة بمراسيم بابوية وملكية جديدة تضمنت الاعتراف بها، على أن مدينة كويمبرا الصغيرة الهـادئة لم تلائم البيئة الجامعية الصاخبة، فعادت الجـامعة إلى لشبونة مرة أخرى سنة ١٣٣٨ حيث تعرضت لمتاعب جمة من جانب الأهالى، وهكذا أخـذت جامعة البرتغال تتنقل بين لشبونة وكويمـبرا، فانتقلت سنة ١٣٥٥ إلى كويمبرا، وعـادت سنة ١٣٧٧ إلى لشبونة لترحل مرة أخرى إلى كويمبرا سنة ١٥٣٧، حيث ظلت قائمة حتى اليوم.

وقد حـذت هذه الجامعة البـرتغالية حـذو جامعـة بولونا فى تنظيمهـا الداخلى، وإذا كانت الجامعات فى شبه جزيرة أيبريا قد امتازت جميعها بخضوعها لنفوذ الملكية، فإن هذه الظاهرة كانت أوضح ما تكون فى جامعـة البرتغال، ومنذ منتصف القرن الخامس عشر صـار تعيين الأساتذة فى جامعة البرتغال لا يتم إلا بموافقة «راعى الجامـعة» وهو أحد الأمراء أو الملك نفسه، كذلك حرمت هذه الجامـعة من حق تشريع لوائح خاصـة بها، بل حتى من حق إدارة أمـلاكها الخاصـة، وتمتاز جامعة كويمبرا البرتغالية بأنهـا ما زالت حتى اليوم تحتفظ بكثير من مظاهر العصور الوسطى، وربما



كانت الجامعة الوحيدة فى صلب القارة ـ أى باستثناء بعض الجامعات البريطانية ـ التى يسير طلبتها حتى اليوم فى شوارع المدينة مرتدين زيهم الجامعى، هذا إلى أن الرداء الجامعى الذى يرتديه طلبة كويمبرا اليوم أقرب إلى رداء طلبة العصور الوسطى من الثوب الذى يلبسه طلبة أكسفورد.

والخلاصة أننا نستطيع أن نجمل مميزات جامعات أسبانيا والبرتغال فى العصور الوسطى فيما يلى:

أولا: كانت هذه الجامعات شديدة الارتباط بالعرش؛ لأن معظمها دان بنشأته للملوك والحكام، مما جعلها ربيبة البلاط، وقد ظهر النفوذ الملكى جليا واضحا فى إدارة شئون الجامعات الأسبانية والبرتغالية، حتى أن الملك كان هو الذى يعين مديرى هذه الجامعات فى كثير من الحالات.

ثانيا: أما التنظيم الداخلى للجامعات الأسبانية والبرتغالية فكان على نمط جامعة بولونا، وإن تفاوتت هذه الجامعات فى مدى مسايرتها لنظم تلك الجامعة.

ثالثا: على أن هذه الحقيقة السابقة لا تتعارض مع ما امتازت به الجامعات الأسبانية فى العصور الوسطى من شدة ارتباطها بالكنيسة، فكثير من الجامعات الأسبانية نشأت من تطور مدارس كنيسة كانت موجودة من قبل، الأمر الذى جعل الأساقفة ورجال الكنيسة يتمتعون بنفوذ واسع فى هذه الجامعات، وبخاصة جامعة قشتالة.

رابعا: وهناك بعض الجامعات الأسبانية كانت أقل ارتباطا بالكنيسة، وهذا النوع من الجامعات أسهمت المدن بنصيب كبير فى نشأته، كما يبدو ذلك بوضوح فى جامعات أرغونة.

خامسا: وأخيرا يلاحظ على الجامعات الأسبانية أنها تمتعت بإنعامات ومساعدات كنسية ضخمة، حصلت عليها بموافقة البابوية ووساطة الملكية.





جامعات فرنسا

اعتـاد الكتاب أن يقـسموا الجـامعـات الأوروبية فى العصـور الوسطى إلى قسمين: جامـعات أساتذة وجامعات طلبة، وعندئذ يضعون الجامـعات الفرنسية ـ عدا القليل منهـا وعلى رأسها جـامعة باريس ـ ضـمن القسم الأخـير، والواقع أنه لا شك فى أن الجامعات الفرنسية القديمة ـ حتى تلك القـريبة من باريس مثل أورليان ـ لم تتأثر إلا قليلا بجامعة باريس، ومن ثم كان من العسير اعتبارها نماذج لهذه الجامعة.

ويبدو من دراسة الجامعات الفرنسية فى العـصور الوسطى أن هذه الجامعات تمثل نوعا قائما بذاته، نشأ ولم يُنشـأ، أى نشأ نتيجة تطـور مدارس قديمة قائمـة فعلا، ولم ينشأ كـإجراء جديد فرضه مرسوم بابوى أو ملكى.

هذا إلى أن الجامعـات الفرنسية تأثرت إلى حـد كبير ـ أثناء تطورها ـ بنظم جـامعة بولونا، حتى أصبحت «جامعات طلبة» أكثر منها «جامعات أساتذة»، ويبدو أن هذه الحقيقة ارتبطت بظاهرة أخرى هامة هى أن الجامعات الفرنسية اهتمت بدراسة القانون لأن الرغبة فى دراسة القانون لم تكن فى جنوب فرنسـا أقل منها فى إيطاليا؛ ذلك أن الـتقاليد الرومـانية ظلت تسود أجـزاء عديدة من فرنسا ـ وبخاصة الأجزاء الجنوبية ـ مما جعل دراسة القانون الرومانى فيها أمرا لابد منه. فإذا أضفنا إلى ذلك أن استبعاد دراسة القانون الرومانى من جامعة باريس أثار رغبة قوية فى دراسة القانون فى بقية أنحاء فرنسا ـ حتى تلك القريبة من باريس نفسها ـ أدركنا سبب الاهتمام بالقانون الرومانى فى كثيـر من جامعات فرنسا طوال العـصور الوسطى ،وهكذا وجدت بعض الأقاليم الفرنسـية انقسم طلاب العلم فيـها إلى قسمـين متعادلين، ذهب أحـدهما إلى باريس لتلقى الدراسات المدرسـية، والآخر إلى أورليان وانجرز ومونبلييه لدراسة القانون، وإذا كـانت جامعة باريس قد جذبت الغالبية العظمى من طلاب شمال أوروبا ووسطها، فإن جامـعات القانون ـ ليس فقط فى الجنوب بل أيضا فى أورليان وانجرز ـ استـمدت غالبية طلابها من المناطق الواقـعة جنوبى اللوار، وهى الأجزاء التى ظلت الروح الرومانية والتراث الرومانى أقوى فيها من غيرها.

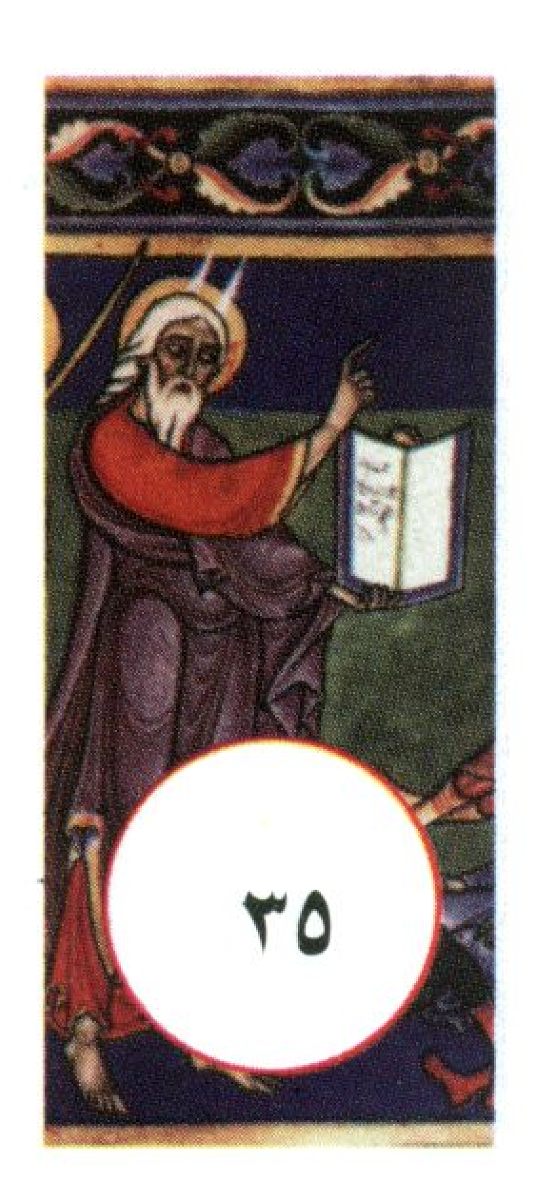
وكانت أولى الجامـعات فى جنوب فرنسا جـامعة مونبلييـه، التى ظلت حتى أوائل النصف الأولى من القرن الرابع عشر أكثر ارتباطا بمملكة أرغونة وإيطاليـا منها بباريس وشمال فرنسا. وقد ظلت مدينة مونبلييـه على إخلاصها للكنيسة الكاثوليكية والبابوية وسط تيـار الهرطقة الذى اجتاح

جنوب فرنسا فى القرن الثانى عشر، مما ظهر أثره فيما بعد فى ارتباط جامعة مونبلييه بالكنيسة وخضوعها لأسقف المدينة بصورة ليس لها نظير فى أية جامعة أخرى من الجامعات الأوروبية، وترجع الشهرة الأساسية لجامعة مونبلييه إلى تفوقها فى ميدان الطب لا القانون، حتى جاء وقت على هذه الجامعة أصبحت تنافس سالرنو فى شهرتها، مع ملاحظة أن جامعة سالرنو سارت فى طريق التدهور والاضمحلال فى الوقت الذى أخذت جامعة مونبلييه فى الصعود والارتقاء، أما كلية القانون فى مونبلييه فيرجع منشؤها إلى أحد رجال مدرسة بولونا ـ واسمه بلاكنتيوس ـ الذى لجأ إلى مونبليه سنة ١١٦٦، ولكن طلاب القانون لم يتكاثروا فى مونبلييه إلا حوالى سنة ١٢٣٠ بسبب المتاعب التى تعرضوا لها فى بولونا عندئذ نتيجة للخلاف مع حكام المدينة، وسرعان ما بسط أسقف مونبلييه سلطانه على تدريس القانون الكنسى والمدنى وكذلك على الإجازات التى تمنح فى هذين الفرعين أسوة بما تتمتع به من سيطرة على تدريس الطب، كذلك وجدت فى مونبلييه كلية للاهوت وأخرى للآداب، وإن كان من الثابت أن الأخيرة احتلت مكانة ثانوية ـ كما هو الحال فى جميع الجامعات التى اشتهرت بتدريس القانون فى العصور الوسطى.

وكانت جامعة مونبلييه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من أعظم جامعات أوروبا، أى أنها كانت على قدم المساواة مع جامعات بولونا وباريس وسالرنو، وظلت هذه الجامعة محتفظة بمكانتها حتى منتصف القرن الرابع عشر، عندما أخذت تضمحل اضمحلالا سريعا، وفى سنة



نموذج لمحاكم التفتيش للهراطقة فى العصور الوسطى



١٣٩٠ تناقص طلبة مونبلييه بشكل أنذر بنهاية الجامعة ويمكن تفسير هذا الاضمحلال فى ضوء ضم مدينة مونبلييه نفسها إلى التاج الفرنسى سنة ١٣٤٩، فضلا عن ظهور عدد كبير من الجامعات القريبة المنافسة، هذا إلى أن نظام الأساتذة المأجورين ـ الذين يتقاضون مرتبات ثابتة معلومة ـ لم يظهر فى جامعة مونبلييه حتى نهاية العصور الوسطى، مما جعل الأساتذة يفضلون الاشتغال فى الجامعات الأخرى ليتمتعوا بقسط أوفر من الضمان والاستقرار، ومهما كان الأمر فإن شهرة مونبلييه فى ميدان الدراسات القانونية انتهت بنهاية القرن الرابع عشر وإن ظلت تتمتع بشهرة واسعة بعد ذلك فى ميدان الطب.

أما أورليان فكانت تتمتع فى القرن الثانى عشر بشهرة ذائعة فى ميادين النحو والبلاغة والأدب الكلاسيكى، وهى الدراسات التى ارتبطت بالتشريع والقانون فى ذلك العصر، ففى أورليان تلقى كثير من أدباء القرن الثانى عشر تعليمهم ـ وبخاصة كتاب الرسائل المحترفين ـ حتى أن جميع موظفى سكرتارية البابا إسكندر الثالث ولوكيوس الثالث تلقوا تعليمهم فى أورليان، ثم بدأت مدرسة أورليان دورا جديدا فى تاريخها فى القرن الثالث عشر، عندما اهتمت بالقانون المدنى والقانون الكنسى، وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يجعلنا ننفى الصلة بين شهرة أورليان فى القانون فى القرن الثالث عشر وشهرتها فى النحو والبلاغة فى القرن الثانى عشر، إلا أنه من الثابت أن نشاط الدراسات القانونية فى أورليان يرجع إلى عوامل خارجية أهمها تحريم دراسة القانون المدنى فى جامعة باريس بمقتضى مرسوم البابا هونريوس الثالث سنة ١٣١٩، هذا إلى أن كثيرا من أساتذة القانون فى باريس اختاروا أورليان مقرا لهم عندما هجروا باريس إبان أزمة سنة ١٢٢٩، وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن أساتذة أورليان كونوا نقابة خاصة بهم أو «جامعة» قرب منتصف القرن الثالث عشر، ولم يلبث أن اشتد النزاع فى أواخر ذلك القرن بين أسقف أورليان وأساتذة الجامعة، مما جعل الأخيرين يستنجدون بالبابوية عدة مرات.

وفى سنة ١٣٠٦ أصدر البابا كلمنت الخامس ـ وكان فى يوم ما طالبا بجامعة أورليان ـ



دراسة اللاهوت والعلوم الكنسية فى لوحة تصور «كالفن»





البابا كلمنت الخامس رسم القرن ١٥ م - روما

عدة مراسيم اعترف فيها بجامعة أورليان على أن تكون على نمط جامعة تولوز، على أن جامعة أورليان سرعان ما تعرضت لعداء أهل المدينة، فاشتد النزاع منذ سنة ١٣٠٩ بين أساتذة الجامعة وطلبتها من ناحية، وأهل أورليان من ناحية أخرى، وفى هذا النزاع اختار فيليب الرابع ملك فرنسا أن يقف سنة ١٣١٢ إلى جانب المدينة فحرم الجامعة من الحقوق التى منحها إياها البابا، كما حرم أساتذة الجامعة وطلابها من حق عقد الاجتماعات ومن انتخاب مدير للجامعة، وأخيرا اضطر رجال جامعة أورليان إلى الهجرة إلى نقرز سنة ١٣١٦، ولم تعد الجامعة إلى أورليان إلا سنة ١٣٢٠ بعد أن توسط البابا فى حل الأزمة، وعندئذ دخلت هذه الجامعة فى دور جديد يمثل أزهى عصورها.

وكانت جامعة انجرز هى الأخرى مقرا لمدرسة كاتدرائية قديمة لم تلبث أن تطورت تدريجيا إلى جامعة، على أن هذا التطور لم يأت تلقائيا وإنما جاء نتيجة لهجرة كبرى من جامعة باريس سنة ١٢٢٩، ويلاحظ أن انجرز كانت من الجامعات الأوروبية القليلة التى لم تحصل على مرسوم بقيامها، ولم يكن ذلك إلا سنة ١٣٦٤ عندما حصلت على براءة من شارل الخامس خولتها الامتيازات نفسها التى تمتعت بها جامعة أورليان.

أما جامعة تولوز فتحتل أهمية خاصة فى تاريخ الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى؛ لأنها أول جامعة على الإطلاق أسست بمقتضى مرسوم بابوى ولتحقيق أهداف خاصة بالبابوية، أما السبب الذى دفع البابوية إلى التفكير فى إنشاء جامعة تولوز فكان لجعل هذه الجامعة مركزا لدراسة اللاهوت، حتى يمكن مقاومة المذاهب الهرطقية التى انتشرت فى جنوب فرنسا منذ القرن الثانى عشر، وهكذا تم تأسيس جامعة تولوز سنة ١٢٢٩، وإن كان هذا التأسيس لم يتخذ شكلا قانونيا إلا سنة ١٢٣٣ عندما صدر مرسوم بابوى يخول لجامعة تولوز الامتيازات والحقوق التى تمتعت بها جامعة باريس، كذلك امتازت جامعة تولوز بأنها من الجامعات القلائل التى ضمت منذ نشأتها

جميع الكليات، على أن دراسة القانون ظلت تحتل مكانة خاصة فى هذه الجامعة، شأنها شأن غيرها من الجامعات الفرنسية باستثناء جامعة باريس ومونبلييه.

كذلك وجدت فى أفينون مدرسة للقانون وذلك قبل قيام جامعة أفينون رسميا بمقتضى مرسوم البابا بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٣، ومن الواضح أن هذه الجامعة تمتعت بكثير من الامتيازات فى فترة الأسر البابلى (١٣٠٥- ١٣٧٧) عندما اختارت البابوية مدينة أفينون نفسها مقرا لها، وظهر أثر ذلك بوضوح عندما عادت البابوية إلى روما إذ أخذت جامعة أفينون تضمحل اضمحلالا سريعا، وعلى الرغم من أن جامعة أفينون استقت نظمها من جامعة باريس، إلا أنها اختلفت عنها فى اعتراف لائحتها بقيام اتحاد شرعى للطلبة، وإن كان هذا الاتحاد لم ينجح فى الحصول على قسط فى إدارة شئون الجامعة.

وهناك عدد آخر من الجامعات ظهر فى فرنسا فى العصور الوسطى، أهمها جامعة كاهور (سنة ١٣٣٢)، وجامعة جرينوبل (سنة ١٣٣٩)، وجامعة أورانج (سنة ١٣٦٥) وجامعة اكس (سنة ١٤٠٩) وجامعة دول (سنة ١٤٢٢) وجامعة بوردو (سنة ١٤٤١) وجامعة فالنس (سنة ١٤٥٢) وجامعات نانت (سنة ١٦٤٠) وجامعة بورج (سنة ١٤٦٤) وجامعة بزانسون (سنة ١٤٨٥).

ويمكن أن نجمل مميزات الجامعات الفرنسية - باستثناء جامعة باريس - فيما يأتى:

أولا: ترجع أصول أقدم الجامعات الفرنسية - مثل جامعتى أورليان وانجرز - إلى مدارس كاتدرائية، ثم حصلت على مراسيم بابوية باعتمادها جامعات، أما الجامعات الفرنسية التى نشأت بعد ذلك، فقد قامت بمقتضى مراسيم بابوية، وكان تنظيم الجامعات الفرنسية القديمة قائما بذاته - لا سيما فيما يتعلق بالأروقة - فلم يتأثر بالنظم السائدة فى بولونا أو باريس.

ثانيا: ظل أساتذة الجامعات الفرنسية يهيمنون على إدارة الشئون الداخلية لجامعاتهم، وإن اعترفوا فى بعض الأحيان باتحادات الطلبة، وقد شهدت الجامعات القديمة - مثل أورليان وانجرز ومونبلييه - تنظيما للطلبة على هيئة أروقة، وعن طريق هذه الأروقة تمكن الطلبة منذ القرن الرابع عشر من المساهمة تدريجيا فى إدارة شئون الجامعة، ولا سيما فيما يتعلق بانتخاب المدير، ونتج عن هذا كله نشوء نظام أصبح فيه الأساتذة والطلاب جميعا يشتركون فى توجيه شئون الجامعة، وهكذا صارت الجامعات الفرنسية تمثل نظاما وسطا بين نظام جامعة باريس الذى يعطى الكلمة العليا فى إدارة

شئون الجامعة للأساتذة، ونظام جامعة بولونا الذى اعترف بسيطرة الطلبة على زمام الأمور فيها.

ثالثا: كان لأسقف المدينة فى جميع الجامعات الفرنسية نفوذ يفوق فى أهميته وقوته ما تمتع به أسقف بولونا أو باريس فى توجيه أمور هاتين الجامعتين، ففى كثير من الحالات كانت لوائح الجامعات الفرنسية تصدر تحت إشراف أسقف المدينة. حقيقة إن نفوذ الأساقفة فى الحياة الجامعية أخذ يتناقص تدريجيا أمام ازدياد نفوذ الأساتذة، الذين تمتعوا فى كثير من الحالات بحماية الملك أو البابا، ولكن الأساقفة ظنوا حتى النهاية يتمتعون بنفوذ هام فى الجامعات الفرنسية.

رابعا: ومع أن بلديات المدن أظهرت اهتماما خاصا ـ لا سيما فى جنوب فرنسا ـ بتأسيس الجامعات ورعايتها، إلا أن سلطة البلديات فى تصريف شئون الجامعات الفرنسية ظلت تقل عنها فى المدن الإيطالية.

قصر البابوية فى مدينة أفينون





خامسا: تمتع الأساتذة فى معظم الجامعات الفرنسية بقسط كبير من الاستقرار والطمأنينة فى ظل نظام كفل لهم الحصول على مرتبات ثابتة.

سادسا: كانت الدراسات القانونية لها الأسبقية فى كافة الجامعات الفرنسية - ما عدا جامعة مونبلييه التى بنت شهرتها الأولى فى ميدان الطب - وقد ترتب على تفوق الدراسات القانونية تضاءل أهمية الآداب وكلياتها.

سابعا: قامت الكليات (Colleges) التى أسست من أجل مساعدة الطلبة الفقراء بدور هام فى حياة الجامعات الفرنسية، يفوق الدور الذى قامت به فى الجامعات الإيطالية، ولم تسهم هذه الكليات بدور فعال فى الميدان الدراسى العلمى، إلا فى الكليات التى أسسها الرهبان فى جامعة كاين، حيث تخصصت إحدى هذه الكليات فى دراسة الآداب.

براج من بعيد تبدو كاتدرائيتها القديمة

جامعات ألمانيا وبوهيميا والأراضى المنخفضة



لم تشهد ألمانيا قيام جامعة واحدة فى أراضيها قبل منتصف القرن الرابع عشر. حقيقة إن ألمانيا تأثرت - ولو بدرجة خفيفة - بالنهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر، ولكن أكبر مركزين للحركة الجامعية التى تمخضت عنها تلك النهضة كانا باريس وشمال إيطاليا، فى حين ظلت ألمانيا بعيدة عن التيارات الرئيسية لهذه الحركة، هذا إلى أن ألمانيا بقيت أمدا طويلا تمزقها المنازعات والانقسامات الإقطاعية مما أدى إلى عدم توافر البيئة الصالحة لقيام الجامعات، وليس معنى ذلك أن ألمانيا لم تتأثر مطلقا بالحركة الجامعية التى ظهرت فى الغرب الأوروبى منذ القرن الثانى عشر، ولكن تأثر ألمانيا بهذه الحركة جاء عن طريق آخر هو أن الجامعات الفرنسية والإيطالية جذبت إليها أعدادا كبيرة من طلاب العلم الألمان، مما يتفق مع الطابع العالمى الذى امتازت به الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى.

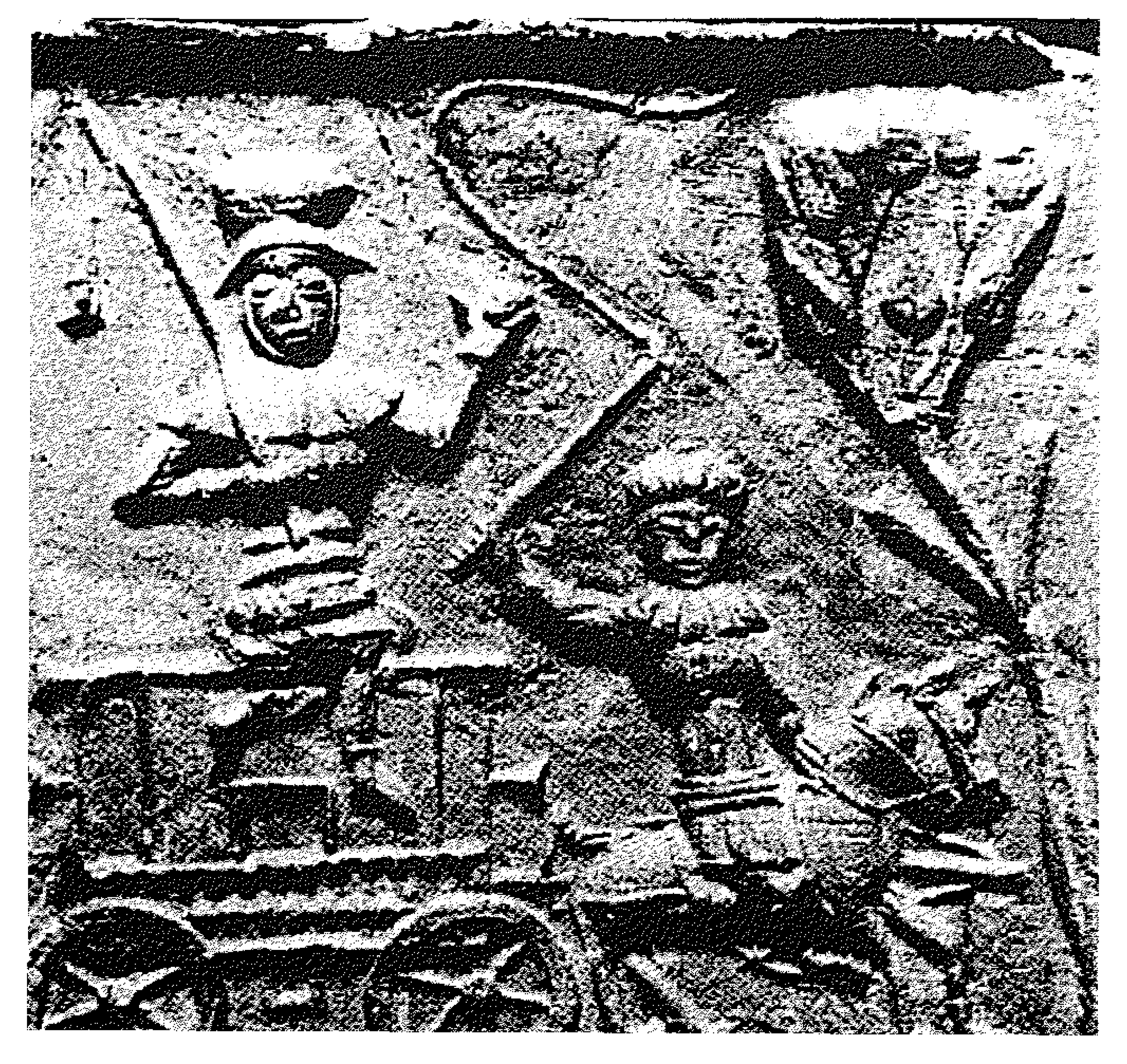
وكانت أولى الجامعات التى ظهرت فى هذه المنطقة من وسط أوروبا هى جامعة براغ (١٣٤٧- ١٣٤٨)، التى يرجع الفضل فى تأسيسها إلى شارل الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك بوهيميا، وقد عمل شارل الرابع جاهدا فى سبيل الدعوة مركزه الإمبراطورى، فجعل عاصمته مركزا لمختلف ضروب النشاط الفكرى وغير الفكرى، فضلا عن أن هذا الإمبراطور نفسه كان محبا للعلم، ويقال: إنه أقام مدة طويلة فى باريس مما جعله يتأثر بنظم جامعة باريس، فجاءت جامعة براغ - ثم بقية الجامعات الألمانية من بعدها - على نمط جامعة باريس، وكانت مدينة براغ مركزا لمدرسة كاتدرائية نشيطة فى القرن الثالث عشر قامت بتدريس النحو والمنطق، فضلا عن فلسفة أرسطو الطبيعية، فظلت هذه المدرسة حتى القرن الرابع عشر نواة للتعليم العالى فى هذه البقعة من أوروبا، وجذبت إليها الطلبة من النمسا وستيريا وبافاريا، فضلا عن جميع أنحاء بوهيميا، وفى سنة ١٣٤٦ قدم شارل الرابع ملتمسا إلى البابا كلمنت السادس لإصدار مرسوم بتأسيس جامعة براغ، فصدر المرسوم البابوى فى العام التالى وأعقبه صدور براءة من الإمبراطور للجامعة.

ولا شك فى أن تأسيس جامعة براغ جاء خطوة هامة فى تاريخ ألمانيا الاجتماعى والثقافى، فحتى ذلك الوقت كان الطلبة الألمان ينزحون إلى جامعات فرنسا وإيطاليا لتلقى العلم، ولم يكن يقدر على مصاريف السفر إلى تلك البلاد البعيدة سوى أبناء المقتدرين من الأثرياء ولكن إنشاء

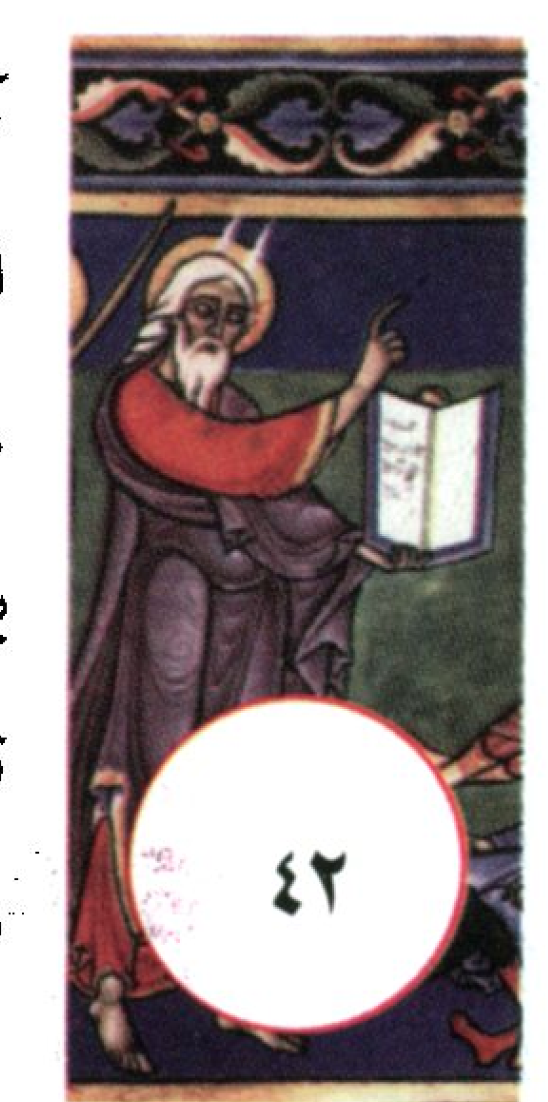
جامعة براغ فتح باب التعليم الجامعى أمام متوسطى الحال من أبناء التجار والصناع مما أثر فى مستقبل الأمة الألمانية، ولسنا فى حاجة إلى أن فردا مثل «مارتن لوثر» كان يتعذر عليه أن يسافر إلى فرنسا أو إيطاليا للالتحاق بإحدى جامعاتها، وبدون القدر الذى ناله لوثر وأمثاله من التعليم الجامعى لما قامت حركة الإصلاح الدينى وقدر لها النجاح.

ولجامعة براغ أهمية أخرى وهى أن تأسيس هذه الجامعة جاء فى وقت أخذت بوهيميا تخطو فى طريق الحضارة سريعا، فالقرن الرابع عشر يمثل العصر الذهبى بالنسبة للآدب فى بوهيميا، هذا إلى أن جامعة براغ خلال السبعين السنة الأولى من عمرها قامت بدور هام فى التاريخ الأوروبى، لا سيما فيما يتعلق بالحركات الدينية والقومية. والواقع أن نضوج كل أمة من الأمم الأوروبية جاء مصحوبا بحركة فكرية عميقة تمخض عنها صدام مع الكنيسة الغربية، فنشأة الأمة الفرنسية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر جاءت مصحوبة بالحركة الألبيجنسية، ونشأة الأمة الإنجليزية جاءت فى القرن الرابع عشر مصحوبة بحركة حنا وكلف، وإن كانت اللولاردية وما ارتبط بها من آراء تحررية فى الجامعات الإنجليزية قد تعرضت لكثير من الكبت، أما بوهيميا فقد شهدت فى القرن الرابع عشر اشتداد تيار الحركة القومية، ولم تلبث جامعة براغ أن أصبحت مركزا لحركة حناهس وأتباعه، وهى الحركة التى اتخذت طابعا معاديا للكنيسة الغربية مشايعا للقومية المحلية.

وكانت جميع الكليات ممثلة فى جامعة براغ من أول الأمر، ما عدا كلية القانون المدنى، وانقسمت كل كلية من كليات الجامعة إلى أربعة أروقة خاصة بأبناء بوهيميا وبولندا وبافاريا وسكسونيا، ومن هذا يتضح أنه إذا كانت الجامعات الأوروبية الأولى ـ مثل بولونا وباريس ـ امتازت بطابعها العالمى، بحيث أصبحت ملتقى الطلبة من جميع البلدان الغربية، فإن الوضع جاء عكسيا فى جامعة براغ؛ ذلك أن الغلبة فى هذه الجامعة الأخيرة



. نحت بارز يصور «حناهس» يركب عربته



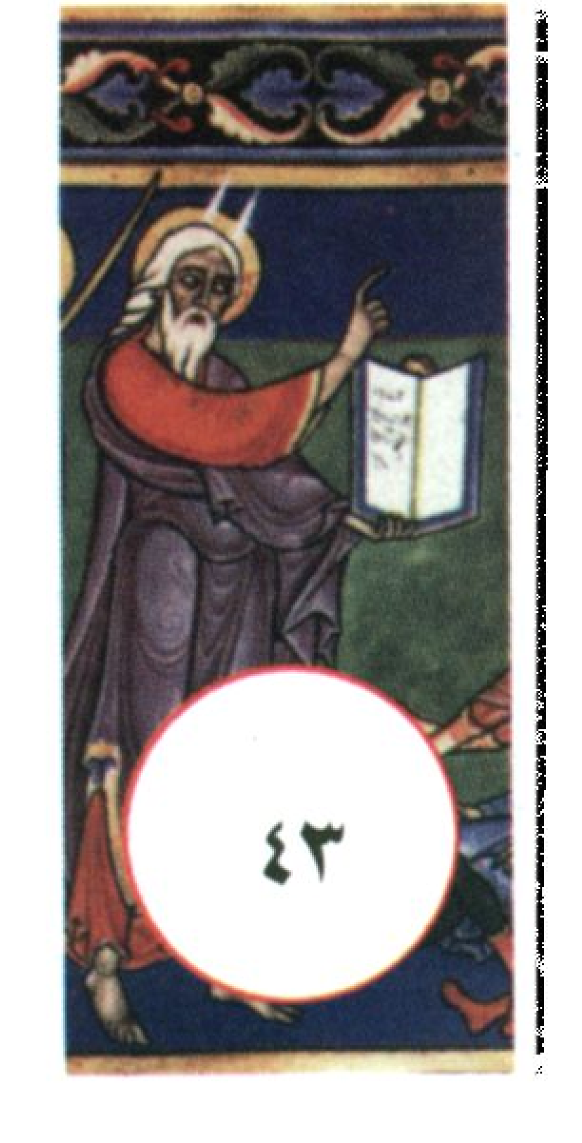
كانت للعنصر الألمانى الذى صار ممثلا فى أروقة البافاريين والسكسون ومعظم البولنديين، فى حين ظل العنصر السلافى ممثلا فى التشيكيين مغلوبا على أمره داخل الجامعة؛ لذلك اتخذ التشيكيون من جامعة براغ مركزا لدعوتهم والمطالبة بحقوقهم، كما سيتضح ذلك فيما بعد، ومهما كان الأمر فإن جامعة براغ أخذت تنمو نموا سريعا حتى بلغ عدد طلبتها فى أوائل القرن الخامس عشر أربعة آلاف طالب.

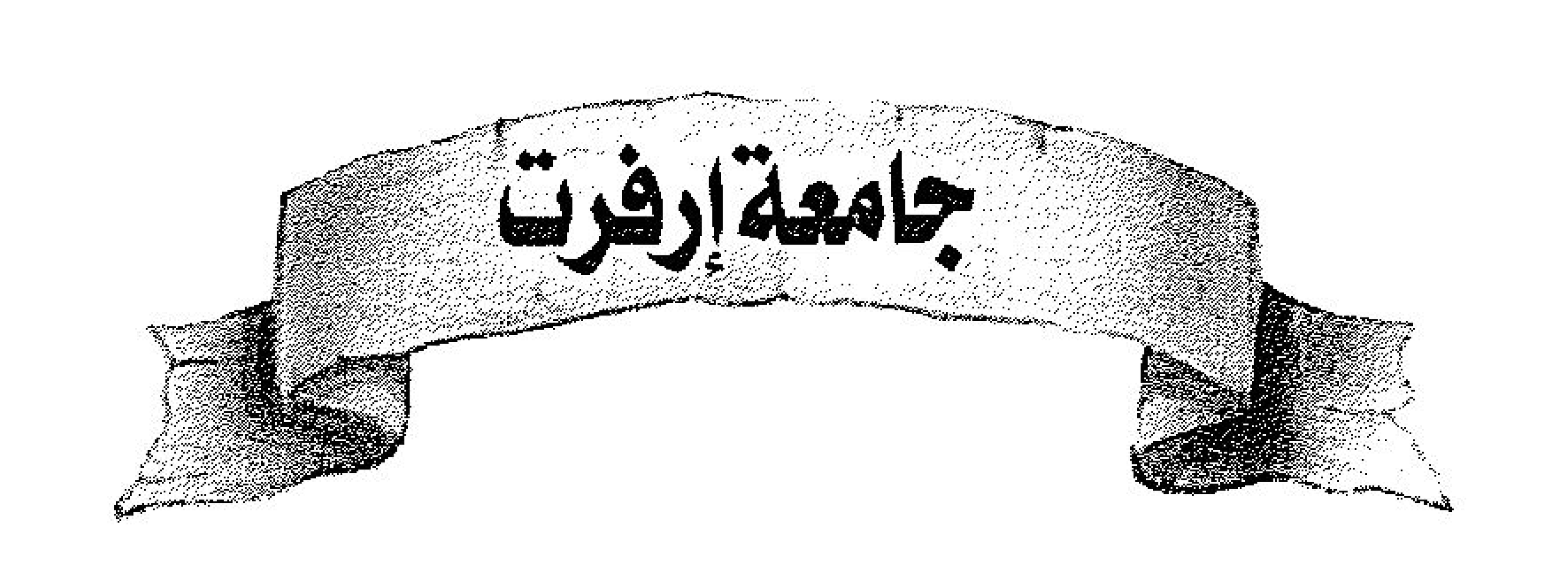
وإذا كانت أولى الجامعات الألمانية - وهى جامعة براغ - قد أقيمت لتحقيق أهداف سياسية، فإن هذه الأهداف نفسها هى التى أدت إلى مولد ثانى الجامعات الألمانية فى ڤينا، ذلك أن هذه الجامعة الأخيرة تدين بنشأتها إلى بيت هابسبورج، وهو البيت الذى غدا منافسا خطيرا لملوك بوهيميا، ويرجع الفضل فى تأسيس جامعة ڤينا إلى الدوق رودلف الرابع الذى أصدر براءة بذلك التأسيس فى مارس سنة ١٣٦٥، ثم لم يلبث أن صدر المرسوم البابوى بالموافقة على قيام الجامعة فى العام نفسه، وامتازت البراءة السابقة بطابعها الخاص الذى ميزها عن أية براءة جامعية سابقة، وإن كانت قد نصت على قيام جامعة ڤينا «وفق ما حدث فى آثينا ثم فى روما ثم فى باريس» وليس هناك من شك فى أن الإشارة إلى جامعة باريس فى هذه البراءة تدل على مدى تأثر لائحتها بلائحة جامعة باريس وروحها، أما عن التنظيم الداخلى لجامعة ڤينا، فقد وجدت فيها أربعة أروقة تحمل أسماء النمسا وسكسونيا وبوهيميا وهنغاريا (المجر)، ولهذه الأروقة ترك أمر اختيار مدير الجامعة مثلما كان الحال فى باريس.

على أن جامعة ڤينا سرعان ما تعرضت لشدائد عدة أوشكت أن تعصف بها فى المهد، أهمها وفاة مؤسسها وكثرة المنازعات بين الدوقات المتنافسين فى النمسا، وهكذا وصلت الجامعة إلى درجة بالغة من الضعف فى العقد السابع من القرن الرابع عشر، حتى تم إحياؤها من جديد على يد ألبرت الثالث دوق النمسا سنة ١٣٨٣ الذى وضع لها لائحة جديدة وأمدها بكثير من عناصر القوة التى ضمنت لها البقاء.



«مارتن لوثر»



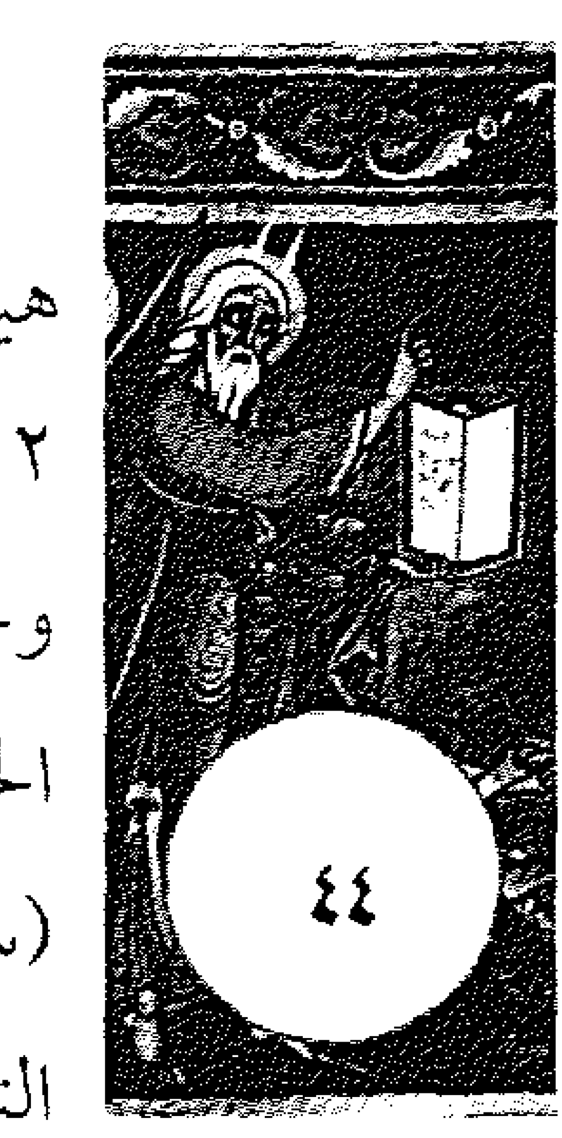


ولم يلبث قيام جامعتى براغ وڤينا أن أثار روح الغيرة فى نفوس أهالى مدينة إرفرت وطلبتها بحكم ما امتازت به مدينتهم من مدارس قديمة عريقة بلغت درجة كبيرة من الشهرة فى أواخر القرن الثانى عشر؛ لذلك سعى أهالى إرفرت لإنشاء جامعة فى مدينتهم، حتى صدر مرسوم من البابا كلمنت السابع بذلك سنة ١٣٧٩، وكانت جامعة إرفرت أولى الجامعات التى قامت على نمط جامعة باريس دون أن تحتفظ بنظام الأروقة الأربعة. ولم تلبث هذه الجامعة أن نمت فى سرعة فائقة حتى بلغت أوجها قرب منتصف القرن الخامس عشر، عندما قام بالتدريس فيها أحد الرواد الأول لحركة الإصلاح الدينى، وهو «حنا وزل»؛ لذلك لم يكن غريبا أن تكون جامعة إرفرت هى الجامعة التى ارتبط بها اسم مارتن لوثر فيما بعد.

وهكذا لم تكد تبدأ الحركة الجامعية فى ألمانيا حتى أخذت تخطو خطوات سريعة؛ لأن قيام إحدى الجامعات فى ولاية أو دولة من الدول الألمانية كان كفيلا بإثارة شعور الغيرة والرغبة فى المحاكاة عند بقية الوحدات المجاورة، بالضبط مثلما كان الحال فى المدن الإيطالية والدول الأسبانية فى العصور الوسطى، أو فى الولايات المتحدة الأمريكية فى العصور الحديثة؛ لذلك تكاثرت الجامعات فى ألمانيا فى أواخر العصور الوسطى، حتى أصبح لكل إمارة جامعتها، وساعد على ذلك الانشقاق الدينى الأكبر؛ لأن بابوات روما أكثروا من منح براءات بإنشاء جامعات جديدة ليحدوا من نفوذ جامعة باريس التى ساندت بابوية أفينون.



كاتدرائية كولونا



ومن أهم الجامعات الألمانية فى هذا الشطر من العصور الوسطى جامعة هيدلبرج (سنة ١٣٨٥)، وجامعة كولونيا (سنة ١٣٨٨) وجامعة فورزبرج (سنة ١٤٠٢) وجامعة لينبرج (سنة ١٤٠٩) التى جاءت وليدة هجرة من جامعة براغ، وجامعة رستوك (١٤١٩)، وهى أعظم مدن العصبة الهانزية ازدهارا فى القرن الخامس عشر مما جعلها تستوعب كثيرا من طلاب بلاد البلطيق، وجامعة لوفان (سنة ١٤٢٥)، وجامعة تريير (سنة ١٤٥٤) وجامعة جريفزفولد (سنة ١٤٥٦)، التى قامت نتيجة لهجرة من جامعة رستوك إليها سنة ١٤٢٨، بعد أن وقع قرار الحرمان على هذه المدينة الأخيرة وجامعة فريبورج (سنة ١٤٥٥) وجامعة بازل (سنة ١٤٥٩) وجامعة انجولشتاد (سنة ١٤٥٩، ١٤٧٤) وجامعة مينز (سنة ١٤٧٦) وجامعة توبنجن (سنة ١٤٧٦).

وخلاصة القول فى الجامعات الألمانية أنها قامت جميعها على نمط جامعة باريس فانتقلت إليها كثير من النظم والتقاليد المعمول بها فى باريس، على أن هناك بعض نواح اختلفت فيها الجامعات الألمانية عن جامعة باريس، ولم تلبث نواحى الخلاف هذه أن تبلورت لتكسب الجامعات الألمانية فى العصور الوسطى طابعا خاصا قائما بذاته، ويمكن أن نجمل أوجه الخلاف بين الجامعات الألمانية وجامعة باريس فى القرن الخامس عشر فيما يأتى:

أولا: احتفظ الطلبة فى الجامعات الألمانية بنصيب فى إدارة شئون الجامعة ولم يتركوا زمام الأمور كلية للأساتذة كما كان الحال فى باريس، ففى جامعة ڤينا كان للطلبة صوت يعادل صوت الأساتذة فى اختيار مدير الجامعة، حقيقة أن نفوذ الطلبة فى الجامعات الألمانية أخذ يتضاءل منذ أواخر القرن الرابع عشر، ولكن مدير الجامعة ظل يختار فى معظم هذه الجامعات من بين الطلبة أنفسهم وإن لم يتم هذا الاختيار بواسطة الطلبة وحدهم، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الجامعات الألمانية ضمت عددا كبيرا من الأمراء وأبنائهم، فكان مما يشرف الجامعة أن يكون على رأسها أمير أو كونت، حتى وإن كان طالبا دون السن المفروضة.

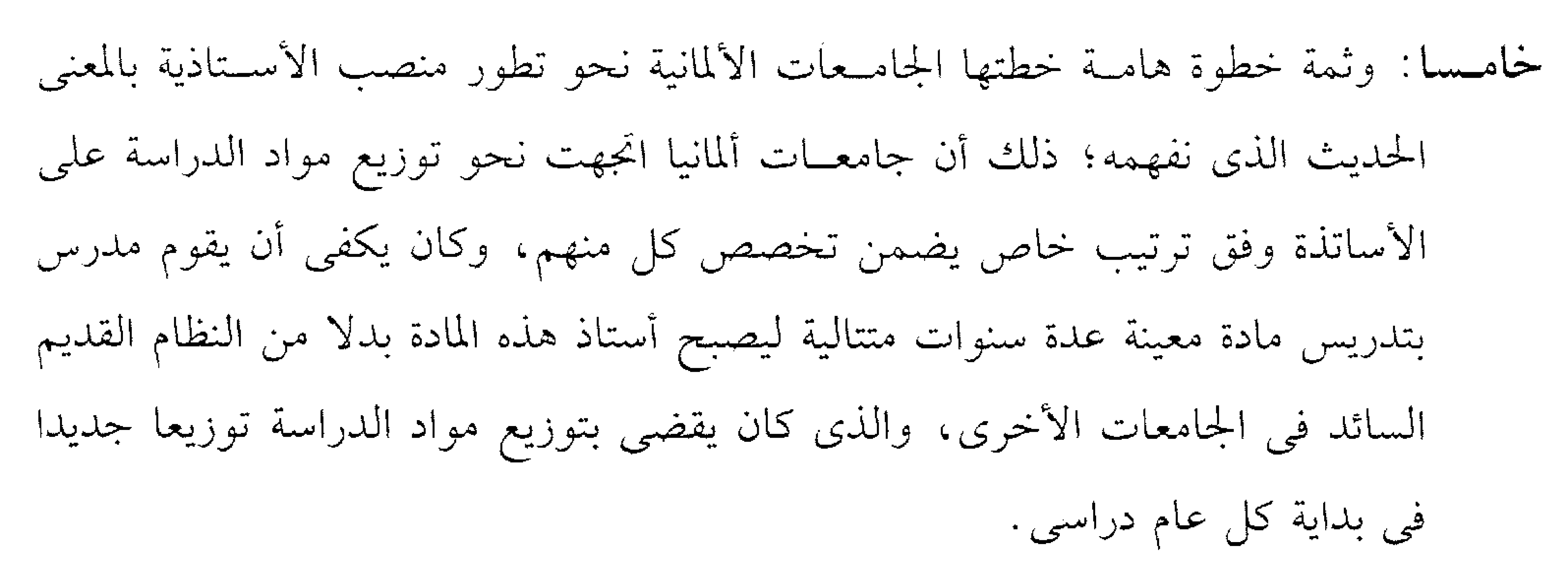
ثانيا: إذا كان منصب مدير جامعة باريس قد ارتبط دائما بكلية الآداب، فإن هذه الصلة لم تراع فى اختيار مديرى الجامعات الألمانية الذين كانوا يختارون من أية كلية من كليات الجامعة، فى حين أصبح لكلية الآداب عميدها الخاص بها فقط.

ثالثا: لم يراع فى جامعات ألمانيا ارتباط أروقة الجامعة بكلية الآداب وحدها، كما كان الحال فى جامعة باريس، فالأروقة فى الجامعات الألمانية كانت أقساما انقسمت إليها الجامعة بأكملها لا كلية الآداب وحدها، ولم يكن لهذه الأروقة فى الجامعات الألمانية



ما كان لها فى جامعة باريس من أهمية، بل إنها لم تلبث أن اختفت تماما من الجامعات الألمانية فى أواخر العصور الوسطى.

رابعا: وهناك فارق أساسى بين جامعة باريس والجامعات الألمانية يتمثل فى أن الأساتذة فى الجـامعات الأخـيرة كانـوا منذ أول الأمر يتقـاضون مرتبات ثابتة، وهـكذا تمتعت الجامعة الألمانية بهيـئة تدريس ثابتة من الأساتذة الدائمين الذين صارت لهم الغلبة فى المجالس الجامعية.



خامـسا: وثمة خطوة هامـة خطتها الجامـعات الألمانية نحو تطور منصب الأسـتاذية بالمعنى الحديث الذى نفهمه؛ ذلك أن جامعـات ألمانيا اتجهت نحو توزيع مواد الدراسة على الأساتذة وفق ترتيب خاص يضمن تخصص كل منهم، وكان يكفى أن يقوم مدرس بتدريس مادة معينة عدة سنوات متتالية ليصبح أستاذ هذه المادة بدلا من النظام القديم السائد فى الجامعات الأخرى، والذى كان يقضى بتوزيع مواد الدراسة توزيعا جديدا فى بداية كل عام دراسى.

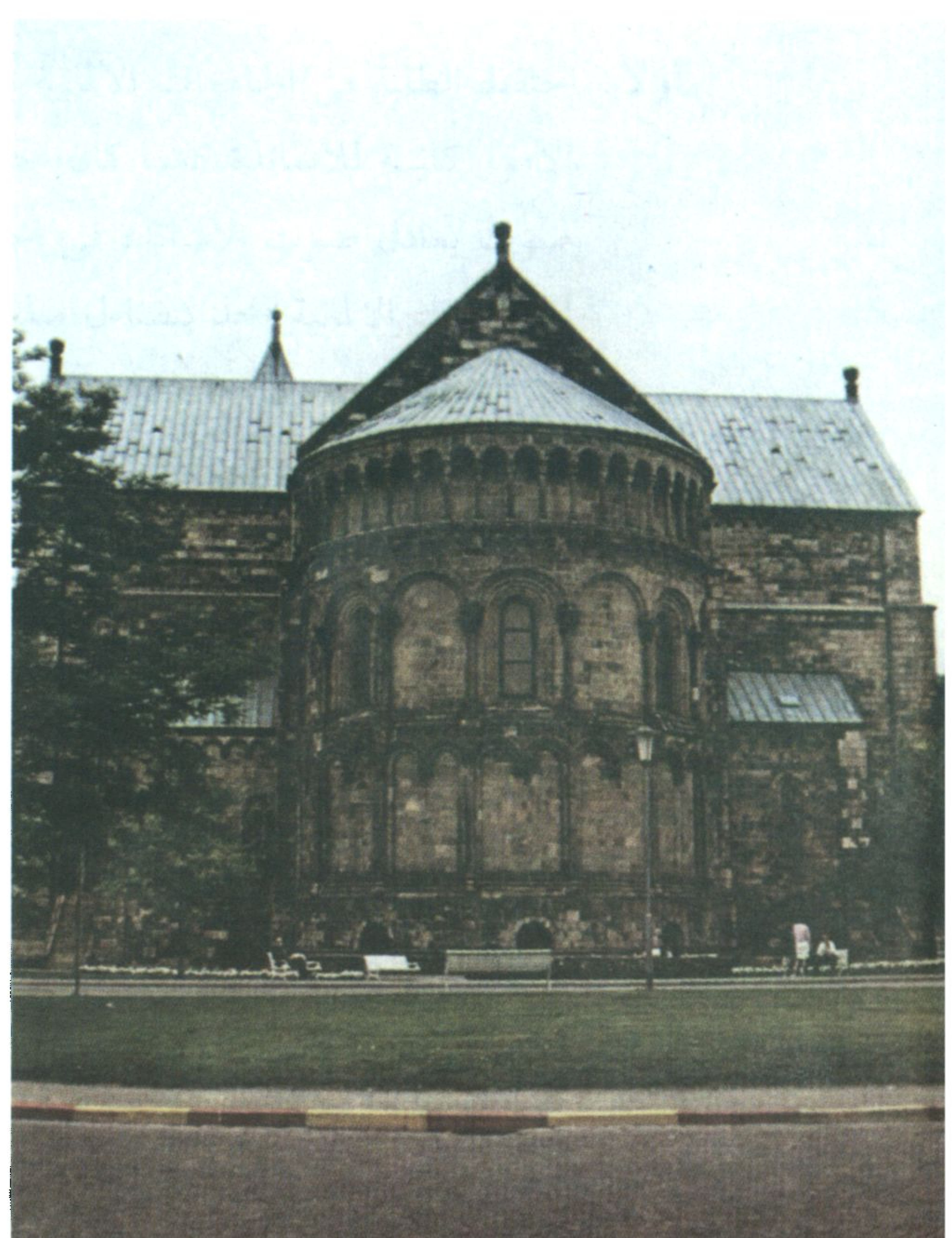


جامعات بولونيا وهنغاريا والدانمرك والسويد

نشأت أولى جامعات بولندا فى كراكاو، حيث أصدر كازمير العظيم ملك بولندا براءة بقيام هذه الجامعة سنة ١٣٦٤، ثم أصدر البابا أوروبان الخامس مرسوما بذلك فى السنة نفسها، وقد أضفت البراءة الملكية التى أصدرها كازمير العظيم على جامعة كراكاو الحقوق والامتيازات التى تمتعت بها جامعتا بولونا وبادوا، ومن هذا نفهم أن جامعة كراكاو قامت على نمط جامعة بولونا، بمعنى أن الطلبة كان لهم الصوت الأول فى إدارة شئون الجامعة واختيار مديرها.

ويبدو أن جامعة كراكاو تعرضت للذبول والانحلال عقب وفاة مؤسسها كازمير العظيم سنة ١٣٧٠، وما أعقب هذه الوفاة من فوضى سياسية عمت البلاد، ويرجع الفضل فى إحياء هذه الجامعة مرة أخرى إلى الملك لادسلاوس جاجاو الذى استصدر من بابا روما بونيفيس التاسع مرسوما سنة ١٣٩٧ بإنشاء كلية للاهوت، ثم أتبع ذلك سنة ١٤٠٠ بإصدار براءة جديدة للجامعة بأكملها، وليست هناك أهمية خاصة لهذا الإحياء سوى أن الجامعة أخذت تفقد طابعها الأول الذى امتاز بسيطرة الطلبة على إدارتها وأصبح مديرها يختار من بين الأساتذة لا الطلبة، بمعنى أن الأساتذة باشروا فى العهد الجديد السلطات نفسها التى تمتع بها إخوانهم أساتذة باريس.

ولم تلبث جامعة كراكاو أن نمت فى سرعة بعد أن أحياها لادسلاوس، فاجتذبت إليها طلاب العلم ليس فقط من أنحاء بولندا بل أيضا من هنغاريا وسيلزيا وألمانيا، وقد بلغ



الكاتدرائية العتيقة فى السويد



الطلبة الهنغاريون ـ بوجه خاص ـ نسبة كبيرة فى جامعة كراكاو، مما يدل على تأخر الحركة الجامعية فى هنغاريا العصور الوسطى، ويرجح أن العامل الأساسى الذى دفع الطلبة الألمان إلى الاتجاه نحو جامعة كراكاو هو أن هذه الجامعة وجد بها كرسيان للعلوم الرياضية والدراسات الفلكية، وهو أمر لم يتحقق فى أية جامعة أخرى شمالى الألب قبل سنة ١٥٠٠.

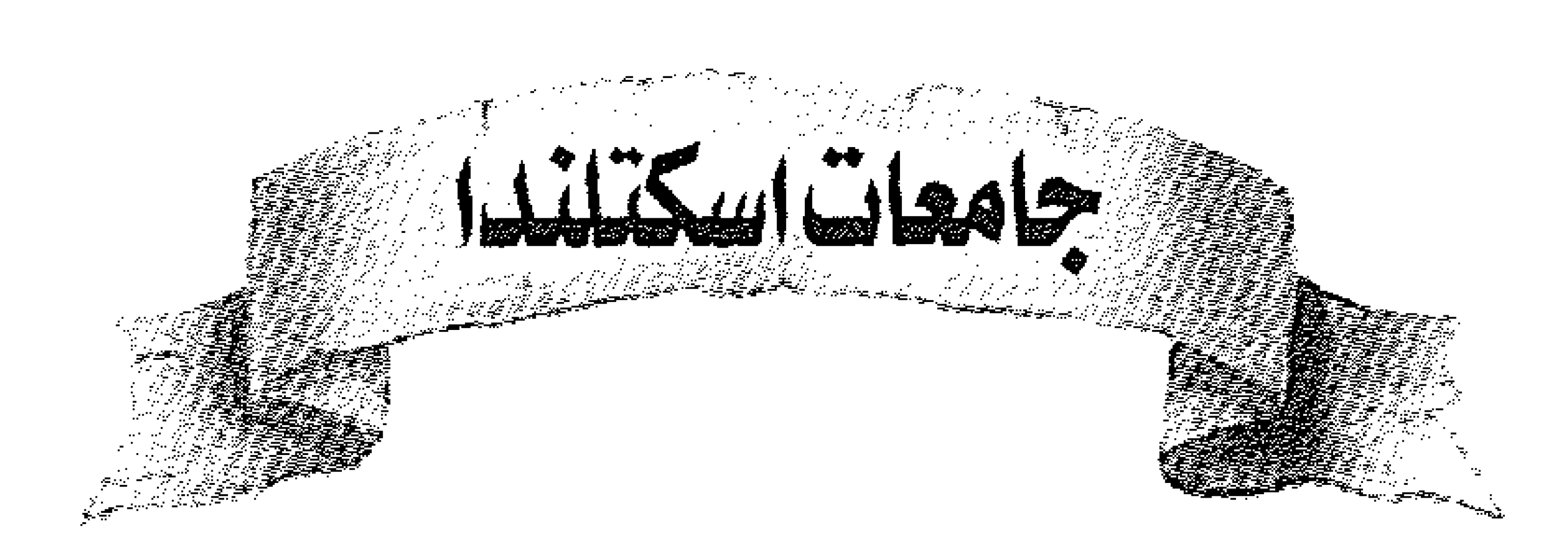
أما أولى الجامعات الهنغارية فى العصور الوسطى فكانت جامعة فونفكرخن التى أسسها لويس الأول ملك هنغاريا سنة ١٣٦٠، وإن كان المرسوم البابوى الخاص بتأسيسها لم يصدر عن البابا أوروبان الخامس إلا سنة ١٣٦٧، وقد اهتمت هذه الجامعة اهتماما بالغا بدراسة القانون الكنسى، بل يقال: إن الغرض الأساسى من إنشائها كان العناية بهذه الناحية بالذات، ثم كان أن قامت جامعة هنغارية ثانية فى بودا، وهى الجامعة التى أسسها سيجموند ملك هنغاريا سنة ١٣٨٩، وأصدر البابا بونيفيس التاسع مرسوم إنشائها سنة ١٣٩٥، ولم تلبث هذه الجامعة أن نمت فى سرعة وأسهمت بقسط وافر من النشاط الأوروبى المعاصر، حتى أنه أوفدت خمسة من أساتذتها للاشتراك فى مجمع كونستانس على أن جامعة بودا كانت قصيرة العمر، ويرجح أنها لم تستمر طويلا بعد وفاة مؤسسها سنة ١٤٠٧.

وهناك مرسوم صدر عن البابا بولس الثانى سنة ١٤١٥ يقرر أنه لا توجد فى هنغاريا أية جامعة، مما يوضح أن جامعتى فونفكرخن وبودا كانتا اندثرتا تماما فى تلك السنة، ولكن انحلال هاتين الجامعتين سرعان ما أدى إلى قيام جامعة ثالثة فى هنغاريا هى جامعة برسبورج على نهر الدانوب قرب الحدود النمسوية، ولم تلبث هذه الجامعة الجديدة أن اجتذبت بعض أساتذة اللاهوت والقانون الكنسى والآداب الذين وفدوا إليها من ڤينا وفرنسا وإيطاليا، كذلك امتازت هذه الجامعة بالتفوق فى الدراسات الفلكية بوجه خاص مما جعلها أطول عمرا من سابقتيها.

أما أولى جامعات السويد فكانت جامعة أبالا التى أصدر البابا سكستوس الرابع مرسوما بإنشائها سنة ١٤٧٧ استجابة لتوسلات رئيس أساقفة أبالا وغيره من أساقفة السويد ورجال الكنيسة فيها. وقد نص هذا المرسوم على أن تكون الجامعة الجديدة على نمط جامعة بولونا وتتمتع بحقوقها وامتيازاتها، والواقع أنه لا توجد لدينا شواهد ملموسة أو وثائق معاصرة تعطينا فكرة عن لوائح هذه الجامعة فى دورها الأول، وإن كان من المرجح أنها تأثرت ببعض الجامعات الألمانية مثل كولونيا ورستوك، حيث اعتاد أن يدرس طلبة السويد حتى ذلك الوقت، ولما كان الفضل فى إنشاء جامعة أبالا يرجع إلى رئيس أساقفة أبالا وزملائه من رجال الكنيسة فى السويد، فإن هذه الجامعة امتازت بارتباطها الشديد بالكنيسة.



كذلك شهدت الدانمرك قيام أولى جامعاتها فى القرن الخامس عشر، عندما أصدر البابا سكتسوس الرابع مرسوما بإنشاء جامعة كوبنهاجن سنة ١٤٧٨ استجابة لطلب الملك كرستيان الأول، ويبدو من لوائح هذه الجامعة أنها سارت وفق النظم المعمول بها فى جامعة كولونيا، وهى النظم التى أخذتها كولونيا بدورها عن جامعة ڤينا، وكانت كولونيا حتى ذلك الوقت الجامعة المختارة التى قصدها طلاب الدانمرك، مما جعل كوبنهاجن تستقدم أساتذتها من كولونيا، على أن جامعة كوبنهاجن لم تلبث أن أغلقت أبوابها سنة ١٥٣٠ نتيجة للحروب الأهلية والدينية، حتى أعاد كرستيان الثالث تأسيسها على أسس بروتستانتية سنة ١٥٣٩.



جامعات اسكتلندا

تعثرت الروابط الفكرية والثقافية بين إنجلترا واسكتلندا فى الشطر الأخير من العصور الوسطى نتيجة لحرب الاستقلال التى قامت بها الأخيرة.

ولذلك أقام الطلبة السكتلنديون كلية لهم فى باريس ينزلون فيها، مما يدل على أنهم صرفوا أنظارهم عن الجامعات الإنجليزية واتجهوا نحو القارة، على أن الطلبة الاسكتلنديين لم يلبثوا أن لمسوا صعوبة بقائهم فى باريس إبان عصر الانشقاق الدينى، عندما أعلنت اسكتلندا ولاءها للبابا بندكت الثالث عشر، فى حين سحبت باريس ثقتها من ذلك البابا، هذا إلى أن مدينة باريس غدت مسرحا للفتن والاضطرابات عقب مقتل دوق أورليان سنة ١٤٠٧، مما جعل السكتلنديين يفكرون فى إنشاء جامعة وطنية خاصة فى بلادهم، ويرجح أن مؤسسى الجامعات السكتلندية استمدوا نظم الجامعات التى أسسوها من جامعات الدرجة الثانية فى فرنسا - مثل أورليان وإنجرز - وهى الجامعات التى أخذت بنظام بولونا الذى يعترف بنفوذ الطلبة من ناحية دون أن يغفل حقوق الأساتذة وأسقف المدينة من ناحية أخرى.

وقد قام بتأسيس أولى الجامعات الاسكتلندية هنرى واردلو أسقف سانت أندروز (على شاطئ اسكتلندا الشرقى)، وهو الذى تخرج فى جامعة باريس ودرس القانون المدنى فى جامعة أورليان، وعندما قامت جامعة سانت أندروز سنة ١٤١٣ بدأت بكليتى اللاهوت والقانون الكنسى، أما كلية الطب فلم تقم فى هذه الجامعة إلا فى القرن الخامس عشر.

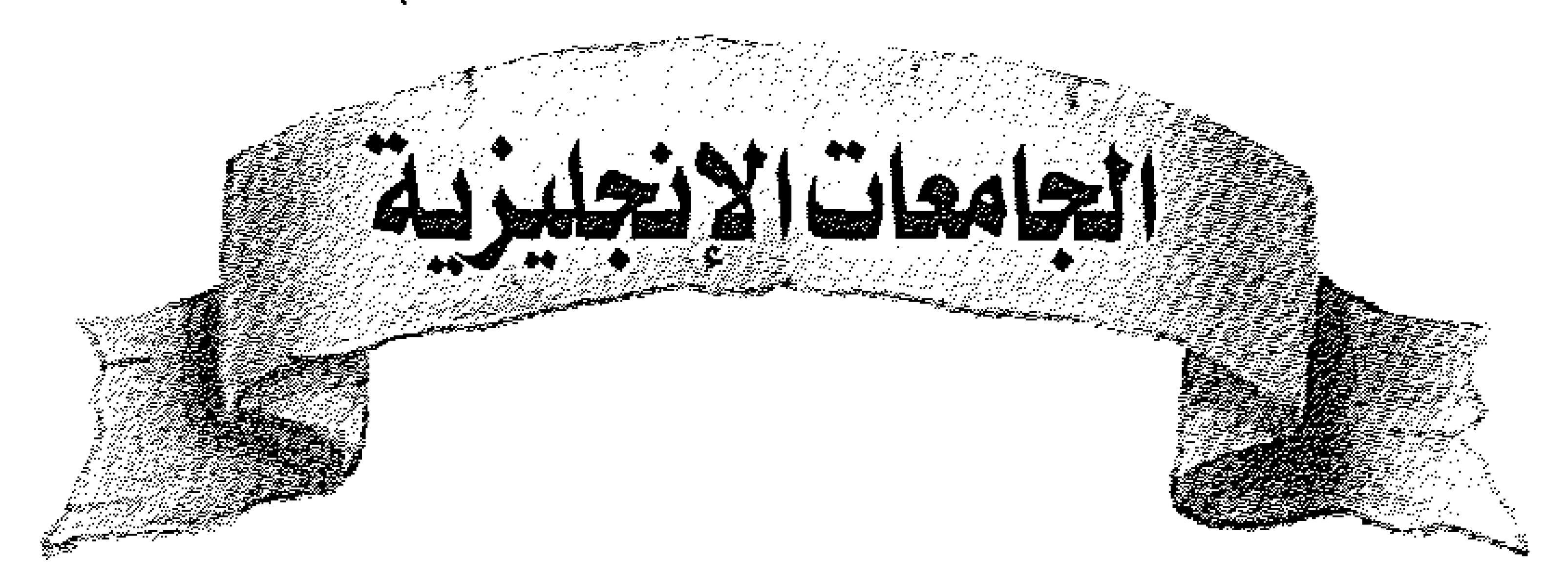
أما الجامعة الثانية فى اسكتلندا فقد قامت فى جلاسجو سنة ١٤٥٠، عندما أصدر البابا نيقولا الخامس مرسوما بإعلانها استجابة لرجاء جيمس الثانى ملك اسكتلندا ووليم تورنبول أسقف جلاسجو، وإذا كانت جامعة سانت أندروز قد جذبت إليها طلاب المناطق الجنوبية من اسكتلندا فإن جامعة جلاسجو قصدها معظم طلاب الأجزاء الشمالية، أما تنظيم جامعة جلاسجو فلم يختلف كثيرا عن النظم المعمول بها فى جامعة سانت أندروز.

وفى سنة ١٤٩٤ أصدر البابا إسكندر السادس مرسوما بإعلان الجامعة الثالثة فى إسكتلندا، وهى جامعة ابردين، ويرجع الفضل فى قيام هذه الجامعة إلى وليم إلفنستون أسقف ابردين، الذى يقال أنه درس الآداب والقانون الكنسى فى جلاسجو وباريس، والقانون المدنى فى أورليان، وليست هناك أهمية خاصة لهذه الجامعة، إذا جاءت نظمها ولوائحها شديدة الشبه بنظم الجامعتين السابقتين، ونستطيع أن نجمل خصائص الجامعات الاسكتلندية فى العصور الوسطى فيما يلى:

أولا: اندمجت الكليات والجامعة فى اسكتلندا بعضهما فى بعض، مثلما كان عليه الحال فى جامعات شمال ألمانيا، بحيث أصبح الأساتذة يدرسون فى الكلية والجامعة دون تفرقة، وكان هذا بعكس الوضع فى باريس وأكسفورد، حيث لم تسلك الدراسة فى الكليات الطريق القديم نفسه المألوف فى الجامعات.

ثانيا: ظلت الفنون السبعة الحرة تكون الخطوط العريضة لمناهج الدراسة فى الجامعات السكتلندية، وقد ترتب على ذلك علو كعب الجامعات الاسكتلندية فى ميدان الفلسفة، حتى جاء وقت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أصبح أعظم الفلاسفة الذين كتبوا بالإنجليزية يرتبطون بالجامعات الاسكتلندية.

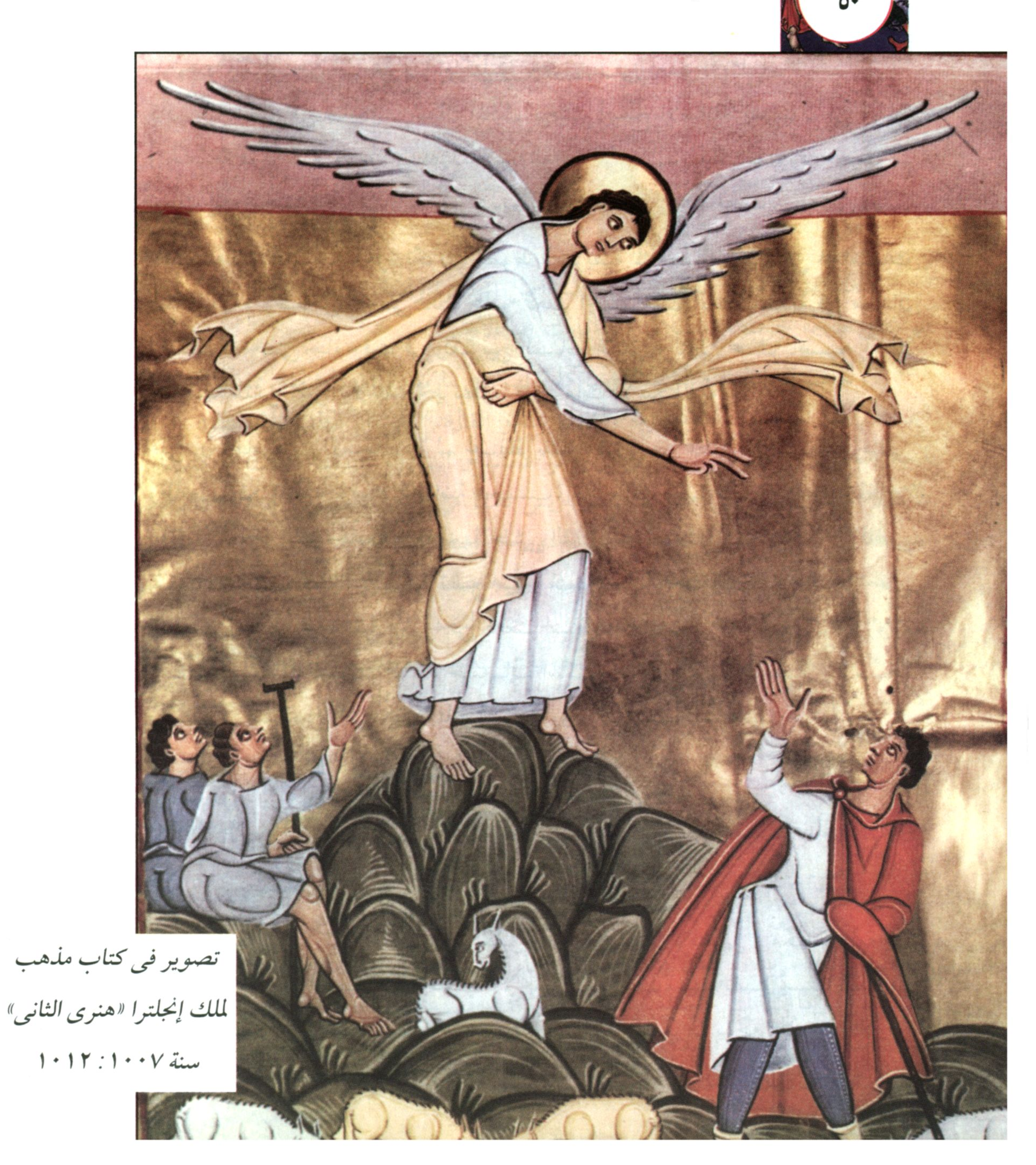
ثالثا: على أن الجامعات الاسكتلندية لم تحتفظ بقسط كبير من مظاهر العصور الوسطى وطابعها فى المناهج ومواد الدراسة فحسب، بل ظلت أيضا كثير من هذه المظاهر باقية فى روح تلك الجامعات ونظمها حتى القرن التاسع عشر، فحتى القرن الماضى بقيت الجامعات الاسكتلندية تضم عددا كبيرا من الأحداث الذين أقبلوا على الدراسات الأدبية والذين فاقوا فى صغر سنهم زملاءهم فى أية جامعة أوروبية معاصرة، كذلك استمر طلبة جامعات اسكتلندا ـ وبخاصة جامعتا جلاسجو وأبردين- منقسمين حتى القرن الماضى إلى أروقة تقوم بانتخاب مدير الجامعة.



تحتل جامعة أكسفورد ـ أولى الجامعات الإنجليزية فى العصور الوسطى ـ مكانة هامة فى تاريخ الجامعات الأوروبية، لا لأنها أم الجامعات الإنجليزية فحسب، بل أيضا بسبب الظروف الغريبة التى أحاطت بنشأتها فى القرن الثانى عشر، وقد حاول البعض أن يرجع الأصول الأولى لجامعة أكسفورد إلى الفرد العظيم (٨٤٨ - ٨٩٩)، بالضبط كما حاولوا الربط بين جامعة باريس

ومدرسة القصر على عصر شارلمان، ولكن من الواضح أن مثل هذه الأفكار بعيدة عن الواقع وتنقصها الأدلة الكافية لإثبات صحتها.

والمعروف أن أكسفورد لم تكن سوى قرية كبيرة بدأ اسمها يتواتر فى المراجع والوثائق المعاصرة منذ القرن العاشر؛ لذلك كان السؤال الذى حير كثيرا من الباحثين هو لماذا قامت أولى الجامعات الإنجليزية فى أكسفورد بالذات، مع أنها



تصوير فى كتاب مذهب لملك إنجلترا «هنرى الثانى» سنة ١٠٠٧ : ١٠١٢

ظلت حتى قيام الجامعة فيها لا تتمتع بأية شهرة كنسية أو تاريخية أو مميزات مناخية تجعلها تفوز بهذا الشرف دون غيرها من أمهات المدن الإنجليزية فى العصور الوسطى، هنا لا نستطيع أن نجد تعليلا واضحا لهذه الظاهرة إلا بدراسة موقع أكسفورد الجغرافى؛ ذلك أن هذه القرية امتازت بموقع متوسط جعلها فى العصور الوسطى ملتقى المجامع الدينية والوفود السياسية فى إنجلترا، وذلك بحكم وقوعها على الحدود بين وسكس ومرسيا، وهما أكبر الأقسام الجنوبية فى إنجلترا وأكثر أجزاء المملكة تقدما، هذا بالإضافة إلى وقوعها على مجرى نهر التيمز - أعظم الطرق المائية فى إنجلترا فى العصور الوسطى - فجعلها ذلك قريبة من لندن وليست بعيدة عن صلب القارة وبخاصة فرنسا، الأمر الذى سهل على طلبة العلم الوصول إليها من أقصى الشمال وأطراف الغرب.

مخطوط من أكسفورد سنة ١٢٧٠ يصور الموسيقى والشمس والقمر

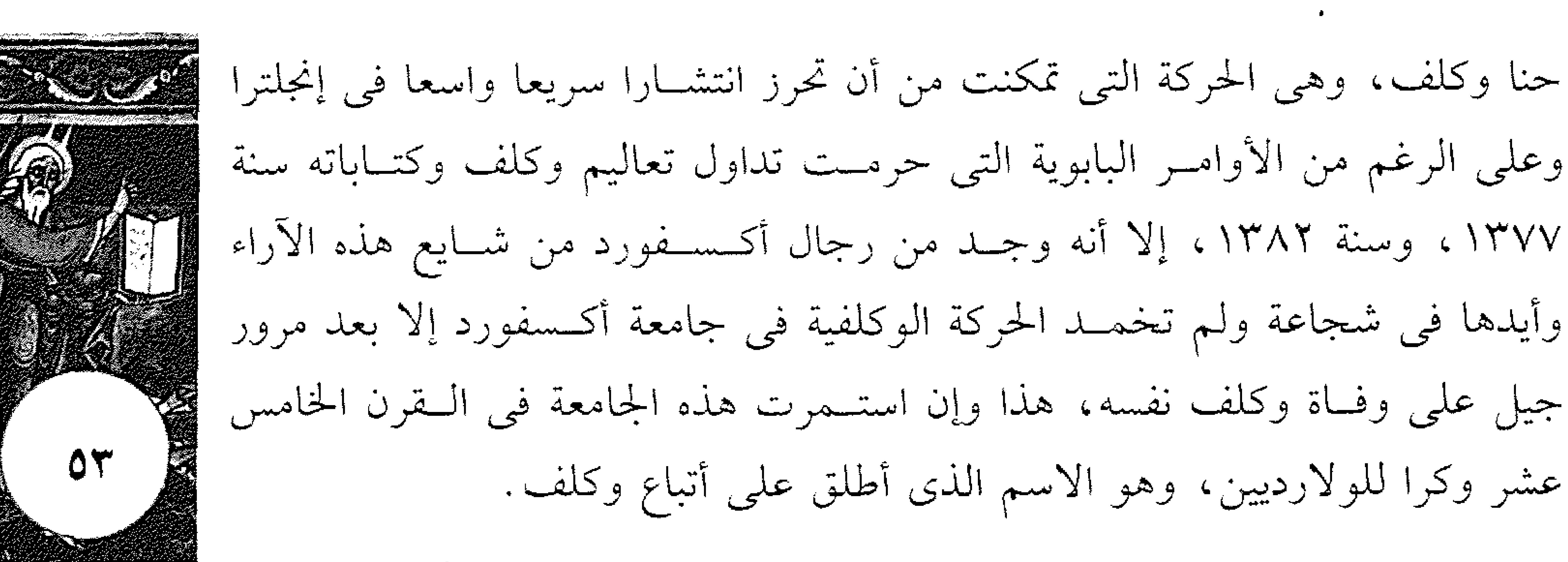




أما عن أصل جـامعة أكسـفورد فقـد أثبتت الأبحاث الحـديثة خطأ النظرية القائلة بأن هذه الجامعـة جاءت وليدة تطور بعض المدارس الديرية التى وجدت فى أكسـفورد فى العـصور الوسطى، لا سـيما وأن أكسـفـورد لم تكن مطلقا مـركزا لكاتدرائية تشـرف على التعليم فيهـا، كما كان الحال فى باريـس، وقد أصبح من الثابت فى التاريخ أن نشأة جامعة أكسفورد ترتبط بحوادث النزاع بين بكت وهنرى الثـانى قرب منتـصف القرن الثـانى عشـر، أى فى الوقت الذى بلغ عدد الطلـبة والأساتذة الإنجلـيز الذين أقامـوا فى فرنسـا بضع مئات، وفى ذلـك الوقت أصدر هنرى الثانى ملك إنجلترا أمـرا يحظر فيه على أى طالب الانتقال من إنجلتـرا إلى فرنسا أو العكس إلا بإذن من الملك، كما حتم على الطلبة الذين يدرسون فى الخـارج ويعتمدون على موارد تأتيهم من إنجلترا أن يعـودوا إلى بلادهم فى مدى ثلاثة أشـهر وإلا صودرت أموالـهم، وقد ترتب على ذلك عودة كثـير من طلبة العلم الإنجليز من فـرنسا إلى بلادهم ليبحـثوا عن وسيلة يستـأنفون بها نشاطهم العلمى.

وهكذا وجدت أكسفورد نفسها حوالى ١١٦٧- ١١٦٩ أمام مجموعة ضخمة من الأساتذة والطلاب، الأمر الذى ترتب عليه قيـام مجتمع جامعى يفيض حـيوية ونشاطا، ويمكن القول بأن جامعة أكسـفورد جاءت فى صورتها الأولى تقليدا للمجتمع الجـامعى الذى كان قائما فى باريس، ويبدو ذلك فى قوة العلاقات بين جامعتى أكسفورد وباريس فى القرن الثالث عشر، بحيث إن كل تطور جديد فى جامعة باريس ظهر صداه بسرعة فى أكسفورد، وسرعان ما أصبح لجامعة أكسفورد لوائح مدونة وخاتم عام ومـوظفون إداريون، وكان صدور أول لائحة مدونة لجامعـة أكسفورد سنة ١٢٥٣، وهى اللائحة التى صدق عليها البابا أنوسنت الرابع فى العام التالى.

أما كيف استطاعت جامعة أكسفورد أن تشارك فى حكم المدينة ثم تستأثر بعد ذلك بالحكم، فإن هذه الخطوات لم تتم دون نزاع بين الجامعـة من ناحية والسلطات التى تحكم المدينة باسم الملك من ناحيـة أخرى، ولم يلبث ملوك إنجلترا أن أخـذوا يضفون الامـتيازات على جـامعة أكسـفورد ورجالها، مما جعل عـمدة المدينة ونواب الملك فيها يتنازلون عن سلطاتهم للجامـعة تدريجيا، وفى الوقت نفسه كانت علاقة جامعة أكسفـورد بالسلطات الكنسية قوية وثيقة، إذ صارت الجامعة تحت سيطرة أسـقف لنكولن الذى لم يقتـصر نفوذه علـى النواحى القضائيـة المتعلقـة بأساتذة الجامـعة وطلابها فحسب، بل امتد ذلك النفوذ أيضا إلى بعض النواحى الـعلمية، على أن جامعة أكسفورد لم تلبث أن جنحت نحو التحـرر من سيطرة رجال الكنيسة مما أوقعهـا فى نزاع مع بعض الأساقفة حتى استطاعت الجامعـة أن تحقق استقلالها عن الكنيسة فى القرن الرابع عـشر، وقد حدث خلال الفترة التى تحررت فيها جامعة أكسـفورد من سيطرة رجال الكنيسة أن ظهرت حركة المصلح الدينى



حنا وكلف، وهى الحركة التى تمكنت من أن تحرز انتشـارا سريعا واسعا فى إنجلترا وعلى الرغم من الأوامـر البابوية التى حرمـت تداول تعاليم وكلف وكتـاباته سنة ١٣٧٧، وسنة ١٣٨٢، إلا أنه وجـد من رجال أكسـفورد من شـايع هذه الآراء وأيدها فى شجاعة ولم تخمـد الحركة الوكلفية فى جامعة أكسفورد إلا بعد مرور جيل على وفـاة وكلف نفسه، هذا وإن استـمرت هذه الجامعة فى الـقرن الخامس عشر وكرا للولارديين، وهو الاسم الذى أطلق على أتباع وكلف.

وبالإضافـة إلى الدراسات العادية التى عـرفتهـا الجامعات الأخـرى - مثل الآداب والطب والقانون المدنى والقـانون الكنسى واللاهوت - اهتمت جـامعة أكـسفورد اهتمـاما خاصا بالرياضيات وما ارتبط بها من علمى الموسيقى والفلك، كذلك قامت فى أكسفورد دراسات فى اللغتـين اليونانية والعـبرية، فضـلا عن اللغة الفرنسـية الحديثة، وأخـيرا يلاحظ على جامـعة أكسفورد فـى القرن الخامس عشر ازدياد اهتمـامها بالدراسات المدرسية، كـما بدا ذلك فى رسائل ارزامس وزملائه.

أما جامعة كمبردج فترجع نشأتها إلى هجرة الطلاب من جامعة أكسفورد سنة ١٣٠٩، على أن عودة طلاب أكسفورد إلى جامعتهم سنة ١٢١٤ بسبب أزمة لكمبردج حتى كانت سنة ١٢٢٩، حين جـمع هنرى الثالث الطلبة النازحـين من جامعة باريس وسـمح لهم بالإقامة فى كمـبردج، وهكذا يمكن القول بأنه لم يتم الاعتراف رسميا بكمبـردج إلا بعد الهجرة التى حدثت من جامعة باريس فى السنة الـسابقـة، إذ بدأ منذ ذلك الوقت يـتردد اسم كـمـبردج فـى الوثائق الرسـميـة المعاصرة، ولم يصدر أول اعـتراف رسمى من البابوية بجامعة كمـبردج إلا سنة ١٢٣٣ على عهد البابا جـريجورى التـاسع، ومنذ ذلك الوقت أخذت هذه الجـامعة تنـمو نموا حثـيثا وتـعمل على استكمال استقلالها عن الكنيسة حتى تم لها ذلك فى أواخر القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر، وسرعان مـا أخذت جامعـة كمبردج تزداد أهمـية فى أوائل القرن الخامس عـشر؛ لتصبح منـافسا خطيرا لجامعة أكسفورد، أما عن ناحية التنظيم فقد جاءت كمبردج صورة مشابهة لأكسفورد ما عدا بعض الاختلافات الشكلية البسيطة.



قاعة جامعة كمبردج



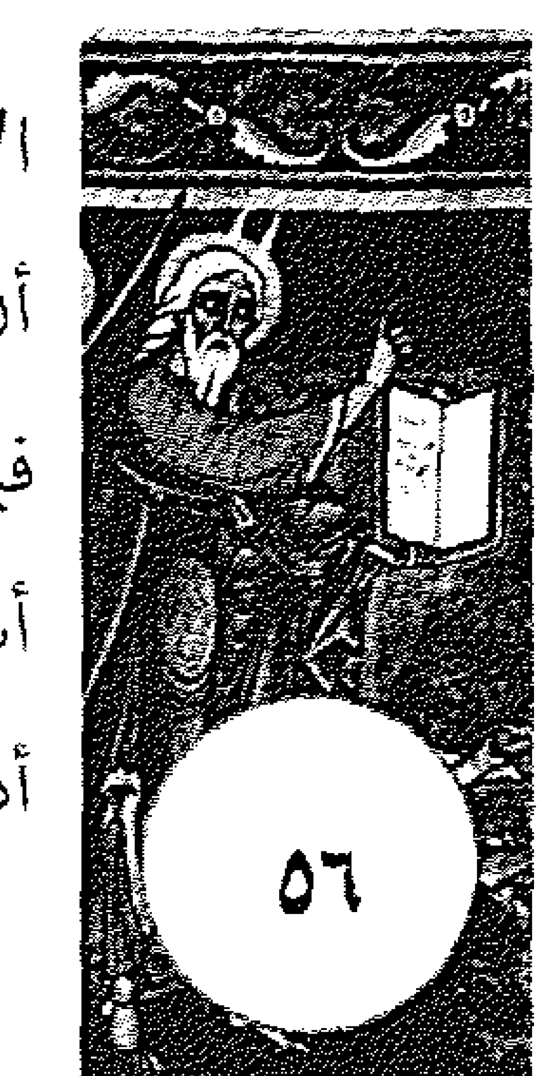


الفصل الثالث
النظم الجامعية

إدارة الجامعة

امتازت جامعات العصور الوسطى بجهاز إدارى محكم يأتى على رأسه مدير الجامعة الذى كان بمثابة نقيب الطلبة أو رئيس اتحادهم فى بولونا والجامعات التى قامت على نمطها، أو نقيب الأساتذة ورئيس اتحادهم فى باريس والجامعات التى قامت على شاكلتها، وكان يتولى اختيار مدير جامعة باريس أربعة يمثلون أروقة الجامعة الأربعة، أو بعبارة أدق يمثلون كلية الآداب؛ لأن نظام

رسم للمحكمة



الأروقة فى باريس ارتبط بكلية الآداب وحدها دون غيرها من الكليات، كما سبق أن أوضحنا، أما بقية الكليات فكان لكل كلية عميدها وهو غالبا أقدم الأساتذة فيها، وقد ظهرت أهمية عميد الكلية فى الاجتماعات الخاصة التى كان يعقدها أساتذة الكلية أو مجلسها، إذ كان هو الذى يدعو إلى الاجتماع ويتولى رئاسته، مما أدى إلى تمتعه بمركز خاص منذ سنة ١٢٦٤.

ومع أن نقيب جامعة الأساتذة احتل مكانة خاصة بارزة منذ أول الأمر، إلا أنه من الواضح أن عمداء الكليات أخذوا يتصرفون معه على أنهم أنداد لا مرءوسين له، ولكن النزاع بين الرهبان الفقراء وجامعة باريس فى الفترة بين سنة ١٢٥٠، وسنة ١٢٦٠ أدى إلى ازدياد أهمية النقيب فاتحد أساتذة الكليات المختلفة مع النقيب للحد من نفوذ الرهبان والوقوف فى وجههم، وعندما زال الخطر الذى وحد بين كليات باريس المختلفة، وجدت بقية الكليات ـ وخاصة كلية اللاهوت ـ أن نقيب الجامعة قد أصبح على درجة كبيرة من النفوذ، حتى غدا ممثلا للجامعة وأساتذتها جميعا، رغم أنه فى حقيقة أمره يمثل كلية الآداب وحدها، وكان أن أدركت هذه الكليات أنها وقعت تحت سيطرة مدير لا تشترك فى انتخابه، ومن هنا أخذت كل كلية منها تعزز شخصيتها باتخاذ لوائح وأختام وموظفين خاصين بها، ولكن على الرغم من تمسك عمداء الكليات بشخصياتهم ومكانة كلياتهم، إلا أن نفوذ النقيب ظل فى صعود تدريجى، وبعد أن كان حتى سنة ١٢٤٤ يختص بتنفيذ قرارات نقابة الأساتذة فقط، إذ به يلقب بعد ذلك بلقب «مدير الجامعة» فخاطبه البابا بهذا اللقب سنة ١٢٥٩ مما أضفى عليه مكانة سامية، وهناك وثيقة ترجع إلى سنة ١٢٨٩ ورد فيها اسم المدير قبل أسماء عمداء الكليات ورؤساء الأروقة وأساتذة الكليات جميعا.

وهكذا يبدو لنا أن الخطوات التى وصل بها نقيب الأساتذة فى باريس إلى منصب مدير الجامعة ـ الذى لا ينافسه منافس ـ جاءت تدريجية وبطيئة، ومن الصعب تحديد الوقت الذى وصل فيه المدير إلى هذه المكانة، وإن كان من الثابت أن ذلك حدث فى أوائل القرن الثالث عشر، وكان كل معيد يقسم عند تعيينه يمين الولاء لمدير الجامعة منذ سنة ١٢٥٦، حتى جاء وقت أصبحت فيه غالبية الأساتذة العلمانيين قد أقسموا هذا القسم للمدير، وبذلك تحققت زعامته على كافة كليات الجامعة، وهكذا صارت طاعة مدير الجامعة بمثابة حجر الزاوية فى نظام جامعة باريس.

لكن لم يكد مدير الجامعة يطمئن إلى مركزه داخل الجامعة ويحقق زعامته على عمداء كلياتها ـ بما فيهم عميد كلية اللاهوت ـ حتى دخل فى سلسلة من المنازعات مع كبار رجال الكنيسة فى باريس حول أسبقيته عليهم فى المناسبات والحفلات العامة، وقد استطاع مدير الجامعة أن يحقق لنفسه مكانة مساوية بالضبط لمكانة أسقف باريس، وإن كان بعض المديرين قد سجلوا ـ بأسلوب



الفخر - كيف أنهم فى كثير من المناسبات العامة كانوا يتقدمون الكرادلة والأساقفة ورسل البابا والسفراء ونبلاء فرنسا.

على أنهم من المهم أن نلاحظ أن مكانة مدير جامعة باريس لم تنبع من مكانته الشخصية، وإنما نبعت من أهميته التمثيلية، أى بوصفه ممثلا للجامعة وأساتذتها، هذا إلى أن المدير لم يكن المتحدث الرسمى بلسان الجامعة، وإنما كان يقوم بهذه المهمة الأخيرة أحد أساتذة اللاهوت، كذلك لم يتمتع المدير بسلطات قضائية واسعة سوى ما نصت عليه اللوائح الجامعية، وهنا يبدو الفارق واضحا بين مدير جامعة باريس من ناحية ومدير جامعة أكسفورد أو كمبردج من ناحية أخرى، إذ اقتصر نفوذ الأول القضائى على أعضاء الجامعة دون أن يستطيع توقيع عقوبات على المذنبين سوى العقوبات الأكاديمية مثل الغرامة والإيقاف عن العمل والفصل، أما الاختصاص القضائى الواسع الذى تمتع به مدير أكسفورد أو كمبردج فكان موزعا فى باريس بين ثلاث هيئات قضائية أو ثلاث محاكم، هى: محكمة الأسقف، ومحكمة البلاط الملكى، ومحكمة المندوب البابوى فى باريس، أما محكمة الأسقف فكانت تنظر فى جميع القضايا الجنائية الخاصة بالطلبة، فى حين حولت القضايا المدنية وما يتعلق بالامتيازات الممنوحة من القصر للجامعة إلى محكمة البلاط الملكى، أما المندوب البابوى فى باريس فكان يسهر على حماية الحقوق التى خولها البابا للجامعة، فضلا عن الفصل فى القضايا التى اختص الكرسى البابوى وحده بالفصل فيها، وهكذا لم تبق لمدير جامعة باريس اختصاصات قضائية سوى سماع الدعاوى القائمة حول إيجارات الدور التى تستأجرها الجامعة، والفصل فى الشكاوى المقدمة ضد تجار السلع التى تدخل تحت رقابة الجامعة مثل الكتب، فضلا عن التنظيمات الخاصة بمنح الدرجات العلمية والمنازعات القائمة بين الأساتذة والطلبة، أو المخالفات بخرق اللوائح الجامعية، وكان أقصى ما يوقعه مدير الجامعة من عقوبات عقوبة الطرد أو الفصل، وأقصى ما يمكن أن توقعه محكمة المندوب البابوى الحرمان والقطع من الكنيسة فى حين كانت محكمة البلاط الملكى تحاكم الطلبة وفقا لأحكام القانون المدنى السائد فى الدولة.

أما عن المجالس الجامعية أو المجالس العامة للجامعة فيحسن لفهمها أن نكرر ما سبق أن ذكرناه بخصوص بناء جامعة باريس، فهذه الجامعة تألفت من ثلاث كليات دراسية عليا للاهوت والقانون والطب، وكلية رابعة أقل درجة للآداب، وقد انقسمت كلية الآداب هذه على أربعة أروقة، وكان لكل كلية عميد يرأسها فى حين كان لكل رواق رئيس، وهكذا أصبح مجلس الجامعة يتألف من عمداء الكليات الأربع ورؤساء الأروقة الأربعة، بحيث يعبر كل عميد عن رأى أساتذة كليته وكل رئيس رواق عن رأى أعضاء رواقه، ولتحقيق هذا الغرض كان مدير الجامعة يوجه الدعوة إلى عمداء الكليات ورؤساء الأروقة على أن يحدد فى هذه الدعوة مكان الاجتماع وزمانه



والمسائل التى ستعرض للبحث ثم يقوم كل عميد ورئيس رواق بإبلاغ الدعوة لأساتذة كليته أو أعضاء رواقه عن طريق معاون يطوف عليهم أثناء محاضرة الصباح، وعند الاجتماع تأخذ كل مجموعة من الأساتذة مكانها التقليدى الذى اعتادوا أن يجلسوا فيه داخل الكنيسة أو الدير الذى يعقد فيه الاجتماع، ويبدأ المدير بعرض كل مسألة وعندئذ يناقشها كل فريق على حدة، ثم يقوم العميد أو رئيس الرواق ليعطى صوته معبرا عن رأى كليته أو رواقه.

وبعد أن يجمع المدير أصوات المجتمعين يعلن القرار النهائى الذى يعبر عن رأى الأغلبية.

وقد عمل بجامعات العصور الوسطى عدد من الموظفين لمساعدة المدير والعمداء فى إدارة شئون الجامعة ورعاية مصالحها، وتمتع هؤلاء الموظفون بالحصانة والامتيازات التى تمتع بها طلاب الجامعة، وأهم هؤلاء الموظفين:

أولا: المعاونون، ومهمتهم جمع أصوات الأعضاء فى المجالس والطواف بأرجاء الجامعة لقراءة اللوائح على الطلبة وإخطارهم بمواعيد المحاضرات وأسماء الكتب التى يرغب أصحابها فى بيعها، وبالإضافة إلى هؤلاء المعاونين العموميين وجد لكل أستاذ معاون خاص يرعى الحجرة التى يحضر فيها الأستاذ ويقوم بتنظيفها مرتين فى الشهر.

ثانيا: مسجل الجامعة وهو الموظف المسئول عن تدوين اللوائح والقرارات وحفظها.

ثالثا: سكرتير الجامعة، ولم تظهر وظيفته إلا فى القرن الخامس عشر ومهمته القيام بأعمال السكرتارية.

رابعا: الموظف المالى، وقد ظهرت وظيفته فى القرن الخامس عشر أيضا، وأصبح مسئولا عن رعاية أموال الجامعة والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها.

خامسا: السعاة الذين يقومون بتوصيل الأموال إلى الطلبة من ذويهم، بحيث صار هناك ساع لطلبة كل منطقة يجلب إلى أبنائها ما يبعث به ذووهم من أموال وغيرها.

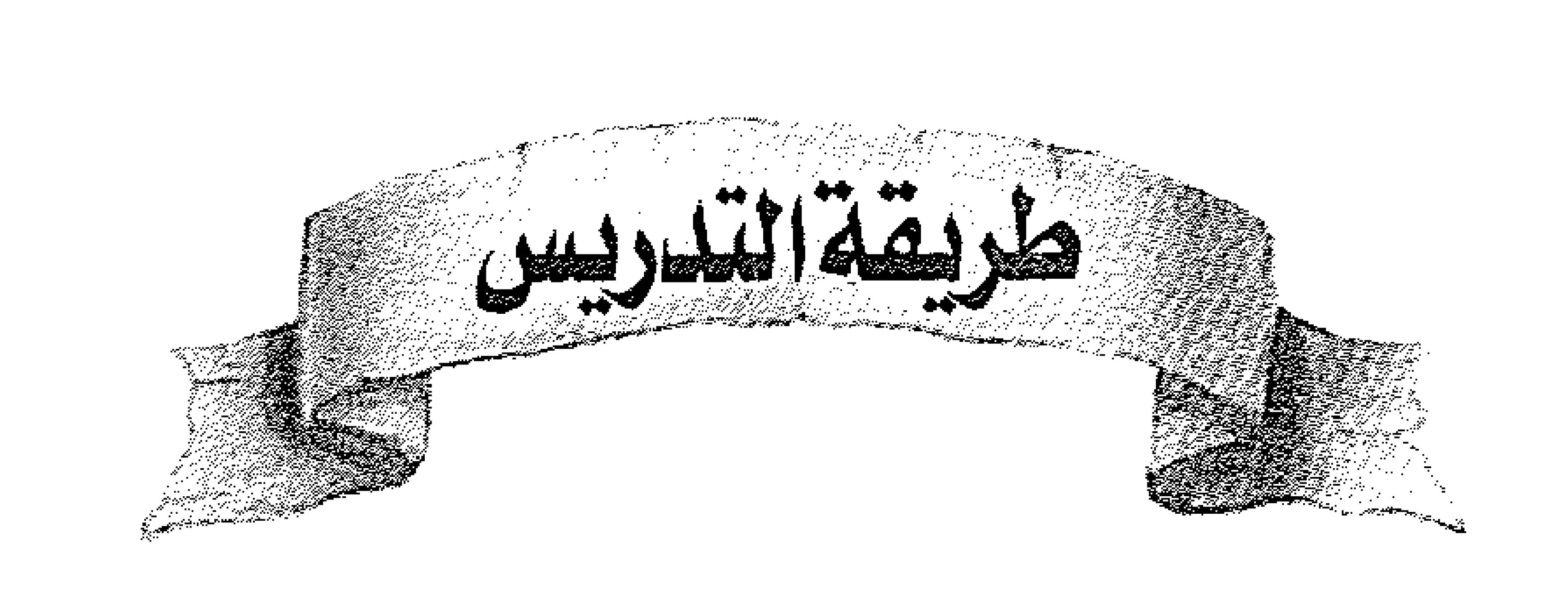


دراسة الفلسفة - تصوير للفنان چورچينو سنة ١٥٠١ - إيطاليا

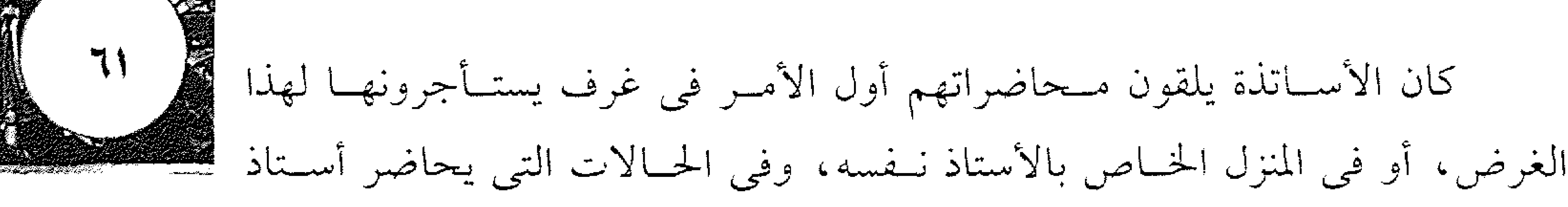


لم يكن للجامعات مبان خـاصة بها فى أول الأمر، وإنما كانت كل كلية من الكليات وكل رواق من الأروقة التابعـة للجامعة تستعير كنيسـة أو ديرا معينا تعقد اجتماعاتهـا فيه، أما المحاضرات كانت تستأجـر لها دور خاصة، في منزله، وقد واجه الأسـاتذة صعوبات جمـة فى سبيل العثـور على غرفة أو مكان يلقون فيه مـحاضـراتهم، فى حين كـانت هذه الصعـوبات بالغـة بالنسبـة للمعـيدين، أمـا الاحتفالات الـكبرى مثل منح الدرجات العلمية فكـانت تتم فى كاتدرائية المدينة، وهكذا نسمع أن جامعة بولونا اعتادت أن تعقد اجتماعاتها فى دير القديس دومنيك حيث كـان يحفظ خاتم الجامـعة، فى حين كانت جـامعة أكسفـورد تعقد اجتـماعاتها فى كنـيسة القديسة مارى.

والواقع أن الجامعات الأوروبيـة فى العصور الوسطى بدأت حياتها فقيـرة، ليست لها موارد خاصة أو أوقاف تـعتمد عليها، اللهم سـوى بعض المخصصات الضئيلة التى خـصصت لأغراض معينة مثل مساعدة الطلبة الفقراء، على أنه يمكن القول بأن فقر الجامعات الأوروبية فى هذا الدور من تاريخها كـان فى حقيقـة الأمر مصدر قوتهـا، وهى القوة التى تمثلت فى مقدرة الجـامعة على الانتقـال بسهولة من مـكان إلى آخر، والهجـرة من مدينة إلى أخرى فـى حالة اصطدامهـا بقوى معارضة، كنسية أو علمانية، وفى هذه الحالة كان من السهل على الجامعة أن تنقل جميع ممتلكاتها التى لا تتعدى مصروفات الطلبة وخاتمهـا، ولم يكن من الصعب على الجامعة فى حالة الهجرة أن تعثر على مـقر جديد لها، فحيـثما عثرت على غـرف كافية تستأجـرها لأغراض الدراسة، وعلى كنائس وأديرة تستأذنها فى عقد اجتماعاتها فيها كان يمكن أن تقوم الجامعة، ولم يكن ذلك إلا فى بداية القرن الرابع عشر عندمـا لجأت الأروقة فى باريس إلى الاشتراك فى استئـجار مدارس خاصة بها، كذلك حـدث فى ذلك القرن أن اغتصبت جـامعة أكسفـورد مبنى حديثا من مبـانى الكنيسة واتخذته مقرا لاجـتماعات مجلسهـا، ومنذ بداية القرن الخامس عشر أخذت الجـامعات الأوروبية تقيم منشآت خاصة بها وإن كان يجدر بالملاحظة أن هذه الفترة شهدت بداية تدهور نفوذ الجامعات بعد أن أخذت تفقد استقلالها تدريجيا، وبـعبارة أخرى فإن الجامعات الأوروبية انصرفت فى القرن الخامس عشر نحو العناية بإقامة مبانى جامعيـة جديدة دون الاهتمام بالاحتفاظ باستقلالها أو رعاية مستـواها العلمى، وهكذا كان الفقر مصدر قـوة الجامعات الأوروبية فى العـصور الوسطى، فلما أثرت هذه الجامعات اعتراها الضعف والوهن.



طريقة التدريس



كان الأساتذة يلقون محاضراتهم أول الأمر فى غرف يستأجرونها لهذا الغرض، أو فى المنزل الخاص بالأستاذ نفسه، وفى الحالات التى يحاضر أستاذ مشهور لا تتسع الغرف العادية لمستمعيه الكثيرين كان يستعار مبنى عام أو قاعة فسيحة فى المدينة ليلقى فيها الأستاذ محاضراته، ويقال: إن ارنريوس نفسه كان يلقى محاضراته فى مكان مكشوف بجوار إحدى الكنائس فى بولونا.

ولم يكن هناك جدول ثابت للمحاضرات فى جامعات العصور الوسطى، إذ كان من الصعب تحديد الجدول لارتباط الدراسة بمواعيد دق أجراس الكنائس، ومع ذلك فإنه يبدو أن جدول جامعة بولونا اشتمل على ثلاث محاضرات يوميا أهمها التى فى الصباح وتستمر نحوا من ساعتين، واثنتان بعد الظهر تستمر إحداهما ساعتين والأخرى ساعة ونصف، وإذا كانت محاضرات الصباح تنتهى حوالى التاسعة صباحا، فإن معنى ذلك أن الفترة بين التاسعة والواحدة والنصف بعد الظهر كانت فترة راحة يستجم فيها الطالب ويتناول غذاءه، وإن كان يحدث أحيانا أن يأخذ الطلبة محاضرة إضافية فى هذه الفترة.

أما طريقة التدريس فتصح لنا مما رواه أحد طلبة بولونا، إذ روى عن أستاذه فى القانون ـ أودو فريدوس ـ أنه كان يفتتح محاضرته بقوله: «سأعطيكم أولا ملخصا لكل موضوع قبل التعرض للنص، وبعد ذلك سأوضح لكم مدلول كل مادة ومعناها، ثم أقرأ معكم النص بقصد تصحيحه، وبعد ذلك ألخص لكم مرة أخرى ما تشمله المادة من مبادئ قانونية، ثم أتعرض لمناقشة ما يبدو فيها من متناقضات،مع إضافة المبادئ القانونية العامة التى يمكن أن نستخلصها من النص وتوضيح الصفات المميزة له، وما قد يكون فيه من مزايا أو عيوب.

فإذا اتضح أن هناك نصا قانونيا يتطلب إعادة الشرح بسبب أهميته أو صعوبته فسأعود للتعرض له فى إحدى المحاضرات المسائية».

وقد حرم على الأساتذة تحريما باتا اتباع الطريقة الإملائية فى المحاضرات، مما جعل أساتذة بولونا يتبعون أسلوب المناقشة والمحادثة فى محاضراتهم، ويتضح من النص السابق أن الأساتذة كان لهم الحق فى إعطاء محاضرات إضافية بعد الظهر لإعادة شرح موضوع هام أو تفسير مشكلة لم يتسع لها الوقت صباحا، أما فى وقت الصوم الكبير فكانت تبطل دروس بعد الظهر لتعقد بدلها



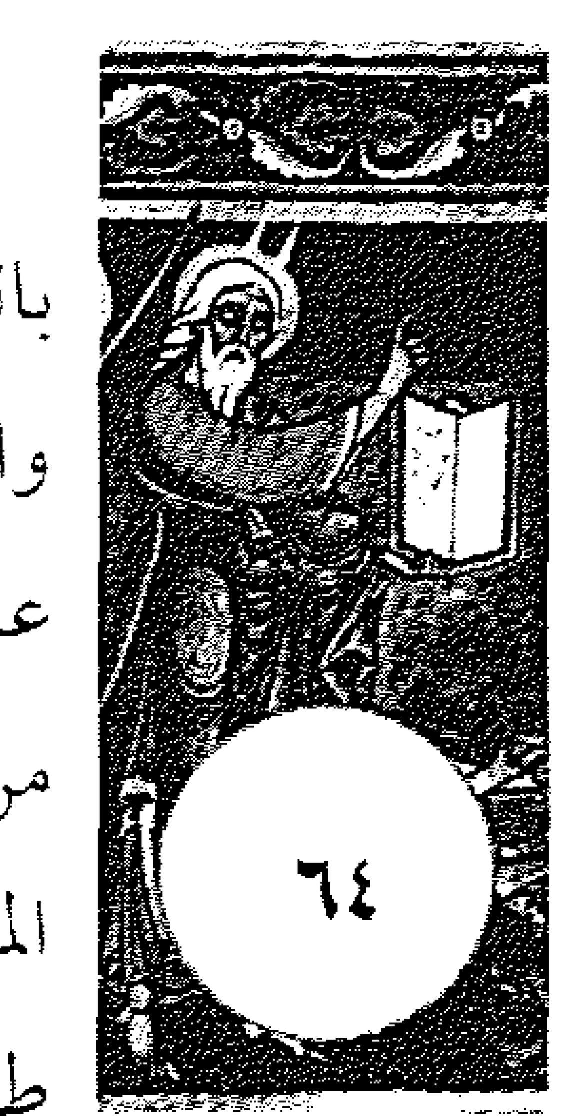
مناظرات عامة يرأسها مدير الجامعة، وكانت محاضرات الأستاذ عرضة لأن يقطعها المعاون فى أية لحظة فيدخل قاعة الدرس ليستدعى الأستاذ لمقابلة المدير، أو ليقرأ إعلانا أو ليذيع على الطلبة والأساتذة بيانا جديدا.

ولم يكن الأستاذ حر التصرف فى محاضراته وإنما كان مجبرا على اتباع نظام دقيق لا يحيد عنه، فإذا تخطى فقرة أو فصلا عوقب بغرامة، كما كان محرما عليه أن يؤجل مسألة غامضة حتى نهاية المحاضرة خوفا من أن يكون هذا التأجيل بقصد التهرب منها، وكان الوضع فى جامعات العصور الوسطى ـ كما هو اليوم ـ أن يتوسع بعض الأساتذة فى الأجزاء الأولى من المناهج، مما لا يترك متسعا للأجزاء الأخيرة، ولتجنب هذا الوضع قسمت كتب القانون فى بولونا إلى أجزاء بحيث يجب أن ينتهى الأستاذ من كل جزء فى وقت معين، وكان المفروض أن يضع كل أستاذ فى بداية العام الدراسى مبلغا من المال عند صراف تحدده الجامعة بحيث يتعهد الصراف بعدم رد هذا التأمين للأستاذ إلا بإذن من المدير، فإذا تأخر أستاذ فى التدريس ولم ينجز الجزء المطلوب فى الوقت المحدد، غرم باقتطاع جزء من التأمين المحفوظ عند الصراف، ولضمان تنفيذ هذه التعليمات وغيرها تنفيذا دقيقا ألفت لجنة من الطلبة فى بولونا لمراقبة سلوك الأساتذة وتقديم تقارير عن المخالفين.

محاضرة جامعية



مخطوط من كتاب دراسي فرنسي.. (في المركز يبدو أفلاطون وأرسطو)



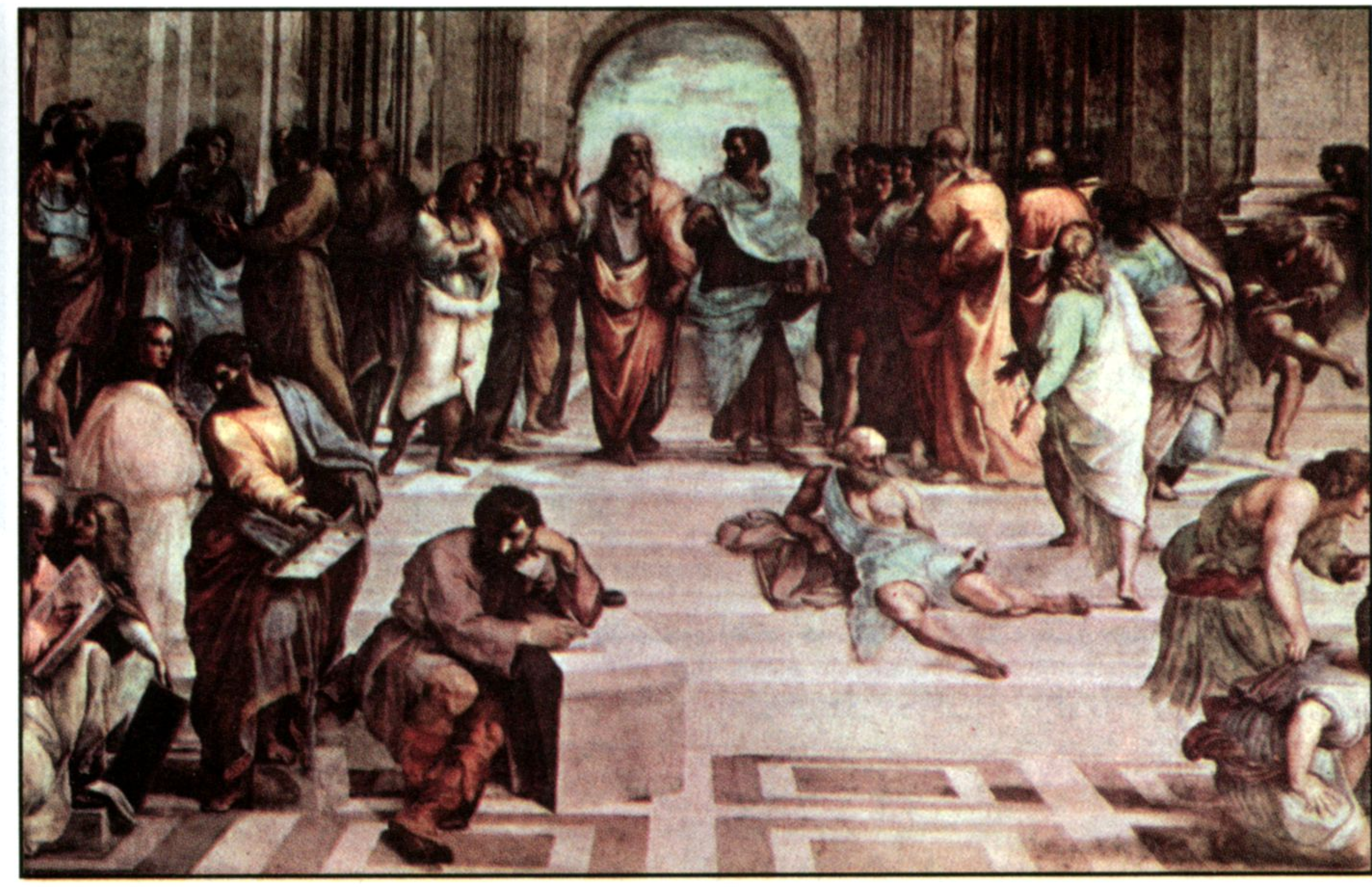
ولم يكن الطالب ملزما بحضور أكثر من ثلاثة أيام فى الأسبوع ويتغيب باقى الأيام، فى حين كان الأستاذ فى بولونا لا يستطيع أن يتغيب عن الجامعة يوما واحدا لعذر قهرى طارئ، إلا بعد أن يحصل أولا على موافقة طلبته، ثم بعد ذلك على موافقة المدير، فإذا كان فى نيته مغادرة المدينة وجب عليه أن يودع مبلغا معينا من المال ضمانا لعودته، وكان على الطلبة أن يبلغوا عن الأستاذ المهمل غير المواظب على عمله، هذا إلى أن الأستاذ الذى لا ينجح فى الحصول على خمسة طلاب مستمعين على الأقل كان يعتبر غائبا ويتعرض للغرامة، كذلك حوسب الأساتذة فى بولونا حسابا دقيقا صارما على مراعاة المواعيد، فكان على الأستاذ أن يبدأ محاضرته عند دق أجراس القداس فى الكنيسة، أو فى وقت مبكر عن ذلك إذا أراد، كما كان محرما عليه أن يستمر فى محاضرته بعد دق الأجراس مؤذنة بانتهاء المحاضرة، ولضمان تنفيذ ذلك على الطلبة أن يغادروا غرفة الدراسة فورا عند دق الأجراس وإلا تعرضوا هم أيضا للغرامة.

أما فى جامعة باريس فقد انقسمت الدراسة أيضا إلى محاضرات أساسية تلقى فى الصباح وأخرى أقل أهمية تكون بعد الظهر، وكانت المحاضرات الأساسية يلقيها الأساتذة فى أوقات معلومة فى الصباح وفى أماكن محددة، أما المحاضرات الثانوية فيمكن إلقاؤها فى أى وقت من أوقات النهار فيما عدا الأوقات المحددة للمحاضرات الأساسية، ومن الواضح أن المحاضرات الأساسية خصصت لدراسة الكتب والنصوص الرئيسية، فى حين خصصت محاضرات بعد الظهر لدراسة الكتب الفرعية.

ولما كان تنظيم جامعة باريس قام على أساس جعل السلطة فى قبضة الأساتذة، فإن الطلبة لم يستطيعوا أن يفرضوا فيها القيود الشديدة التى فرضها طلاب بولونا على أساتذتهم، ومع ذلك فقد وضع لجامعة باريس نظام يكفل حسن تأدية الأساتذة لمهامهم فى دقة وأمانة.

وكان الطلبة فى جامعات العصور الوسطى يجلسون أثناء المحاضرة على وسائد من القش مفروشة على الأرض، واستمر ذلك حتى القرن الخامس عشر عندما أخذ طلبة الجامعات يجلسون على دكك أو أدراج؛ مما جعل لائحة باريس الصادرة سنة ١٤٥٢ تحرم هذه البدعة فى حزم، وتفرض على الطلبة الجلوس أثناء المحاضرة على الأرض «حتى لا يتسرب الكبرياء إلى نفوسهم» كذلك حرم على الأساتذة تحريما باتا اتباع الطريقة الإملائية فى المحاضرات حتى يعتمدوا على المناقشة والمحادثة، بل ذهبت اللوائح الجامعية إلى تحديد السرعة التى يجب أن يتكلم بها الأستاذ أثناء المحاضرة، فطلب إليه أن يحاضر بسرعة حتى لا يتمكن الطلبة من كتابة ما يقول، فإذا أضفنا إلى ذلك ندرة الكتب فى العصور الوسطى أدركنا أن الطالب فى تلك العصور كان عليه أن يعتمد على قوة ذاكرته إلى حد كبير، ويبدو أن الطلبة اشتدت بهم الرغبة فى تدوين ما يقوله الأستاذ،





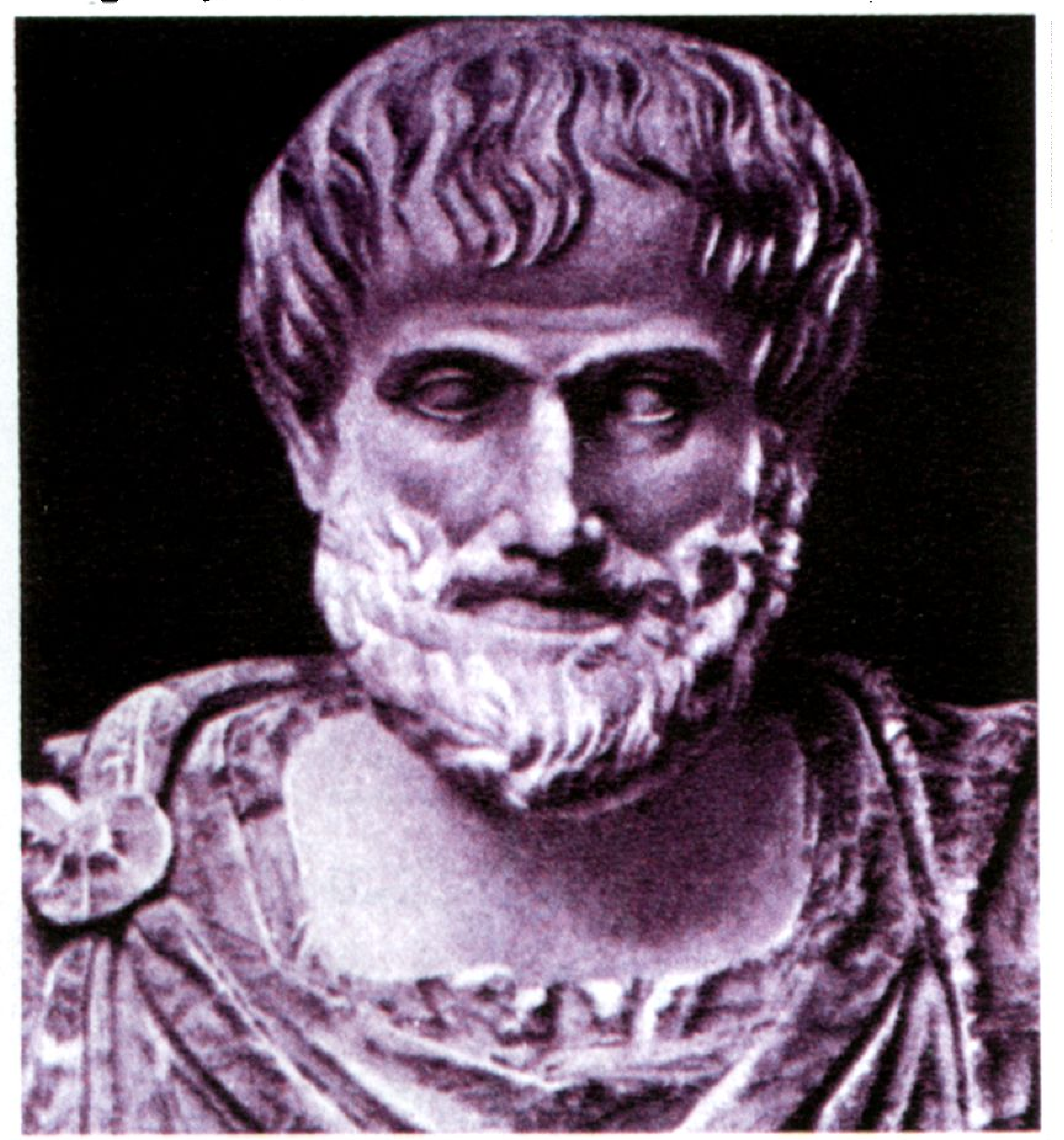
لوحة مدرسة «أثينا» التى تجمع فلاسفة الإغريق (وفى المقدمة يجلس «ابن رشد»)
من أعمال «رفائيل سانزيو» عصر النهضة الذهبى

بحيث إن لائحة الجامعة حذرت كل من يحاول إجبار الأستاذ على الإملاء عن طريق «الصياح أو الصفير أو الزئير أو إلقاء الأحجار . .» .



مناهج الدراسة

تمثال لأرسطو



تنوعت الكليات فى جامعات العصور الوسطى، وكذلك المواد التى كانت تدرس فيها، وإن تشابهت هذه المواد فى مختلف الجامعات، وإذا كنا قد سبق أن ذكرنا أن كل جامعة من الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى تخصصت فى إحدى الدراسات العليا، فليس معنى ذلك أنها أهملت بقية الدراسات، فجامعة بولونا مثلا تفوقت فى القانون المدنى، ولكن وجدت بها - إلى جانبه- دراسات فى القانون



الكنسى واللاهوت والطب وغيرها . . ونستطيع أن نستعرض استعراضا سريعا **أهم مـواد الدراسـة التى حظيت بالعنـاية فى الجـامعـات الأوروبيـة فى العـصـور الوسطى:**

أولا: القانون المدنى، وكان مركز دراسته جـامعة بولونا والجامعات الأخرى التى تفرعت عنها فى إيطاليا وأسبانيا وجنوب فرنسا وغيرها، وقامت دراسة القانون المدنى على أسـاس الشروح التى كتبها فـقهاء القانون منذ عهد أرنريوس.

ثانيا: القانون الكنسى، وقـد اهتمت به الكنيسـة اهتماما كـبيرا؛ لأنها وجـدت فى اتساع دراسته اتساعا لنفوذها ودعامة لها، وكانت أهم مراكز دراسته بولونا وباريس ومنهما انتقلت دراسته إلى كثير من الجامعات التى تفرعت عنهما، ولكن القانون الكنسى لم يدرس فى باريس بالروح العلمية نفسهـا التى درس بها فى بولونا، أو فى الجامعات التى قامت على نمط بولونا مثل أورليان وإنجـرز وتولوز، وقد حاول البابا هونريوس الثالث أن يجعل دراسة القانون مقـتصرة على القانون الكنسى وحده، دون أن يدرى أن مثل هذه الدراسـة لا يمكن أن تزدهر فى بيئة لا يدرس فـيها القـانون الرومانى، ويبدو أن كلية القانون الكنسى فى باريس اشتهرت بكثير من المساوئ والعيوب، مثل تفشى الرشوة وشراء الدرجات العلمية وغيرها؛ لأن هذه الكلية ضمت فئة كبيرة من أبناء الطبقات الراقيـة الذين طمعوا فى الحصول على مناصب عاليـة فى الكنيسة عن طريق دراسة القانون الكـنسى، أما المراجع التى قامت عليها دراسـة القانون الكنسى فى جامعات العصـور الوسطى فكان أهمها مجموعة القوانين التى جمـعها جراشيان والتى عرفت باسم مجموعة القانون الكنسى أو باسم «مراسيم جراشيان».

ثالثا: اللاهوت، وكانت كليتـه إحدى الكليات الأساسـية فى جامعات باريس وأكـسفورد وكمبردج، فضـلا عن جامعات أخرى عديدة وبخاصة فى إيطاليا وأسـبانيا وفرنسا، وبينما أخـذت المناهج الدراسية فى الآداب تتجـه نحو الاختصار كلمـا تقدم الوقت بالعـصور الوسطى، إذ بالعكس يـحدث فى كليـة اللاهوت، حيث أخـذت المناهج الدراسيـة تتجه نـحو التفـصيل والإطالة، وهكذا أصبح مـن الضرورى فى جامـعة باريس أن يقـضى الـطالب خـمس سنوات فى دراسـة اللاهوت لـلحـصـول على البكالوريوس فـيصبح مـعيـدا، فى حين كـان عليه أن يقضى ثـلاث سنوات أخرى للحصول على الدكتوراه بحيث تكون سنه عندئذ فوق الخامسة والثلاثين، أما المراجع الأساسيـة التى قامت عليها دراسـة اللاهوت فى جامعات العـصور الوسطى فكانت الإنجيل ثم كتاب الأحكام لواضعه بطرس لمبارد.



وإذا كـان بعض البـابوات ـ لا سيـمـا بابوات إڤينون قبل الانشقـاق الدينى ـ قد حاربوا مـبدأ تدريس اللاهوت فى الجامـعات الأسبـانية وعلى رأسـها جـامعة شلمـنقة، وذلك بدافع الرغـبة فى الاحتفـاظ لجامعة باريس باحتكار الدراسـات اللاهوتية، فإن الموقف أخذ يتغير بعد ذلك عندما بدأت جامـعة باريس تناصر مبدأ استقلال الكنيسة الفـرنسية، ومن ثم اتجه البابوات فى القرن الخـامس عشر ـ مثل مارتن الخامس (١٣١٧- ١٤٣١) ـ نحو تشجيع دراسة اللاهوت فى شلمنقة لمنافسة جامعة باريس.

رابعا: الفلسفة والمنطق، وقد احتلت الدراسات الفلسفـية والتأملية مكانة هامة فى جامعات العصور الوسطى وبخاصة جـامعة باريس، فى حين أن هذه الدراسات لم تنجح فى أن تحرز المكانة نفسها فى الجامعات الإيطاليـة، وكان القرن الثالث عشر أزهى عصور الفلسفـة المدرسية نتـيجة لاتصـال الغرب بالفلسفـة الشرقية ـ الإسـلامية واليـونانية والإسرائيلية ـ وما ترتب على ذلك من إحياء فلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية فى غرب أوروبا، وهكذا نتج عن نشاط حركة الترجمة عن العربية واليونانية إلى اللاتينية أن أخذ غرب أوروبا يعرف الكثـير من تعاليم أرسطو ويعرف أن الطبيعـة المحسوسة تقدم للفكر البشرى حقلا أوسع من اللاهوت غير المحسوس.

على أن فلسفة أرسطو ـ كمـا وصلت غرب أوروبا عن طريق شروح ابن سينا وابن رشد وموسى بن ميمون وغيرهم ـ اتخذت صورة يمكن تسميتها وحدة الطبيعة أو الوجود، وهى صورة لم تترك إلا مجالا ضيقا لتعاليم المسيحية الخاصة بوجود الله والخلق والحيـاة الأخرى والحسـاب، وهكذا أصبـحت المشكلة الكبرى أمـام مفكرى القـرن الثالث عـشر هى هل يجـوز تدريس هذه الآراء الجديدة جنبـا إلى جنب مع اللاهوت فى جامعـة باريس وغيرها من الجامعات؟ حـقيقة إن الكنيسة اعـتقدت فى أول الأمر أنها بإشـرافها على الجامعات النـاشئة ـ وبخاصة جامـعة باريس ـ ضمنت لنفسها السيطرة على دائرة الفكر الغربى بحيث لا تتسع هذه الدائرة أكثر مما تريده لها الكنيسة، ولكن وصول فلسفة أرسطو الجديدة إلى غرب أوروبا أحدث انفجارا فكريا عنيفا، فأقبل طلاب العـلم على هذه الفلسفة بشراهة بالغة غير مبـالين بتعارضها مع مبادئ الكنيسة، حتى أصبح من العـبارات المألوفة قول المعاصرين: «إنك تستطيع أن تكسب السباق إذا أثبت أن أرسطو فى جانبك».



وهكذا ثارت البابوية لتدريس آراء أرسطو وشروح ابن رشد فى جامعة باريس، فأصدر مجمع باريس الكنسى قرارا بتحريم هذه الدراسة سنة ١٢١٠، وتكرر هذا التحريم عدة مرات، ولكنه لم يجد فى منع أحرار المفكرين من مواصلة دراستها حتى سمح البابا أوروبان الخامس سنة ١٣٦٦ بأن يمتحن طلاب باريس فى جميع مؤلفات أرسطو دون استثناء.

أما عن الكتب المقررة فيفهم مما سبق أن مؤلفات أرسطو وشروح فلاسفة العرب لها احتلت المكانة الأولى فى تدريس الفلسفة فى باريس، فى حين كان الاعتماد فى دراسة المنطق على منطق أرسطو ومدخل فرفريوس الصورى.

خامسا: الأدب اللاتينى (النحو والبلاغة) احتلت اللغة اللاتينية مكانة كبيرة فى جامعات العصور الوسطى؛ لأنها كانت لغة التدريس بتلك الجامعات، وبالتالى فإن راغب الالتحاق بالجامعة كان عليه أن يكون ملما بها قراءة وكتابة، على أن معرفة اللغة اللاتينية لم تكن ضرورية لفهم المحاضرات فى جامعات العصور الوسطى فحسب، بل إنها كانت الأداة التى يمكن أن يتفاهم بها كل طالب مع أساتذته وزملائه الوافدين من مختلف الأقاليم والبلاد الأوروبية، فضلا عن أن الشكاوى والدعاوى والمعاملات الرسمية داخل الجامعة كانت تتم باللغة اللاتينية؛ لذلك نصت لوائح كثير من الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى على عدم إجازة أى طالب يثبت أن لغته اللاتينية غير سليمة.

وقد انحطت النظرة نحو البلاغة والنحو فى جامعات القانون وعلى رأسها جامعة بولونا، إذ أخذ الاتجاه يسود بأن هذه الدراسات صبيانية وليس لها وظيفة سوى إعداد التلاميذ



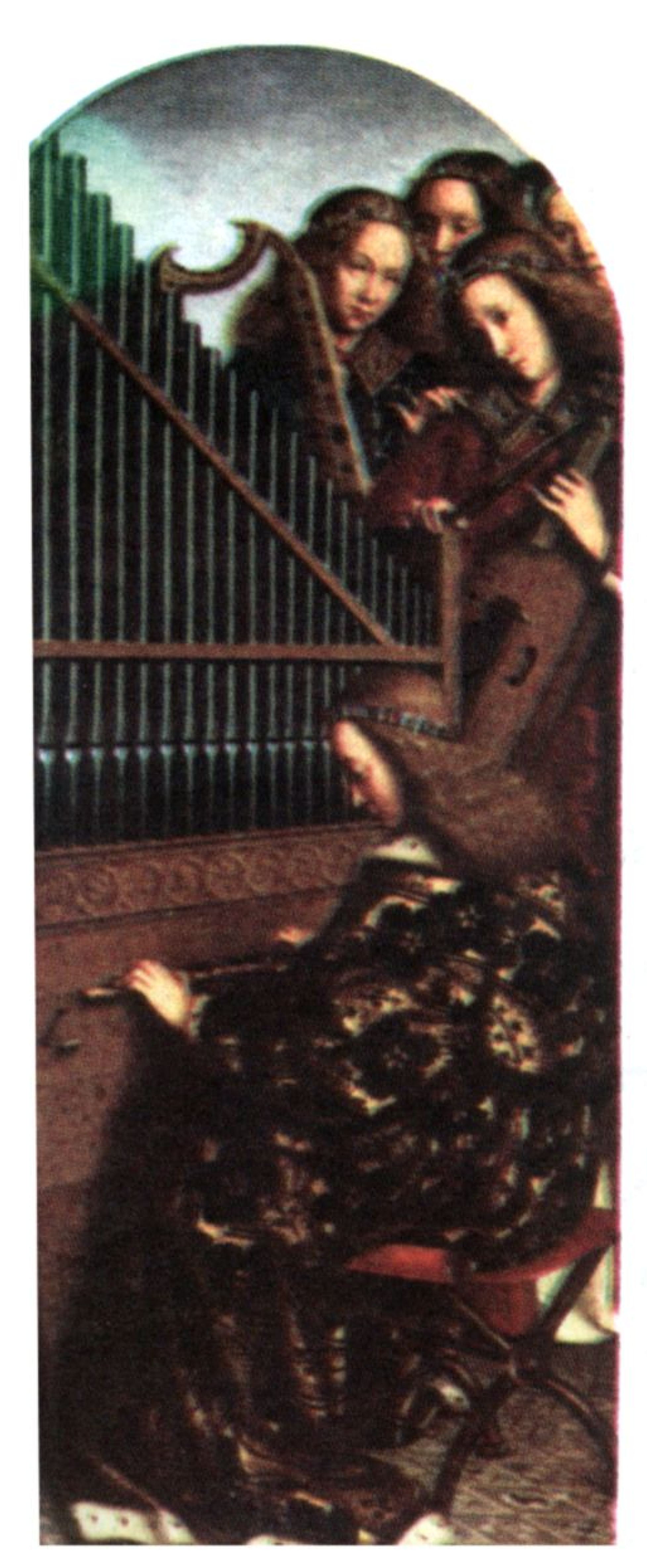
درس الطب – من لوحات رمبرانت – عصر النهضة





درس الرياضيات - من لوحات ليونارد دافينشى

للدراسات الأخرى العالية، أما عن جامعة باريس فإن العناية بالمنطق والفلسفة ـ وبخاصة فلسفة أرسطو الجديدة ـ لم تلبث أن استحوذت على نشاط المعاصرين، مما أدى إلى إهمال الدراسات الأدبية المرتبطة بالنحو والبلاغة، على أن ذلك لم يحل دون انتعاش اللغة اللاتينية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، كما يظهر ذلك بوضوح من الرسائل المنثورة والأشعار التى ترجع إلى ذلك العصر، وقد اعتمدت دراسة النحو اللاتينى على كتاب يرسكيان الذى ألفه عند مطلع القرن السادس، كما اعتمدت دراسة البلاغة على تراث شيرون ورجيل وسالوست وغيرهم من أدباء الرومان.



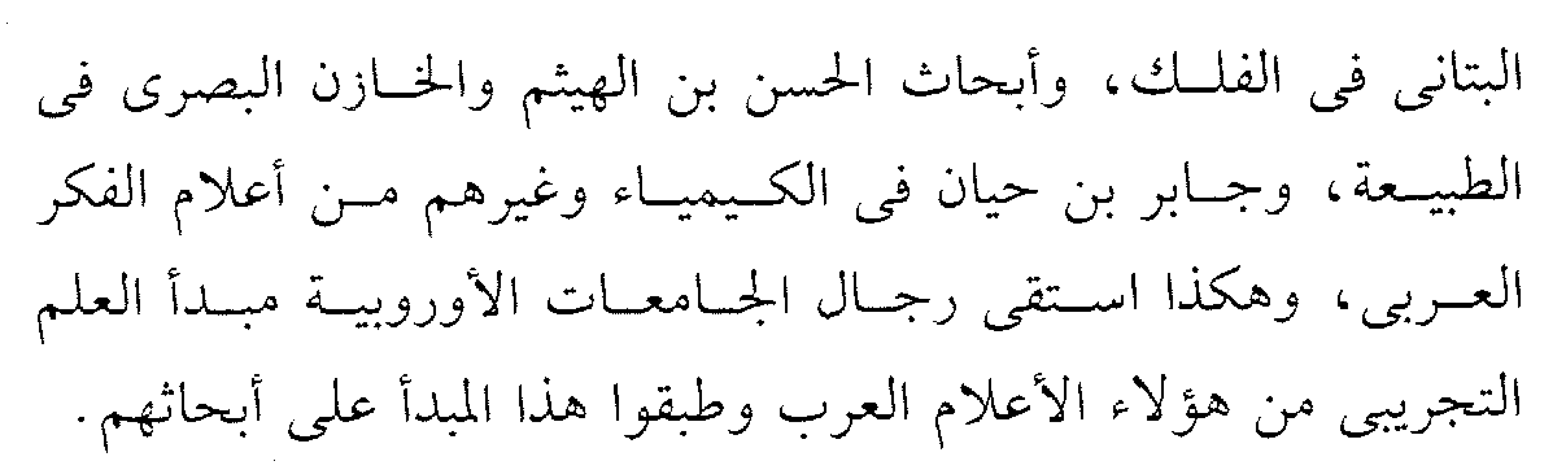


تعليم الموسيقى الكنائسية



سادسا: الطب، شغفت العقلية الإيطالية فى العصور الوسطى بدراسة الطب فاهتم الإيطاليون بها اهتماما كبيرا لا يقل عن اهتمامهم بدراسة القانون، ولم تقتصر العناية بدراسة الطب على جامعة سالرنو فى جنوب إيطاليا، بل امتدت أيضا إلى جامعة بولونا وغيرها من الجامعات الشمالية، ومنها انتقلت إلى مونبلييه وباريس وغيرها من جامعات فرنسا وأسبانيا، ولكن يلاحظ أنه مع أن ممارسة مهنة الطب تجلب الأرباح الطائلة دائما لصاحبها، إلا أن الأطباء لم يصلوا مطلقا فى جامعات العصور الوسطى إلى المستوى الرفيع الذى بلغه رجال القانون؛ لذلك لم تحصل كلية الطب فى بولونا على الامتيازات نفسها التى حصلت عليها كلية القانون؛ أما فى باريس فإن طلبة الطب لم يصلوا إلى المستوى العلمى الرفيع الذى اشتهر به طلبة سالرنو أو مونبلييه، وكان يشترط للحصول على درجة الدكتوراه فى الطب أن يكون الطالب فوق العشرين سنة، وأن يكون قد قضى خمس سنوات فى دراسة كتب الطب المقررة، وملما إلماما كافيا بالفنون الحرة، كذلك اشترطت بعض الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى أن يقضى طالب الطب فترة تمرين عملى تحت إشراف أحد الأساتذة المعروفين لإجازته لدرجة الدكتوراه، أما المراجع التى اعتمد عليها طلبة الجامعات فى دراسة الطب فكانت تشمل أولا مؤلفات اليونان مثل هيبوقرط، ثم مؤلفات قسطنطين الأفريقى وإسحق بن سالم ونيقولا السالرنوى، واستمر ذلك حتى القرن الرابع عشر عندما وصلت إلى الجامعات الأوروبية تراجم كاملة لمؤلفات العرب ـ مثل ابن سينا وابن رشد والرازى وعلى بن العباس ـ وعندئذ أصبحت هذه المؤلفات عماد تدريس الطب فى الجامعات الأوروبية، واستمر بعضها يدرس فى مونبلييه حتى القرن الثامن عشر.

سابعا: الرياضيات والعلوم، فاقت جامعة أكسفورد غيرها من الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى فى اهتمامها بالعلوم والرياضيات، وهناك ظاهرة أخرى غريبة، هى أن الإخوان الرهبان (الفرير) تزعموا العناية بهذا القسم من الدراسات، وبخاصة فرانسكان أكسفورد الذين ظهر منهم بعض علماء ـ مثل جروستست وروجر بيكون ـ ارتبطت أسماؤهم بالنهضة العلمية التى شهدها الجزء الأخير من العصور الوسطى فى أوروبا، وليس هناك من شك فى أن هذه النهضة العلمية قامت على أساس حركة الترجمة العظيمة التى شهدها غرب أوروبا فى القرن الثانى عشر والتى ترتب عليها الإفادة من مؤلفات الخوارزمى فى الحساب والجبر وحساب المثلثات، وكتابات



البتانى فى الفلك، وأبحاث الحسن بن الهيثم والخازن البصرى فى الطبيعة، وجابر بن حيان فى الكيمياء وغيرهم من أعلام الفكر العربى، وهكذا استقى رجال الجامعات الأوروبية مبدأ العلم التجريبى من هؤلاء الأعلام العرب وطبقوا هذا المبدأ على أبحاثهم.

ثامنا: اللغات الشرقية (اليونانية والعبرية والعربية) أدركت بعض الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى أهمية اللغات الشرقية ـ اليونانية والعبرية والعربية ـ فأدخل كثير منها دراسة هذه اللغات فيها منذ القرن الثالث عشر، هذا إلى أن مجمع ڤينا سنة ١٣١١- ١٣١٢ قرر تدريس هذه اللغات الشرقية الثلاث فى خمس جامعات، هى جامعة البلاط البابوى بروما وجامعة باريس وجامعة أكسفورد وجامعة بولونا وجامعة شلمنقة، وعلى الرغم من أن الباعث على هذا التفكير من جانب أحد المجامع الدينية لم يكن علميا وإنما كان كنسيا تبشيريا، إذ استهدفت البابوية تمكين رجال الكنيسة من معرفة هذه اللغات ليتخذوها أداة لنشر المسيحية بين المسلمين واليهود وغيرهم من العناصر غير المسيحية فى أسبانيا والشرق الأوروبى، إلا أنه لا يمكن إغفال أثر تدريسها فى جامعات أوروبا العصور الوسطى.

تاسعا: اللغة الفرنسية، امتاز العصر الذى نشأت فيه الجامعات الأوروبية بظهور بوادر اللغات القومية الحديثة كالفرنسية والإيطالية، ولم يكن لهذه اللغات شأن كبير فى حياة الجامعات فى أول الأمر، إذ ظلت اللغة اللاتينية هى اللغة العالمية المستخدمة فى العلم والتعليم، ولكن لم يلبث بمرور الزمن أن أخذت هذه اللغات الناشئة تنتشر، حتى وجد فى جامعة أكسفورد ـ من المعلمين والمتعلمين ـ من اهتموا فى أواخر العصور الوسطى ـ بدراسة اللغة الفرنسية بوجه خاص، ولا شك فى أن هذه العناية التى أظهرتها أكسفورد نحو لغة أوروبية حديثة لم يكن لها مثيل فى أية جامعة أخرى من جامعات أوروبا فى العصور الوسطى.

عاشرا: الموسيقى، أما الموسيقى فكان لها شأن كبير فى الحياة الأوروبية فى العصور الوسطى لارتباطها بالكنيسة ومباشرة الطقوس الدينية، وقد ظلت الموسيقى الأوروبية شبه بدائية طوال العصور المظلمة، حتى بدأ يظهر فى القرن الثانى عشر نوع من الانسجام والتوافق بين ألحانها، وهكذا أخذت الموسيقى الأوروبية تتقدم فى الشطر الأخير من العصور الوسطى، فارتقت كتابة النوتة الموسيقية، وأصبح فى الإمكان تدوين



مختلف الأصـوات والأنغام ومراعاة التوزيع الموسيـقى على الآلات المختلفة، ولم تكن الجامـعات الأوروبية الناشـئة بمعزل عن هذا الـفن، إذ اهتم بعضهـا بتدريس الموسيـقى ومنح درجات علمية فـيها، ويأتى على رأس هذه الجـامعات جامـعات أسبانيا، ثم جامعة أكسفورد التى منحت الدكتوراه ـ لأول مرة ـ فى الموسيقى، وإن كان حملة هذه الشهادة ظلوا فى العصور الوسطى دون غيرهم من حملة الدكتوراه فى فروع المعرفة الأخرى.



الكتب والمكتبات

من المعروف أن الكتب والمكتـبات تعتـبر دعامة أسـاسية لأية بيـئة علميـة؛ ولذلك احتلت المسائل المتـعلقة بالكتب وتبادلها جـزءا كبيرا من عناية الجـامعات فى العصور الوسـطى، ففرضت رقابتهـا على صناع الرقائق الجلدية التى اسـتخدمت أول الأمر فى الكتابة وعلى المزخـرفين الذين قاموا بتـجليدها، ثم بعد ذلك على تجـار الورق عندما عرفت أوروبا اسـتخدام الورق ـ عن طريق العرب ـ أواخر العـصور الوسطى ـ وكان على صناع الرقـائق وتجارها أن يحضروا بضـاعتهم إلى مكان معين لتحديد أثمانها بواسطة لجنة إشراف مـدير الجامعة، وبعد تحديد أثمان الرقائق المجلوبة تظل فى مكان عام قرب الجامـعة مدة أربع وعشرين ساعة حتى يتمكـن أهل الجامعة ـ من أساتذة وطلبة ـ من شراء حاجتـهم بالتسعيرة، ثم يسمح بعد ذلك بحمل ما تبـقى من البضاعة إلى سوق المدينة لعرضه على عامة المشترين، وفى باريس نجح مدير الجامعة فى فرض ضريبة معينة على تجار الرق تشمل كل مـا يبيعـونه من رقائق فى باريس، وقـد أصبحت هذه الضـريبة مصـدرا هاما من مصادر دخل وظيفة المدير.

أما عن الكتب والمؤلـفات العلميـة، فقد وضـعت الجامعـات نظاما دقيـقا للإشراف عليـها وتبادلها عن طريق الاتجار أو الاستعـارة، ومن الثابت أن الكتب فى أوروبا العصور الوسطى كانت باهظة الأثمان، وقـليلة العدد، ولكنها كـانت أطول عمرا وأكـثر بقـاءً منها اليوم، وإذا كـان تجار الكتب المستـعملة يجنون اليـوم أرباحا طائلة، فـإن هذا الوضع لم يسمع به فى العـصور الوسطى عندما غدا الكتبى بمثـابة وسيط بين البائع والمشترى مقـابل عمولة معينة يتقاضى نصـفها من البائع والنصف الآخر من المشترى، وكذلك فى حالة بيع الكتب الجـديدة كان التاجر يقوم بدور الوسيط بين المشتـرى والناسخ، وقد وجد الكتـبية والنسـاخون موردا ثابتـا لهم فى بولونا؛ لأن نظم هذه



مخطوط من إنجيل «بورى» جامعة كمبردج سنة ١١٤٥ - إنجلترا

الجامعة فرضت على كل أستاذ يلقى محاضرة أن يسلم هذه المحاضرة مكتوبة إلى الموظف المختص بالجامعة ليعطيها بدوره لكتبى يتولى نشرها.

وإذا خالف أستاذ هذا الأمر فإنه يتعرض لغرامة مالية، وفى الوقت نفسه وضعت جامعة بولونا نظاما دقيقا لحماية الطلبة والأساتذة من استغلال تجار الكتب، حتى أنها حرمت بيع أى



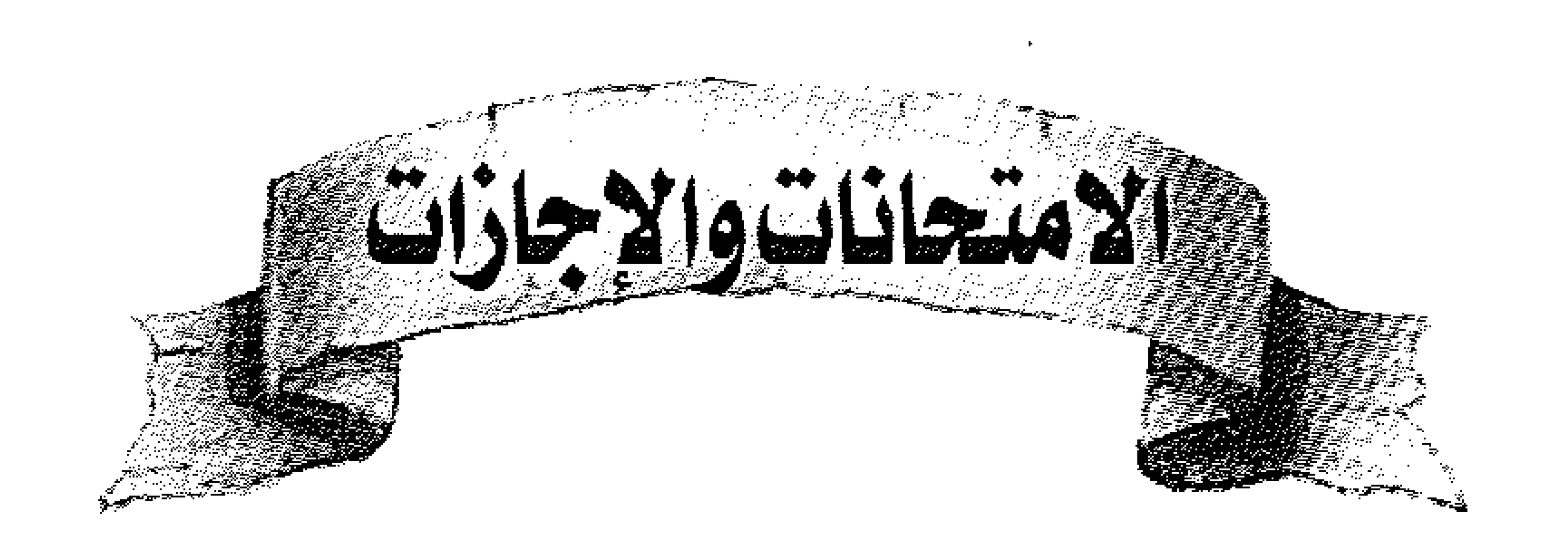
كتـاب يبلغ ثمنا معـينا إلا فى حضور مـسجل الكليـة، أما فى باريس فـقد ألفت الجامعة لجنة من ستة أعضاء مهمتـهم التفتيش على الكتبية والنساخين، فإذا وجدوا نسخة من كتـاب محرفة أو بها أخطاء أجبروا الكتبى على دفع غـرامة مالية، وإذا اشتـرى طالب كتابا أو أستـأجره ووجد به أخطاء فى النـسخ وجب عليه أن يخطر إدارة الجامعة حتى تعاقب الكتبى، وكان على الأساتذة والطلبة أن يقدموا ما لديهم من كتب خاصة عند الطلب لمراجعة الكتب المباعة عليها ومقارنتها بها.

ومن هذا نفهم أن المهمة الأولى للكتبى كانت تأجير الكتب لرجال الجامعة وفق تسعيرة ثابتة وضعتها الجامـعة، فضلا عن بيع الكتب وشرائها، وعلى الرغم من أن كل كتبى احتفظ ببعض النساخين لنسخ الكتـب، إلا أن تجارة الكتب فى العصور الوسطى كانت تدور حول بيع وشراء الكتب المستعملة لا الجديدة، وهكذا قام الكتبية فى تلك العصور بوظائف الناشر والبائع وأمين المكتبة، وفى حالة تأجير كتاب كان لابد للمـستأجر من دفع تأمين للكتبى يسترده عند إعادة الكتاب، وفى جميع الحالات لم يسمح بتداول كـتاب ـ سواء للنسخ أو للقراءة ـ إلا بعد تصحيح ما عسى يكون فيـه من أخطاء، وبعد أن تحدد قيمة الإيجار بواسطـة لجنة من أربعة أساتذة وأربعة كتبية تعينهم الجامعة سنويا، وكان محظورا على أى كتبى أن يتخلص من نسخة معتمدة لديه بالبيع أو أية طريقة أخرى، إلا بعد أن يخطر الجامعة ويحصل على مـوافقتها خوفا من أن يخرج الكتاب من متناول رجال الجامـعة، ولمنع حدوث تواطؤ بين تجار الكتب يقصد به استغـلال المشترين فرض على الكتبيـة ألا يبيعوا كتابا إلى شخص غـريب عن المجتمع الجامعى إلا بعد عـرضه للبيع أولا ـ ولمدة أربعة أيام ـ على طلبة الجامعة وأساتذتها.

وقد اتسـعت تجارة الكتب اتساعا كـبيرا فى المدن الجامـعية فى العصـور الوسطى، حتى أن باريس أصبح فيها سنة ١٣١٣ ثمـانية وعشرون من كبار تجار الكتب المعتمـدين، فضلا عن صغار التجار الذين لم يكن لهـم حوانيت والذين لم يسمح لهم بالتعامل إلا فى الـكتب قليلة الأهمية، ولا شك فى أن الأساتذة فاقوا الطلبة فى شراء الكتب واستئجارها ولكن الطلبة اضطروا أحيانا إلى شراء الكتب، لا سـيما طلبة اللاهوت الذين كـان عليهم أن يحضروا المحـاضرات ومع كل منهم نسـخة من الإنجـيل أو من كـتاب «الأحكام» لبطرس لمـبارد، كـما كـان يجب على طلبـة المنطق والفلسفة أن يحضروا مـحاضراتهم مزودين بنسخة من النص الذى يدرسونه، وقـد فرضت جامعة فيينا عقوبة الطرد على الطالب الذى يحضر المحاضرة دون الكتاب المطلوب.

ولم تعرف الجـامعات الأوروبيـة نظام المكتبات إلا فى القـرن الخامس عشـر، حتى أن هذا القرن يسمى فى أوروبا «عصـر إنشاء المكتبات»، ففى المكتبة يستطـيع طالب العلم أن ينفرد بنفسه بعيدا عن جـو الجدل والمناقشات ليجد بين صـفحات الكتب كثيرا مما يطمع فى الحـصول عليه من

معلومات، وقد أقام همفرى ـ دوق جلوستر ـ مكتبة لجامعة أكسفورد حوالى سنة ١٤٣٧، واحتوت هذه المكتبة كثيرا من المؤلفات التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى، فضلا عن عدد من الكتب الكلاسيكية ـ اليونانية واللاتينية ـ وبعض مؤلفات المفكرين الإيطاليين المعاصرين، ولا شك فى أن هذه كانت المرة الأولى التى يصل فيها شعاع النهضة الإيطالية إلى أكسفورد، مما كان له أثر كبير فى مستقبل النهضة فى بلاد الغرب الأوروبى.



أما عن الامتحانات والإجازات العلمية فى جامعات أوروبا فى العصور الوسطى، فكان لها أهمية كبيرة فى التنظيم الجامعى، وهناك بعض اختلافات فى المراسيم الخاصة بنظم الامتحانات والإجازات بين الكتلتين الكبيرتين اللتين انقسمت إليهما الجامعات فى تلك العصور، الأمر الذى يتطلب منا الكلام على نظم الامتحانات فى بولونا ثم فى باريس، كل جامعة على حدة.

ففى **بولونا** جرى العرف بأن يقوم الطالب بدراسة القانون المدنى خمس سنوات، يسمح له بعدها بأن يحاضر فى موضوع معين من المواضيع القانونية، وهذا التصريح يجعل من الطالب معيدا، وكان المعيد يحاضر أو بمعنى أدق يعيد المحاضرات التى ألقاها الأستاذ ـ مرتين فى الأسبوع؛ وذلك بقصد المران لا بقصد تعليم الطلبة المستمعين، ولما كان هذا النوع من المحاضرات التى يلقيها المعيدون لا تصادف قبولا كثيرا من الطلبة، فقد لجأ بعض المعيدين الطموحين إلى إغراء الطلبة على حضور محاضراتهم بتقديم هدايا أو رشاوى أو قروض لهم، وهنا نلاحظ عدم وجود امتحان رسمى يفرض على الطالب فى بولونا لكى يصبح معيدا، بحيث إن درجة البكالوريوس ـ التى يحصل عليها بوصفه معيدا ـ لم تكن لها أهمية علمية كما كان الحال فى باريس أو أكسفورد.

ويلاحظ فى جامعات العصور الوسطى أن التطابق كان كبيرا بين لقبى «أستاذ» و«دكتور» وفى باريس كان لقب أستاذ هو الغالب فى مختلف الكليات، فى حين كان لقب (دكتور) هو المفضل عند أساتذة القانون فى بولونا، وللحصول على هذه الدرجة فى بولونا كان الطالب يمر بامتحانين: أحدهما خاص والآخر عام، الأول هو الاختبار الحقيقى للوقوف على مقدرة الطالب وكفايته العلمية، فى حين كان الثانى مجرد حفل جامعى شكلى، وقبل أن يسمح للطالب بالتقدم للامتحان الأول يقوم رئيس الرواق الذى يتبعه الطالب بتقديمه لمدير الجامعة ليسمح له بتأدية



الامتحان، وعندئذ يقسم الطالب على أنه مستوفى جميع الشروط وأنه سيدفع الرسوم المقررة للمدير نفسه، كما يتعهد بطاعة المدير، وفى خلال الأسبوع السابق للامتحان يقوم أستاذ الطالب ـ أو أى أستاذ آخر ـ بتقديمه إلى رئيس شمامسة بولونا ـ بوصفه الرئيس الدينى الذى يمنح الدرجات العلمية بتفويض من البابا ـ وعندئذ يشهد الأستاذ أمام رئيس الشمامسة بأن الطالب أهل لدخول الامتحان.

وفى صباح يوم الامتحان يحضر الطالب قداسا فى الكنيسة، ثم يتقدم أمام هيئة الممتحنين الذين يحددون له جزءا من القانون الكنسى أو المدنى حسب تخصصه ـ ليمتحن فيه، وبعد ذلك ينصرف الطالب إلى منزله ليعكف على دراسة الجزء المحدد له ثم يعود فى مساء اليوم نفسه إلى الكاتدرائية ـ أو أى مكان آخر عام فى المدينة ـ حيث يجتمع أساتذة الجامعة برئاسة رئيس الشمامسة لامتحان الطالب، وإن كان دور الأخير سلبيا فى هذا الامتحان. ويبدأ أستاذ الطالب بتقديم تلميذه ثم يقسم الطالب أمام هيئة الأساتذة على احترام هيئة الامتحان وقراراتها، وبعد ذلك يلقى الطالب ملخصا أو عرضا علميا للجزء الذى أعده فى الصباح، ثم يمتحن فى هذا الجزء بواسطة اثنين من الأساتذة يقسمان على أنهما لم يحيطا الطالب علما بالأسئلة التى سيوجهانها إليه، ولما كان هذا الموقف من المواقف الصعبة، التى يحتاج الطالب فيها إلى قدر من العطف والرعاية فقد وضع نص فى لائحة بولونا يطلب من الممتحن أن يعامل الطالب «كما يعامل ولده»، وعند نهاية الامتحان يؤخذ رأى الممتحنين عن طريق الاقتراع السرى، فإذا أيدت الطالب أغلبية الأصوات اعتبر ناجحا وقام رئيس الشمامسة بإعلان النتيجة.

وبنجاح الطالب فى هذا الامتحان الخاص يصبح مرخصا، أى حائزا على الرخصة أو الليسانس التى تعطيه حق التدريس الجامعى، ولكنه من الناحية الرسمية لا يصبح أستاذا أو دكتورا إلا بعد أن يتم الامتحان العام الذى يعقد بعد مدة قريبة، هذا وإن كان بعض الطلبة يرغبون فى تأجيل هذا الامتحان العام بسبب كثرة نفقاته التى لا يتحملها الفقراء منهم، والواقع، إن فكرة هذا الامتحان العام ـ سواء فى الجامعات الإيطالية أو جامعات شمال أوروبا ـ مستمدة من مبدأ معروف فى القانون الرومانى وهو تقليد الشخص مهام وظيفته الجديدة فى حفل عام، فضلا عما فى ذلك من اعتراف هيئة التدريس بهذا الزميل الجديد؛ لذلك تجلت فى هذا الامتحان العام حب العقلية الأوروبية بوجه عام ـ والإيطالية بوجه خاص ـ لمظاهر الأبهة والفخامة، فقبل اليوم المحدد للاحتفال يطوف الطالب بأنحاء المدينة لدعوة الموظفين العموميين وأصدقائه الشخصيين لحضور الحفل. ويكون الطالب فى طوافه للقيام بهذه المهمة راكبا فى موكب كبير يتقدمه معاونو رئيس الشمامسة وفى يوم الحفل يخرج الطالب إلى الكاتدرائية يصحبه أستاذه وزملاؤه وسط دق الطبول ونفخ الزمور، وفى الكاتدرائية ينتقى الطالب بحثا فى موضوع تخصصه ويدافع عن وجهة نظره



أمام مجموعة من زملائه يمثلون دور المعارضين؛ وبذلك يقوم الطالب - لأول مرة - بدور الأستاذ فى مناقشة علمـية، وبعد ذلك يلقى رئيس الشمامسة كلمة يخـتتمها بإعطاء الطالب حق تدريس القانون المدنى أو الكنسى - أو كليهـما - حسب حالته، وذلك بتفويض من البابا وباسم الثالوث المقدس، وعندما يتسلم الطالب شعار مهنة التدريـس الجامعى يجلـس فى كرسى الأستـاذية وبيده كـتاب مـؤرخ مفـتوح فى القانون، ثم يضع أسـتاذه خاتما ذهـبيا فى إصبعه ويصـافحه ويقـبله قبلة الأبوة، وهكذا ينتهى الحفل العام فينصرف الدكتور الجديد فى موكب كبير يحيط به زملاؤه وأصدقاؤه وسط دق الطبول ونفخ الزمور.

وإن نظرة نلقيها على نـظم النقابات التجارية والمهنية فى العصور الـوسطى لتصور لنا مدى التشابه الشـديد بين الحفلات التى كانت تحـييها هذه النقابات عند قـبول عضو جديد فـيها، وبين الحفل الجامعى السابق لقبول عضو جديد فى هيئة التدريس - أو نقابة الأساتذة.

ففى كلتا الحالتين كان على العضو الجديد أن يدفع ثمن قبوله فى الهيئة الجديدة، وكان المتبع فى أول الأمر أن يرسل الدكتور الجديد بعض الهدايا والثـياب إلى الأساتذة والمعاونين وغيرهم من الموظفين الرسميين الذين أسهموا فى الاحتفال به، ولكن هذه الهدايا اتخذت بعد ذلك صفة نقدية مالية، وإن كانت بعض الأقمشة من نوع معين تقدم أيضا لفريق من الناس، وبالإضافة إلى الرسوم المقررة، كان عـلى العضو الجديد أن يقـدم بعض الهدايا - مثل قفـازين وقلنسوة وبعض الحلوى - لكل أستاذ من أعضاء الهيئة التى انضم إليها والتى قبلته عضوا فيها، فضلا عن رئيس الشمامسة.

ولكن لا شك فى أن الغرامـة الكبرى التى كـان يتحملهـا الزميل الجديد هى الوليـمة التى فرض عليـه أن يولمها لزملائه وأصـدقائه، وقد غـالى البعض فى هذا النوع من الحفـلات حتى أن الطلبة الأغنياء كـانوا يقيمون بهذه المناسبة حـفلات للمبارزة، كما كان يطلـب منهم فى الجامعات الأسبانية إقامة حـفل لمصارعة الثيران، وخير ما يصور لنا عظم النفقـات التى كان يتحملها الخريج فى هذه الحفـلات أن مجمع ڤيينا أصدر قـانونا بألا تزيد نفـقات الحفلـة فيهـا على ثلاثة آلاف صلدى، ولم تدخل فى هذا المبلـغ الرشاوى العـديدة التى كان الطالـب مضطرا لتـقديمـها قـبل الامتحان.

أما فى **باريس** فكان لابد من امتحان الطالب لدرجة البكالوريوس، وهى الدرجة التى تجعل منه معيـدا يقوم بقسط معـين فى إعادة المحاضرات التى يلقـيها الأساتذة، فإذا اجـتاز الطالب هذا الامتحان حصل على البكالوريوس، وهى شهادة أوليـة يحصل عليها الطالب من رئيس رواقه بعد أن يقـسم يمـين الطاعـة لمدير الجامعـة، دون أن يكون لأمـين الكاتدرائيـة أى دور فى منح هذه الدرجة.



وعندما يسمح للمعيد بإلقاء دروس يدفع للأستاذ مبلغا من المال مقابل قيامه بإلقـاء محاضـراته فى مدرسـة الأستـاذ، وبذلك يتمكن الأخـير من جمـع إيجار المدرسة السنوى عن هذا الطريق، وتعتبر هذه المرحلة هامة جدا بالنسبة للمعيد، إذ يحرص على كسب سمعة طيبة وجذب أكـبر عدد ممكن من المستمعين، ليس فقط من بين الطلبـة بل أيضـا من رجال الدين أو المارة بالـطريق، كمـا يحاول إغـراء المستمعين على البقاء لسـماعه بتقديم النبيذ والحلوى لهم، وفى هذه الأثناء يواصل المعيد استعداده للحصـول على الليسانس أو إجازة التدريس، حتى إذا انقضى على تسجيله بالجامعة خمس سنوات أو ست فإنه يستـطيع أن يتقدم لامتحان الليسانس بشرط أن يكون بلغ العشرين من عمره.

وكان هذا الامتحان الخاص بالليسانس ـ أو إجازة التدريس ـ محور خلاف طويل فى جامعة باريس بين أمين الكاتدرائيـة ورابطة الأساتذة، لتمـسك كل من الطرفين بحقه فى الإشـراف عليه ومنح الشهادة الخاصة به، وفيما يتعلق بكلية الآداب كان الامتحان يتم فى أول الأمر بواسطة أمين الكاتدرائية أو مندوبه وأربـعة من الأساتذة المختـصين، ولكن سرعـان ما تضاءل الدور الشـخصى الذى يقدم به أمـين الكاتدرائية فى هذا الامـتحان وأصـبح يكفى أن تقوم لجنة من أسـاتذة الكلية بامتحان طلبـة الليسانس، وبعد ذلك يرسل الناجحون إلى أمين الـكاتدرائية لإجازتهم، وفى اليوم المحدد للاحتفال بمنح درجات الليسانس للطلبة الناجحين يتقدم هؤلاء الطلاب فى زيهم الأكاديمى على هيئة مـوكب يتجه من دير ماتورين إلى الكاتدرائيـة أو إلى دير القديسة جنيفيف، يصـحبهم مدير الجامعة ورؤساء الأروقة ويسبقهم مـعاونو الكليات وهناك يقدمون إلى أمين الكاتدرائية واحدا بعد آخر فيتسلمون منه إجازة الليـسانس باسم الثالوث المقدس، على أن الحصول على هذه الدرجة لا يعنى أن صاحبها قـد أصبح أستاذا فعلا إلا بعد أن يتم قبوله فـى رابطة هيئة التدريس، وكانت عملية القبول هذه تتم فى حفل عام يعقد بعد ستة أشهر من الحفل الأول.

وفى هذه الفترة يحضر صاحب الليسانس أمام مجلس الرواق الذى ينتمى إليه ليحصل على موافقة الرواق على هذه الخطوة، وعندئذ يقسم الطالب على طاعة المدير وكليته ورواقه وأن يحترم نظم الجامعـة، أما الإجراءات الخاصة بالحـفل العام فتشبـه تلك التى رأيناها فى بولونا، سواء فى مظاهرها أو نفقاتها الباهظة.

ونخرج مما سبق بأن الامتحانات والحصول على الدرجات العلمية كانت من المسائل الباهظة التكاليف فى جامعات العـصور الوسطى، بسبب كثرة نفقات الحفـلات والهدايا والرشاوى وغيرها من الأعباء، هذا بالإضـافة إلى ارتفاع قيمة الرسـوم التى كان على الطالب أن يقدمها للجـامعة؛



للحصول على درجة علمية، وقد حاولت اللوائح الجامعية فى أواخر العصور الوسطى تحديد الرسوم التى يدفعها الطالب للحصول على درجة علمية، ولكن حتى مع هذا التحديد ظلت رسوم الامتحان الجامعى باهظة تفوق طاقة الكثيرين، وحسبنا أن مجمع ڤيينا سنة ١٣١١ قرر ألا تزيد الرسوم التى يدفعها الطالب للحصول على الليسانس على ثلاثة آلاف فرنك بأى حال من الأحوال!

وبمراجعة سجلات الجامعات فى العصور الوسطى اتضح أنه من بين الطلبة الذين يسجلون كل عام بالجامعة لا يصل إلى درجة البكالوريوس إلا نسبة لا تتعدى النصف، ونصف هؤلاء الأخيرين هم الذين يستطيعون الوصول إلى درجة الليسانس، ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك حرمان الطلبة الكسالى من دخول الامتحانات بناء على تعليمات من أساتذتهم.

هذا مع ملاحظة أن التساهل فى منح الدرجات العلمية ـ وهى آفة عمت منها الشكوى فى كل عصر ـ أخذ يزداد وضوحا فى الجامعات الأوروبية فى القرن الخامس عشر، وكثيرا ما وجهت تهمة التساهل هذه إلى أساتذة باريس، كما وجهت التهمة إلى أساتذة جامعة ليبزج حوالى منتصف القرن الخامس عشر بإفشاء سر الأسئلة للممتحنين قبل الامتحان، وإذا كانت طبقة النبلاء والأثرياء قد تمتعت بنفوذ كبير وامتيازات واسعة امتدت إلى مختلف أركان المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى، فإن هذه الامتيازات لم تلبث أن تطرقت إلى الجامعة، فأصبح لأبناء النبلاء امتيازات خاصة وإعفاءات من بعض الامتحانات الجامعية، وكانت جامعة كمبردج هى آخر جامعة أوروبية تخلصت من هذه الامتيازات فى العصور الحديثة.

وأخيرا ينبغى الإشارة إلى أن الامتحانات فى جامعات أوروبا فى العصور الوسطى تضمنت ركنا هاما عن لياقة الطالب من الناحية الخلقية، وعن مسلكه أثناء الدراسة ذلك أن الدرجة العلمية لم تكن مجرد شهادة بأن الطالب اجتاز امتحانا معينا، وإنما كانت بمثابة تصريح له بمباشرة مهنة جديدة، مما تطلب التأكد من حسن سيره وسلوكه وهكذا حدث فى جامعة ڤينا سنة ١٤٤٩ أن تقدم ثلاثة وأربعون طالبا للحصول على إجازة الليسانس، فاستبعد منهم سبعة عشر، بعضهم لإساءة الأدب أثناء الحديث مع أساتذتهم، وبعضهم لعدم مراعاة أصول الزى الأكاديمى، وبعضهم لاتهامهم بالمقامرة والتشاجر المسلح، وغير ذلك من الأسباب التى لا تمت للمستوى العلمى بصلة.



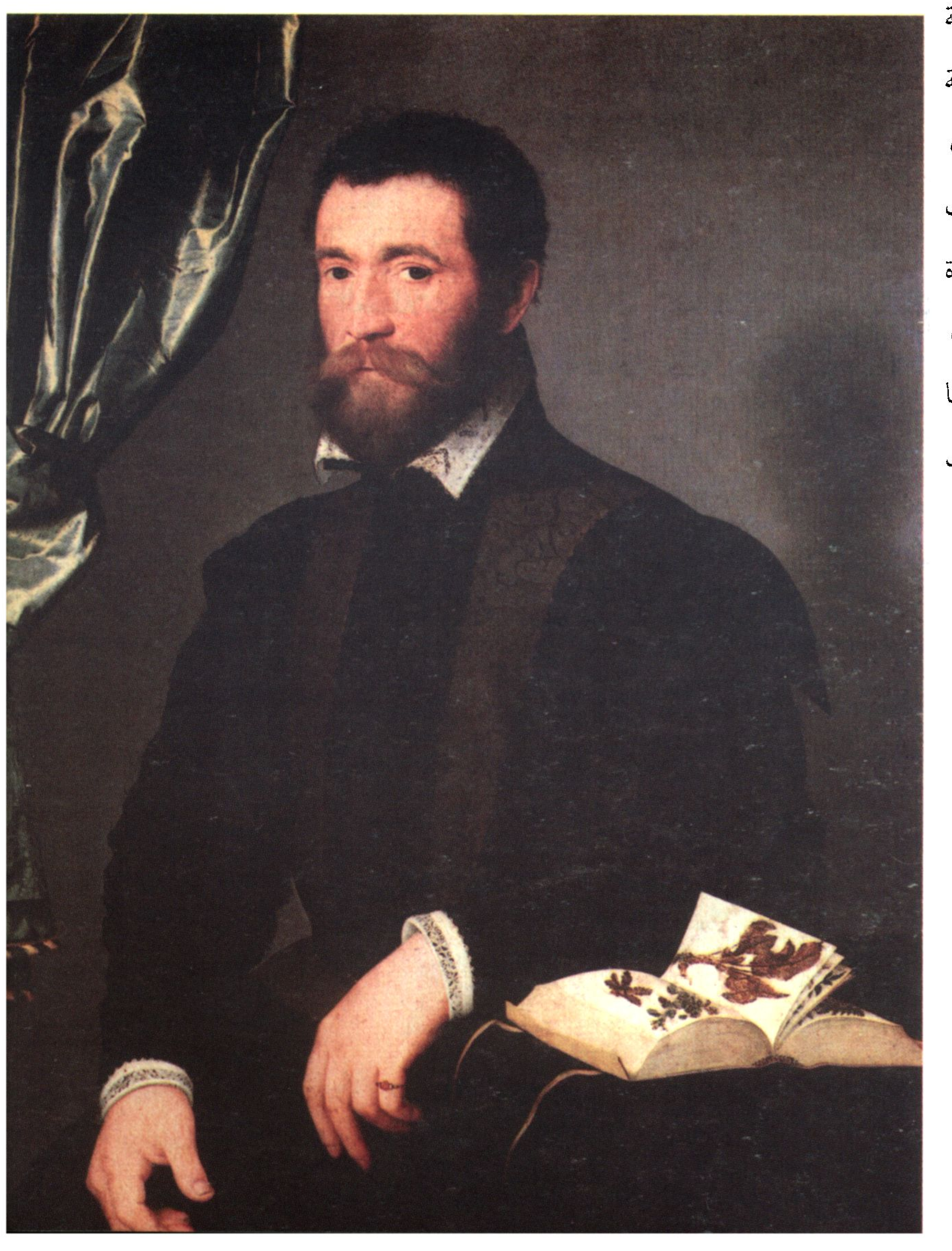


فرضت الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى زيا أكاديميا خاصا على طلابها، ففى الجامعات الإيطالية حتمت اللوائح أن يرتدى الطلبة عباءة سوداء (Cappa)، أما فى جامعة باريس فكان المفروض أن يكون الطلبة من رجال الدين، لارتباط الجامعة ونشاطها بالكنيسة، ومن ثم فرض العرف ـ أو فرضت اللائحة ـ على الطلبة أن يرتدوا رداء القساوسة ويحلقوا رءوسهم على طريقتهم، ونجد كثيرا من اللوائح الجامعية فى العصور الوسطى تحرم بعض الأوضاع الخاصة بالملبس كالأكمام الواسعة والأحذية المدببة والجوارب الملونة، وغيرها من المظاهر التى اعتبرها المعاصرون خروجا عن حدود اللياقة والحشمة، بل إن بعض الجامعات حرمت على طلبتها أن يركبوا فى طريقهم إلى الجامعة أو أن يحتفظ

زى الطالب يظهر
فى لوحة

أحدهم بفرس، وإن سمح لهم بالاحتفاظ ببغال، ولم تكتف لوائح الجامعات بتحديد الحد الأقصى لثمن الملابس التى يجوز للطالب أن يرتديها، بل فرضت غرامات مالية كبيرة وعقوبات مشددة على المخالفين.

أما الأساتذة فكانت لهم عباءات أو أرواب خاصة بهم، بحيث حرم عليهم الظهور بدونها فى أى حفل جامعى أو مناسبة عامة، وكان المفروض فى هذه الأرواب أن تكون سوداء، ولكنها حليت فى القرن الرابع عشر ببعض الأشرطة الحمراء، أما غطاء الرأس بالنسبة للأساتذة فكان قلنسوة من الفراء السنجابى أو الصوف أو غيرها حسب اختلاف مكانة الأستاذ العلمية، وعند نهاية القرن الرابع عشر أخذ الأساتذة يستبدلون بالقلنسوة الثقيلة المصنوعة من الفراء أخرى خفيفة مصنوعة من الحرير، وذلك خلال فصل الصيف ولم يقتصر ارتداء القلنسوة الجامعية على الأساتذة، وإنما شمل الخريجين أيضا فضلا عن رؤساء اتحادات الطلبة.



زى الأساتذة - وكتاب فى العلوم الطبيعية - باريس سنة ١٥٦٢

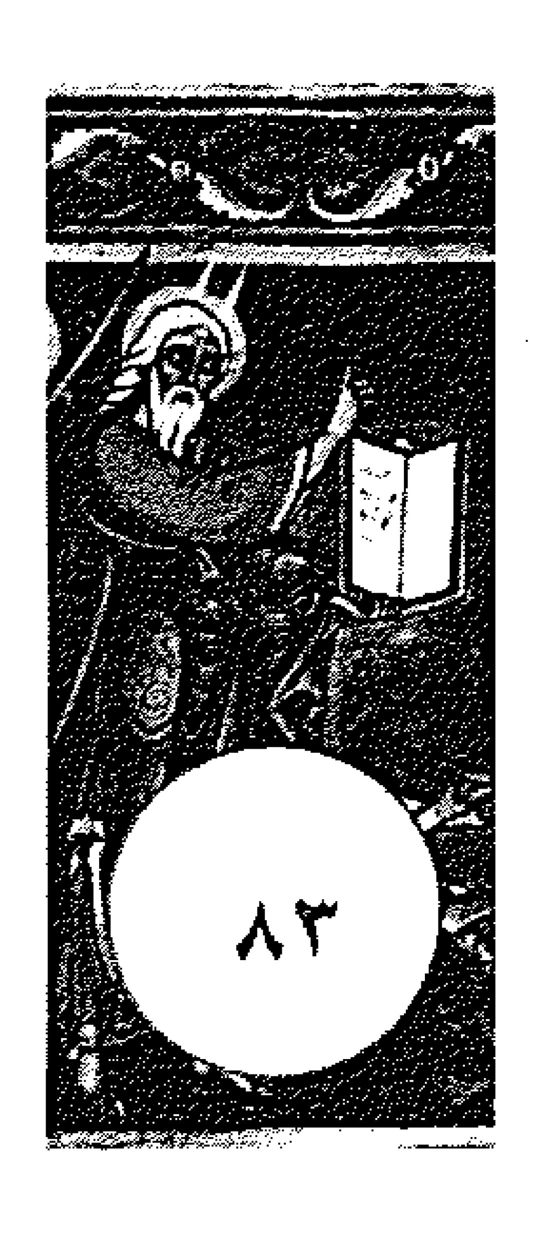
٨٢



العطلات

تمتعت جامعة باريس فى العصور الوسطى بعطلة صيفية طويلة كانت تبدأ من ٢٨ يونية وتستمر فى كلية الآداب حتى ٢٥ أغسطس، وفى كليتى اللاهوت والقانون الكنسى حتى ١٥ سبتمبر، وقد أمر البابا جريجورى التاسع بألا تزيد العطلة الصيفية فى جامعة باريس عن شهر واحد، ولكن احتجاجات البابوية المتكررة لم تفلح فى وقف الاتجاه الذى ساد الجامعات الشمالية نحو التمتع بعطلة صيفية طويلة، أما فى بولونا فكانت الدراسة تبدأ يوم ١٩ أكتوبر وتستمر حتى نهاية الأسبوع الأول من سبتمبر، ومعنى ذلك أن جامعة بولونا لم تحظ بالعطلة السنوية الطويلة التى تمتعت بها الجامعات الشمالية وعلى رأسها باريس وأكسفورد.

وبالإضافة إلى العطلة السنوية وجدت أعياد دينية عطلت فيها الدراسة فى جميع الجامعات الغربية، وأهم هذه العطلات عطلة الاحتفال برأس السنة وكانت تستمر عشرة أيام، وعطلة عيد الفصح وتستمر أسبوعين، فضلا عن أعياد الكارنفال وكانت تمتد ثلاثة أسابيع، كذلك تمتعت جامعة بولونا بيومين عطلة بمناسبة أسبوع العنصر، وذلك بدلا من العطلة القصيرة التى تمتعت بها بقية الجامعات الإيطالية فى أوائل مايو. وفيما عدا ذلك فقد تقرر فى كثير من جامعات العصور الوسطى أن يكون يوم الخميس من كل أسبوع يوم عطلة، وذلك إن لم يحدث أثناء الأسبوع حفل جامعى يستدعى تعطيل الدراسة فى يوم آخر غير يوم الخميس.

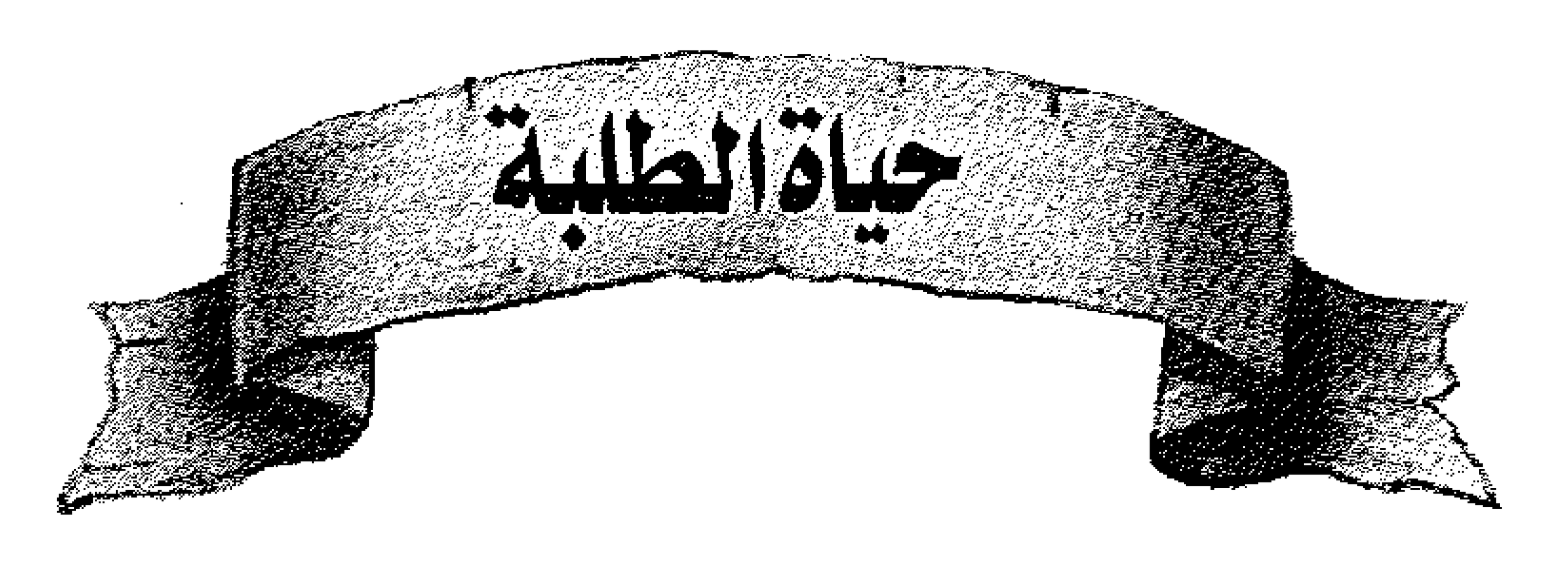




ربما تصور البعض أن الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى لم تضم إلا أعدادا صغيرة محدودة من الطلبة، وذلك إذا قارنا هذه الأعداد بالآلاف التى تستوعبها الجامعات الحديثة اليوم، ولكن إذا تذكرنا أن المدن الأوروبية نفسها ظلت حتى نهاية العصور الوسطى محدودة المساحة والسكان، وأن هذه المدن لم تضم فى المتوسط سوى بضعة آلاف من الأفراد، فإنه يتضح لنا أن الجامعات الأوروبية غدت فى العصور الوسطى قوة كبيرة بفضل جموع الطلبة الذين استوعبتهم.

وقد بلغ متوسط عدد الطلاب فى كل من جامعتى باريس وبولونا فى العصور الوسطى ستة آلاف طالب، أما أكسفورد فكان أقصى ما بلغه عدد طلابها فى العصور الوسطى ثلاثة آلاف طالب، فى حين بلغ عددهم فى براغ - قبل هجرة الألمان سنة ١٤٠٩ - ألف وخمسمائة طالب. أما بقية الجامعات الألمانية فلم يزد طلاب إحداها على ألف ولم يقل عن ثمانين، ومثل ذلك يقال عن الجامعات الأسبانية وبقية الجامعات الفرنسية والإيطالية.

وجرت العادة بأن يتجمع الطلبة الأغراب فى المدينة الجامعية فى منطقة واحدة تكون بمثابة حى للطلبة، وذلك بقصد سلامة الطلبة من ناحية، وحماية الأمن العام فى المدينة من ناحية أخرى، وهكذا أخذنا نسمع عن الحى اللاتينى فى باريس - الذى ما زال قائما حتى اليوم - وعن أحياء مشابهة فى بقية المدن الجامعية، وقد نصت البراءة الخاصة بإنشاء جامعة ڤيينا على أن يحاط حى الطلبة فيها بسور قوى لتحقيق الأغراض السابقة.



اختلفت السن التى يتقدم فيها الطالب للالتحاق بإحدى الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، وإن كان يبدو أن هذه السن تراوحت فى معظم الأحيان بين الثالثة عشرة والسادسة

عشرة، وامتاز طلاب القانون بوجه عام بأنهم كانوا أكبر سنا من طلاب الدراسات الأخرى نتيجة لأن الدراسات القانونية تتطلب شيئا من الإدراك والنضج.

وينبغى أن نذكر عند الكلام على حياة طلبة الجامعات فى العصور الوسطى أن هؤلاء الطلبة كانوا يعيشون فى ظروف غير ملائمة واختلفت اختلافا واضحا عما يشعر به طلبة الجامعات الحديثة اليوم من أمن واستقرار وتوافر المعدات اللازمة لمواصلة حياتهم العلمية فى يسر وسهولة، فكان الطالب فى العصور الوسطى يخرج من بلدته فى سن مبكرة ويسلك طرقا غير آمنة مليئة بالمصاعب والأخطار حتى يصل إلى باريس أو بولونا أو أكسفورد .. وعندئذ يبدأ فى إعداد نفسه للحياة وسط بيئة جديدة صعبة لممارسة حياة جديدة.

السهرات فى العصور الوسطى



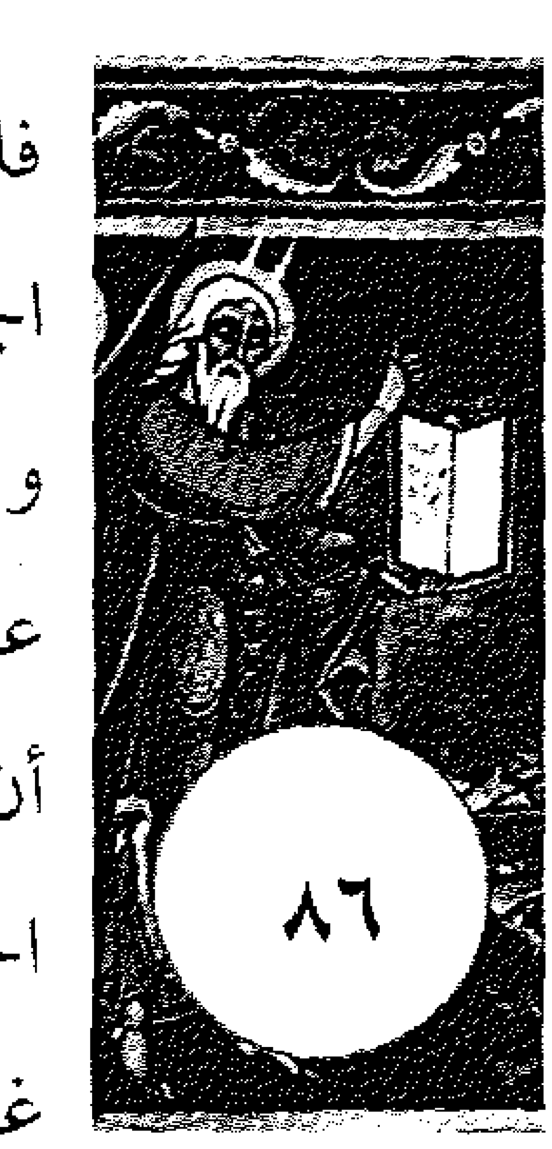


فإذا قبل الطالب بالجامعة فإنه كان لا يجبر على الالتحاق بفرع معين أو التتلمذ على أستاذ محدد، وإنما تترك له الحرية فى اختيار نوع الدراسة والأستاذ، كما سمح له بالحضور ثلاثة أيام لدى الأستاذ الذى يختاره، حتى إذا ما أعجبه شرحه وعلمه دفع المصروفات الجامعية، أما بخصوص إقامته فلم يكن الطالب المغترب ملزما فى أول الأمر - مهما كان حديث السن - بأن ينزل تحت إشراف أحد الأساتذة، وإنما صار له مطلق الخيار فى اختيار السكن الذى يلائمه فى المدينة، أو أن يشترك مع زملائه فى استئجار دار أو نزل ينزلون جميعهم فيه.

ويبدو أن مشكلة المساكن وارتفاع الإيجارات كانت من المشاكل الأساسية التى واجهت طلبة الجامعات فى العصور الوسطى، حتى جرى الوضع فى المدن الجامعية منذ زمن مبكر على أن تقوم لجنة مشتركة من طلبة الجامعات وأساتذتها من ناحية وأهالى المدينة من ناحية أخرى بتحديد قيمة إيجارات المساكن التى يشغلها الطلبة، وفى سنة ١١٨٩ أصدر البابا كلمنت الثالث مرسوما يحظر على الأساتذة والطلاب أن يعرضوا على أى مالك أجرا لمسكنه يفوق الأجر الذى يدفعه زميل لهم يشغل المسكن فعلا، حتى لا يذهب الطلبة الفقراء ضحية الأغنياء، فإذا نزلت مجموعة من الطلاب فى نزل فإن العرف جرى بأن يختاروا أحدهم ليتولى رئاسة الدار على أن يتمتع بنوع من السلطان على زملائه، وكان يختار لهذه الرئاسة فى أول الأمر أقدم الطلبة النازلين فى الدار ثم أصبح يراعى فيه أن يكون معيدا - أى من حملة البكالوريوس - حتى وجدت الجامعات أنه من الضرورى تحقيق نوع من الإشراف على الطلبة فى حياتهم الخاصة فاشترطت أن يشرف على كل نزل أستاذ من أساتذة الجامعة.

وهكذا تطور الأمر حتى فرضت الجامعات على الطلبة المغتربين أن ينزلوا فى نزل يرأسها أساتذة، ووضعت لهذه النزل بعض التنظيمات بحيث إن الطالب الذى يطرد من أحدها لا يقبل فى آخر، كما حرم على الطلبة أن يبقوا خارج النزل بعد الثامنة أو التاسعة مساء، وعندئذ يغلق باب النزل الخارجى ولا يفتح إلا فى الصباح ولم يحرم الطلبة من تناول الخمور فى النزل ولكنهم منعوا من اصطحاب نساء مشبوهات داخل النزل فإذا تكرر ذلك من أحد الطلبة ثلاث مرات يفصل بعد إنذاره.

أما القواعد الأساسية التى وضعت لتنظيم حياة الطلبة فنجد معظمها ينصب على موضوعين: أولهما تحريم حمل السلاح، وثانيهما تحريم المقامرة، أما حمل السلاح فقد نهت عنه المجالس الجامعية، ولكن لما كانت حياة الطلبة فى تلك العصور مهددة بكثير من الأخطار، فقد نصت اللوائح على أنه يجوز للطالب الذى يخشى على نفسه هجوم عدو مفاجئ أن يطلب من الجامعة حمل سلاح بصفة استثنائية، أما التشاجر والسكر والمقامرة فكانت أكثر المساوئ التى

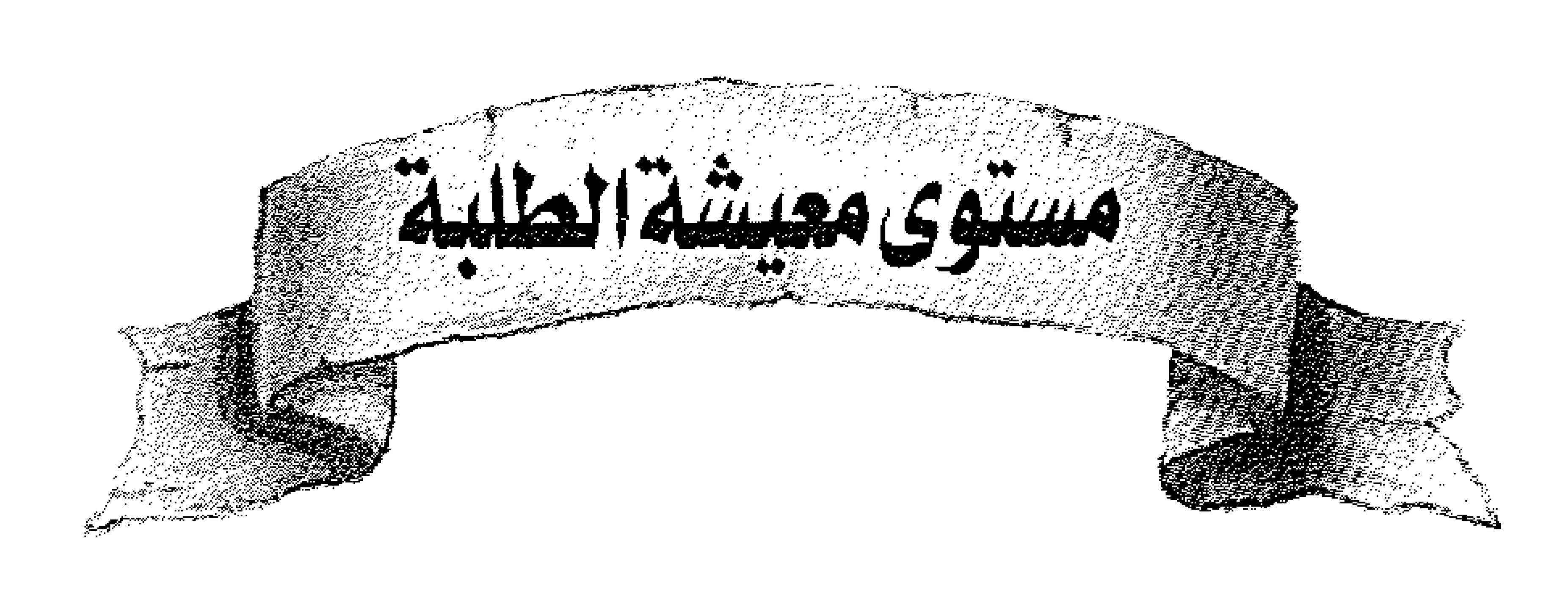


فاضت بها حياة الطلبة فى الجـامعات فى العصور الوسطى؛ لذلك فرضت اللوائح الجامعية عقوبات مشددة، لا على لاعبى القمار فحسب ـ بل على المتفرجين أيضا، ولـم تعبأ الجامعات الأوروبية فى أول الأمر ـ حتى القرن الثالث عشر ـ بفرض قيود على حرية الطلبة بقـصد حفظ النظام وتأديب الخارجيـن عليه، وكل ما هنالك هو أن الطلبة الخارجين على القوانين المدنية والكنسيـة كانوا يعاقبون بالسجن أو بعقوبة الحرمان، فى حين عوقب المخالفون للوائح الجامـعية بالحرمان من الكنيسة أو بدفع غرامات مالية، ولكن لم تلبث أن أخذت اللوائح الجامعية تهتم ـ بعد ذلك ـ بالحد من عبث العـابثين ومؤاخذة المخالفـين بالشدة وتوقيع بعض العـقوبات البدنية عليـهم، فضلا عن الطرد من الجامعة، وهناك تعـريفة طريفة للغرامات التى فرضتها بـعض لوائح الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى على الطلبة المخـالفين، تفاوتت فيها قيمة الغرامـة حسب أهمية الذنب، فإذا أمسك الطالب حجرا بنية قذف أستاذه به حكم عليـه بغرامة بسيطة، وإذا ألقى الحجر على الأستاذ فعلا ولكنه لم يصبه ازدادت قيمة الغرامة، أما إذا أصابه فإن الغرامة تكون فادحة!.

أما عن البـرنامج اليومى لطلبـة الجامعـة فى العصـور الوسطى، فيلاحظ أنـه لم يوجد فى اللوائح الجـامعيـة ما ينص على ضـرورة حضور الطـلبة صلاة الصـباح فى الكنيـسة قـبل دخول المحاضـرة الأولى، ولم يكن ذلك إلا فى القرن الخامس عـشر عندما نصت لـوائح بعض الكليات على ذلك، وكانت أولى محاضرات الصباح تبدأ فى السـاعة السادسة صباحا فى فصل الصيف أو السابعة فى فصل الشتاء، ويبدو أن هذه المحاضرة كانت تستمر مدة طويلة حتى أنها كانت تستغرق فى بعض الأحيان ثلاث ساعات.

وقد اعـتبرت وجـبة الإفطار نوعـا من الترف لا ضرورة له؛ ولذلك كـان الطلاب يتناولون وجبتين فى اليوم الواحـد، إحداهما وجبة الغذاء أو الوجبة الأولى فى الساعة التـاسعة أو العاشرة صباحا والأخرى وجبة العشاء أو الوجبة الثانية وكانت فى الخامسة مساء ومعنى ذلك أن الفترة بين السادسة والعاشرة صباحا كانت أنشط فتـرات الدراسة، وبعد أن يتناول الطلبة وجبة الغذاء يقضون بعض الوقت فى الحـديث والراحة، ثم تستـأنف المحاضرات مـرة أخرى فى الثـانية عشـرة ظهرا لتستـمر حتى وقت العشـاء فى الخامسة مسـاء، وبعد العشاء تأتى فـترة الاستجـمام والترويح عن النفس، وفيهـا ينساب الطلبة فى شوارع المدينة حتى الثـامنة أو التاسعة مساء يمـرحون ويشربون، وفى الوقت المحدد يعود الطلبة إلى نزلهم ليستأنفوا اسـتذكار دروسهم ويواصلوا المناقشات العلمية فيما بينهم.



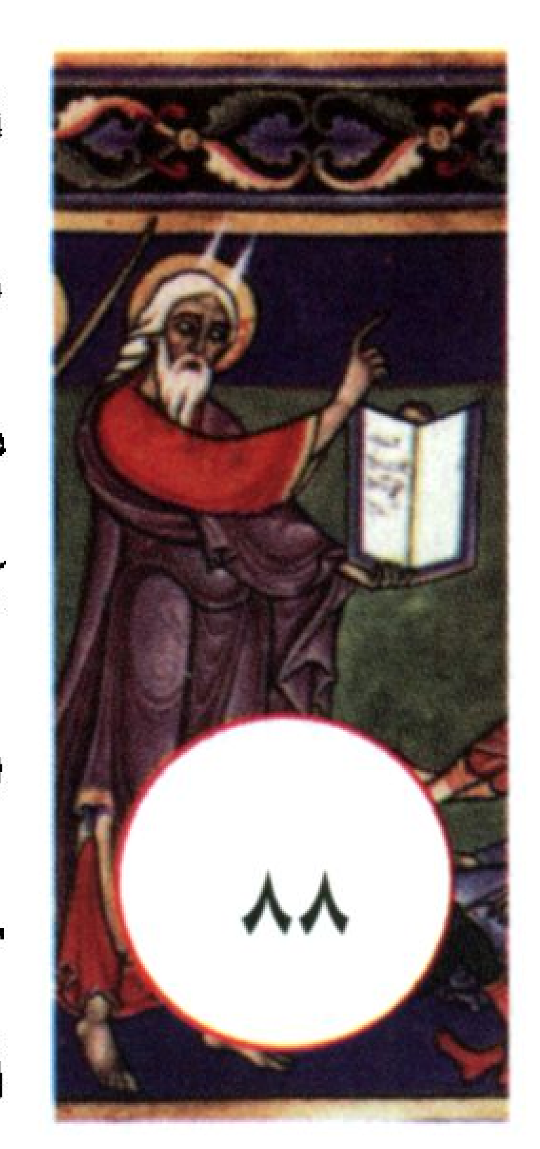


مستوى معيشة الطلبة

جرى بعض الكتاب على المبالغة فى انخفاض مستوى معيشة طلبة الجامعات فى أوروبا فى العصور الوسطى، لا سيما ذلك الفريق من الطلبة الذين ضمتهم بعض المؤسسات الخيرية أو الكليات المنزلية، والحقيقة أن الطلبة الجامعيين فى أوروبا فى العصور الوسطى انتموا إلى جميع طبقات المجتمع، مع استثناء أحط هذه الطبقات ـ لا أفقرها؛ لذلك اختلف مستوى معيشة الطلبة اختلافا بينا نتيجة لاختلاف المركز الاجتماعى للطالب، فهناك طائفة من أبناء النبلاء والأمراء، وهؤلاء استمروا يعيشون فى البيئة الجامعية الجديدة نفس المعيشة التى اعتادوها فى قصورهم أو حصونهم فينزل الواحد منهم فى نزل خاص به أو مع مجموعة من أبناء طبقته ومع طائفة من الخدم والحراس يعنون بشئونه، وهناك من ناحية أخرى الطالب الفقير المعدم الذى اضطر إلى الاستجداء ليعيش أو إلى العمل فى خدمة الغير للحصول على ما يساعده فى مواصلة حياته الجامعية.

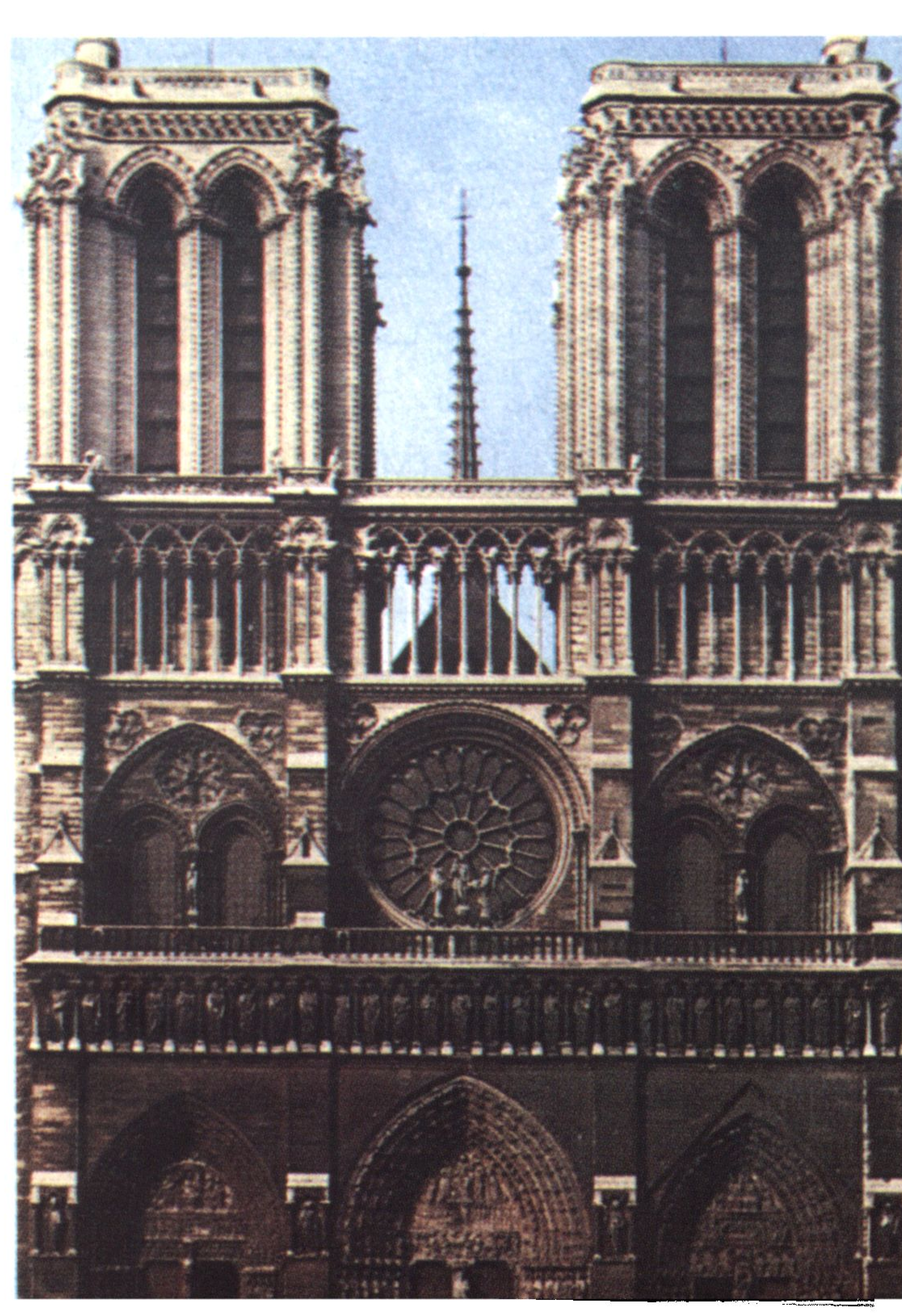
وقد وجدت فى ڤيينا بعض نزل للطلاب يقوم نزلاؤها بالتسول بانتظام فى أوقات معينة على أن توضع حصيلة ما يجمعونه فى صندوق عام ينفق منه عليهم جميعا، بل وجدت كذلك فى بعض الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى تراخيص بالتسول يمنحها أمين الكاتدرائية أو مدير الجامعة للطلبة الفقراء حتى يتمكنوا من الحصول على مقومات الحياة، ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى أن سنة التسول والشحاذة التى استنها الرهبان الفقراء (Mendicants) جعلت احتراف التسول فى تلك العصور من المهن المقبولة نسبيا، حتى أصبح كثير من الناس فى البلاد الأوروبية يأنفون من العمل فى الفلاحة ولا يأنفون من التسول، هذا إلى أن تسول الطلبة اتخذ طابعا دينيا يشبه تسول الراهب، حتى اعتبر المعاصرون الإحسان إلى طالب مقابل الدعاء للمحسن بالثواب لا يقل أثرا وأهمية عن تقديم زكاة للكنيسة ورجالها، وكانت الجامعة من جانبها تساعد هؤلاء الطلبة المعوزين عن طريق إعفائهم من جزء من الرسوم المستحقة عليهم، فضلا عن أجور المحاضرات، وفى بعض الأحيان كان يطلب من الطلبة المتمتعين بإعفاءات من رسوم الجامعة ومصروفاتها أن يقسموا على رد الأموال التى دفعتها لهم الجامعة، وذلك «إذا تيسرت أحوالهم فى المستقبل».

ولكننا يجب أن ندرك جيدا أن هؤلاء الطلبة الفقراء لم يكونوا سوى نسبة ضئيلة من طلاب الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، ومثلهم فى قلة العدد أيضا كان الطلبة الأغنياء، أما الأغلبية الساحقة من طلبة الجامعات فى تلك العصور فكانوا فى حالة اجتماعية بعيدة عن الفقر



المدقع والغنى الفاحش، أى كانوا فى وضع اجتماعى متوسط بين هذا وذاك، ونقصد بهذا الفريق الطبقة المتوسطة من أبناء الفرسان والملوك والتجار والميسورين من أرباب الحرف، فضلا عن طلاب العلم من رجال الدين، كذلك وجدت نسبة كبيرة من طلبة الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى لم ينفق عليهم أهلهم، وإنما تعهدهم بالرعاية ونهض بمصاريف تعليمهم بعض رؤساء الأديرة والأساقفة لما لمسوه فيهم من مواهب واستعدادات طيبة، ومن هذا الفريق طلبة الكليات المنزلية التى سنتكلم عنها بعد قليل.

وهكذا يبدو أنه إذا كانت الحوليات المعاصرة قد أفاضت فى أخبار الطلبة الفقراء وما كانوا يعانونه فى سبيل تحصيل العلم فى الجامعات، حتى قيل: إن مجموعة واحدة من الطلبة كانوا لا يمتلكون سوى عباءة واحدة يتبادلونها لحضور المحاضرات، فإنه يبدو من المبالغة أن نطبق هذا الوضع على جميع طلبة الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، فعلى الرغم من صعوبة تموين مدينة جامعية تضم بضع مئات أو آلاف من الطلبة فى تلك العصور التى عرفت بسوء المواصلات، إلا أنه من المرجح أن غالبية طلبة الجامعات كانوا يتناولون اللحم مرتين يوميا مع قدر كاف من الجعة أو النبيذ، بحيث تراوح متوسط مصروف طالب الجامعة فى أوروبا فى العصور الوسطى بين شلنين وأربع شلنات أسبوعيا، وهو مبلغ لا بأس به نسبيا فى ذلك الوقت، ويلاحظ ـ بوجه عام ـ أن مستوى معيشة الطلبة فى الجامعات الإيطالية فاق المستوى الذى كان عليه طلبة بقية الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى.



واجهة كاتدرائية نوتردام



الكليات

أدى احتشاد أعداد كبيرة من الطلبة الأحداث والشبان فى المدن الجامعية إلى كثير من المفاسد، حتى اتضح للجامعات أنه لابد من فرض رقابة على الطلبة لا سيما إذا كانوا أغرابا يعيشون فى مكان ضيق بعيدين عن ذويهم، ولم يلبث أن ازداد هذا الشعور بضرورة فرض رقابة على حياة الطلبة فى باريس بالذات، حيث امتاز طلبة الآداب بحداثة سنهم، بخلاف طلبة القانون فى بولونا الأكبر سناً وأكثر اتزانا.

كلية السوربون (رسم)



وقد رأينا كيف كانت مشكلة توفير المساكن المناسبة إحدى المشاكل الأساسية التى واجهت الطلبة المغتربين فى المدن الجامعية، وكيف أنهم تغلبوا على هذه المشكلة باشتراك كل مجموعة فى استئجار نزل خاص بهم تحت رئاسة أكبرهم أو أقدمهم، حتى انتقلت هذه الرئاسة إلى أحد أساتذة الجامعة، ولكن هذا الحل لم يكن ناجعا بالنسبة للطلبة الفقراء الذين لم يستطيعوا المساهمة مع غيرهم فى مصاريف الإقامة بنزل خاص، وبالتالى لم يكن أمامهم سوى التسول أو الانقطاع عن العلم، ولمساعدة هذا الفريق من الطلبة فكر بعض الخيرين فى إنشاء ملاجئ أو نزل خاصة أطلق عليها اسم كليات أو مجمعات (Colleges) وخصصت لإيوائهم ومساعدتهم على مواصلة حياة العلم، وهنا نلاحظ أن هذه المؤسسات أو الكليات لم تأت بتعديل جديد على نظم الدراسة فى أول الأمر، فلم يعبأ مؤسسوها بالتيارات الثقافية الجديدة التى صحبت ازدهار الجامعات الأوروبية، وإنما اهتموا فقط بألا يتمتع بحق الإقامة فيها إلا الطلبة المحتاجون المعروفون بالجد وطيب الخلق.

وقد شهدت باريس فى أواخر القرن الثانى عشر أولى هذه الكليات المنزلية، عندما مر بباريس سنة ١١٨٠ جوكيوس اللندنى (jocius de londoniis) فى طريق عودته من بيت المقدس، فأشفق على طلبة العلم الغرباء الفقراء، واشترى لهم حجرة فى منزل قريب من نوتردام خصصها لإيواء ثمانية عشر طالبا فقيرا، ومن ذلك الوقت أخذت تظهر فى باريس مؤسسات من هذا النوع الغرض منها إيواء الطلبة المساكين، على أنه يلاحظ أن هذه المؤسسات أو الكليات التى ظهرت فى باريس فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر كانت خاصة برجال الدين من طلبة اللاهوت، وساعد على انتشار هذا النوع من المؤسسات إقبال منظمات الرهبان الفقراء من الدومينكان والسترشيان على المشاركة فى الحياة الجامعية الجديدة، مما جعل هذه المنظمات تقوم فى أوائل القرن الثالث عشر بإنشاء كليات من هذا النوع لتوفير أسباب الحياة للطلبة الرهبان، على أن تستمد هذه الكليات إعاناتها من الأديرة التابعة لها.

على أن أهم الكليات التى أسست فى باريس كانت كلية السوربون (La Sor-bonne) التى أقامها روبرت السوربونى سنة ١٢٥٧ لإيواء ستة عشر طالبا من طلبة اللاهوت، ولم تلبث هذه المؤسسة أن اتسعت بفضل ما قدمه لها الخيرون من مساعدات وتبرعات حتى غدت تضم ستة وثلاثين طالبا، وقام بتقديم هذه التبرعات بعض كبار المعاصرين مثل لويس التاسع وروبرت جيوفرى، كما سمحت البابوية بجمع تبرعات لهذا الغرض فى الكنائس، أما إدارة مؤسسة السوربون والإشراف عليها، فقد عهد بها إلى هيئة مؤلفة من رئيس شمامسة باريس وأمين كاتدرئيتها وأساتذة اللاهوت واثنين من عمداء الكليات، فضلا عن مدير الجامعة ورؤساء أروقتها،



ويلاحظ أن معظم الكليات المنزلية التى أسست فى القرن الثالث عشر خصصت لإيواء طلبة اللاهوت والآداب دون غيرهم من طلبة الدراسات الأخرى؛ ذلك أنه من المعروف أن مهنتى الطب والقانون من المهن المربحة التى أقبل عليها القادرون من الطلبة، وهؤلاء لم يكونوا غالبا فى حاجة إلى مساعدة؛ ولذلك لم تؤسس كليات لطلبة القانون أو الطب إلا فى القليل النادر، أما طلبة اللاهوت والآداب فكان معظمهم فى حاجة ماسة إلى مساعدة مثل هذه المؤسسات نظرا لحداثتهم من ناحية وفقرهم من ناحية أخرى.

ولم يلبث أن انتشر نظام الكليات لإيواء الطلبة الفقراء فى بقية المدن الجامعية فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا وغيرها من البلاد الشمالية، ويلاحظ أن الغالبية العظمى من مؤسسى هذه الكليات كانوا من الأساقفة وكبار رجال الكنيسة أو غيرهم من الخيرين الذين غلبت عليهم نزعة التقوى والرغبة فى التقرب إلى الله عن طريق مساعدة الطلبة الفقراء على تلقى دروسهم، ففى بولونا أسست أولى الكليات سنة ١٢٦٧، أسسها أسقف أڤينون لإيواء ثمانية من الطلاب الفقراء الذين ينتمون إلى أسقفيته، بشرط أن يكون ثلاثة منهم من طلاب القانون الكنسى، وفى سنة ١٣٢٦ أسس رئيس شمامسة بولونا كلية برشيا لإيواء فقراء طلبة برشيا الذين يدرسون فى بولونا، كذلك أسس أهالى رجيو الأثرياء كلية أخرى فى بولونا سنة ١٣٦٢ لإيواء طلبة رجيو، على أن أول كلية أسست فى بولونا على نمط مشابه للكليات المألوفة فى الجامعات الشمالية كانت كلية أسبانيا التى أسسها أحد الكرادلة الأسبان، وكانت هذه الكلية نموذجا للكثير من الكليات الأخرى التى قامت فى إيطاليا وأسبانيا، كما يمكن اعتبارها نموذجا لنظام الكليات الجامعية فى العصور الوسطى، الأمر الذى يتطلب منا الكلام على نظامها فى شىء من التفصيل.

ذلك أن لائحة هذه الكلية نصت على أن تضم ثلاثين طالبا، ثمانية من طلاب اللاهوت وأربعة من طلبة الطب والباقى من طلبة القانون الكنسى، وكان المفروض أن يتمتع الطالب بحقه فى الإقامة بالكلية لمد سبع سنوات، على أن يختار الطلبة الصالحين لذلك من مختلف الأسقفيات الأسبانية وفق نسبة خاصة وضعها المؤسس، وثمة شروط أخرى اشترط الموصى توافرها فى الطلبة الذين يمنحون حق الإقامة بهذه الكلية أهمها أن يكونوا فقراء متفوقين، «على الأقل فى النحو» فإذا استوفى الطالب هذه الشروط ونجح فى الامتحان الذى يعقد لاختيار المتقدمين فإنه كان يقيم بالكلية المدة المقررة ويتمتع بامتيازاتها كاملة، أما هذه الامتيازات فتشمل الغذاء والكساء والمسكن، ففى الغذاء كان يصرف لكل طالب يوميا رطل من اللحم البقرى الجيد مع قدر كاف من البقول، على أن يتناول الطالب الجزء الأكبر من هذا التعيين فى وجبة الغذاء ثم يأخذ الباقى فى وجبة العشاء، أما النبيذ والملح والخبز فكانت تصرف للطلبة وفق رغبتهم، مع ملاحظة أخذ رأى مدير

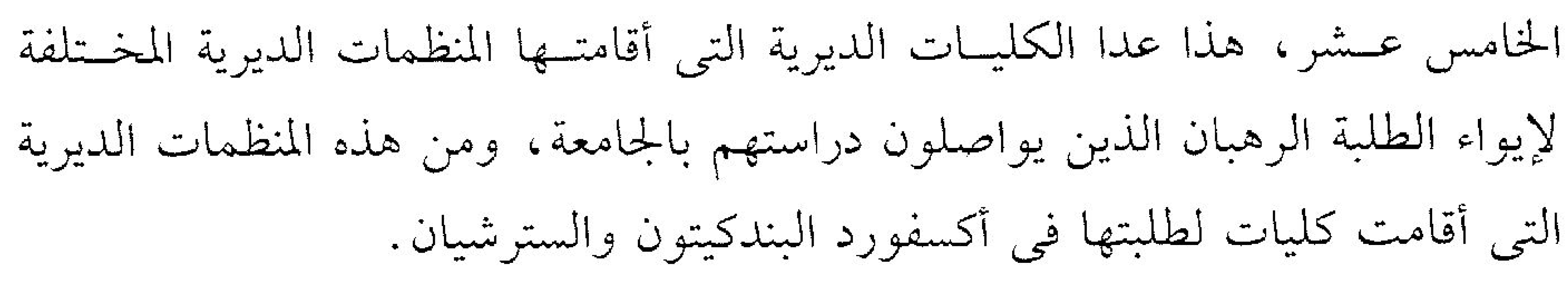


الكلية عند صرف النبيذ، وللمدير أن يستبدل جزءا من المبلغ المخصص للحم فى شراء الفاكهة، وتضاعف كمية اللحم فى أيام الأعياد، فى حين يستبدل بالأصناف السابقة البيض والسمك فى أيام الصيام، أما الملبس فكان يصرف لكل طالب عند بداية فصل الخريف عباءة جامعية مبطنة بجلد الأغنام وأخرى غير مبطنة، فضلا عن قلنسوة من نفس النوع واللون المصنوعة منه العباءة، هذا كله بالإضافة إلى مبلغ سنوى يعطى لكل طالب لشراء ما يلزمه من شموع وسراويل وأحذية وغيرها من الضروريات.

فإذا انتقلنا إلى التنظيم الداخلى للكلية، فإننا نجد أنها تدار بطريقة ديمقراطية تشبه تلك السائدة فى بولونا، فالطلبة دون الثامنة عشرة كانوا محرومين من حق التصويت، مثلما كان الحال فى كثير من الجامعات، أما مدير الكلية فكان ينتخب سنويا بطريق الاقتراع السرى، وكان يشترط فيه هو الآخر أن يكون على الأقل فى الرابعة والعشرين من عمره ومن رجال الدين، وكان يعاونه فى مهمته بعض مساعدين ينتخبون بالطريقة نفسها، ولكن كان لابد من الحصول على موافقة جميع أعضاء الكلية فى المسائل الهامة، مثل تلك المتعلقة بممتلكات الكلية، وعاش الطلبة داخل الكلية على هيئة مجموعات تألفت كل مجموعة من ثلاثة أو أكثر يقيمون فى غرفة تحت إشراف أحدهم، أما الأثاث فكان بسيطا لا يتعدى فراشا ومقعدا ومنضدة لكل منهم، وفى بعض الحالات كان يخصص فراش واحد لكل طالبين إذا كان سنهما دون الخامسة عشرة.

على أن كثيرا من نظم الكلية امتاز بالصرامة والشدة، فكانت هناك كنيسة صغيرة ملحقة بالكلية ينبغى أن يقوم طلبة الكلية بالصلاة فيها مرتين يوميا، كما اشترط مؤسس الكلية على الطلبة النازلين فيها ضرورة المواظبة على الدرس والمثابرة على التحصيل وحضور المحاضرات، وإلا تعرضوا للغرامة والطرد، فإذا سهر الطالب خارج كليته ولم يعد إليها فى الوقت المناسب فإنه يعاقب على سلوكه هذا بقضاء يوم على الخبز والماء، وترتفع هذه العقوبة إلى ثلاثة أيام إذا تكرر الخطأ، وفى المرة الثالثة يكون الطالب معرضا للطرد، وأما الطالب الذى يقضى ليلة بأكملها خارج الكلية فإنه يحرم من نصف مصروفه السنوى، فضلا عن قضاء ثلاثة أيام على الخبز والماء، فإذا حاول التسلل ليلا عن طريق إحدى النوافذ فإنه يعاقب على هذه الجريمة بالطرد فورا من الكلية، أما إذا تعدى على زميله بالضرب فإن أقل عقوبة يعاقب بها هى وضع قدميه فى قيد حديدى لمدة خمسة أيام، لا يتناول فى يوم منها إلا الخبز والماء، وتضاعف هذه العقوبة إذا كانت تعديه مصحوبا بإراقة دماء أو إذا قام بتحريض الغير على الشجار والاعتداء.

أما فى إنجلترا فقد أنشأت أول كلية فى أكسفورد لإيواء الطلبة الفقراء ومساعدتهم سنة ١٢٦٣، ثم أخذت هذه الكلية المنزلية تتكاثر بعد ذلك حتى بلغت أكثر من عشر كليات فى القرن





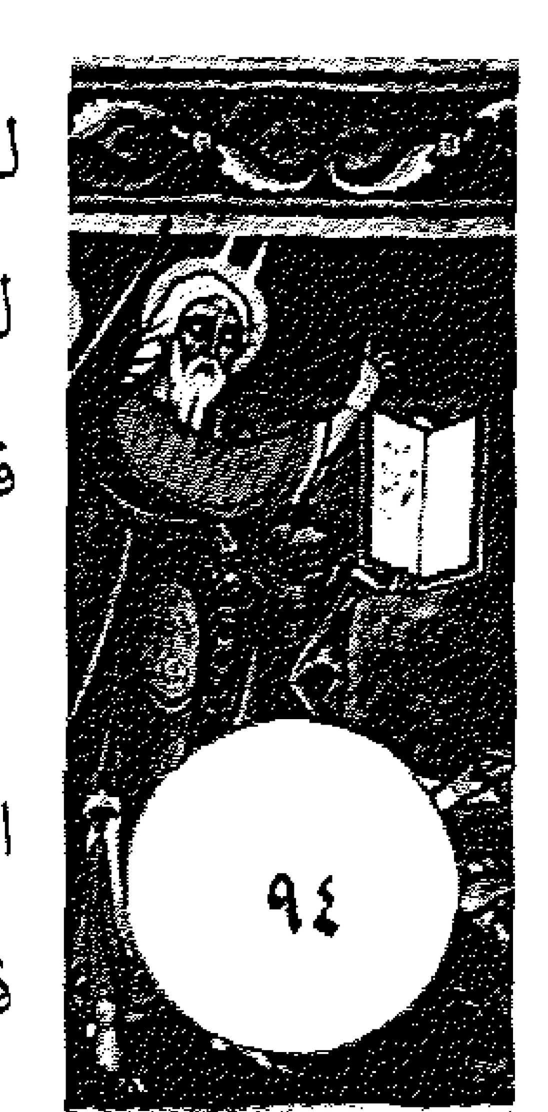
الخامس عشر، هذا عدا الكليات الديرية التى أقامتها المنظمات الديرية المختلفة لإيواء الطلبة الرهبان الذين يواصلون دراستهم بالجامعة، ومن هذه المنظمات الديرية التى أقامت كليات لطلبتها فى أكسفورد البندكيتون والسترشيان.

وكان مؤسسو هذه الكليات يحددون غالبا النظام الذى تسير عليه الكلية وعدد الطلبة الذين يقبلون فيها وفرع المعرفة الذى يتخصص فيه كل منهم، فكلية إكستر مثلا - التى أسسها والتر أسقف إكستر سنة ١٣١٤ ووقف عليها بعض الممتلكات ذات الإيراد الثابت - خصصها لينزل فيها اثنا عشر طالبا من مقاطعة إكستر لدراسة الآداب وطالب واحد لدراسة القانون الكنسى أو اللاهوت.

كذلك شهدت كمبردج نظام الكليات لإيواء الطلبة ومساعدتهم، وكانت أولى الكليات التى قامت فيها هى كلية بترهاوس (بيت بطرس) سنة ١٢٨٤، ولم تلبث أن تكاثرت الكليات المنزلية فى كمبردج حتى زاد عددها عند نهاية القرن الخامس عشر على اثنتى عشرة كلية.

ولم يلبث نظام الكليات أن أحدث ثورة فى الحياة الجامعية؛ لأنه أوجد صلة جديدة بين الأستاذ وتلميذه، فالطالب الذى حصل على منحة ليعيش فى إحدى الكليات، لم يعد حرا فى تصرفاته وإنما صار مقيدا بشروط الكلية ونظمها فيقضى وقته داخل الكلية ليعيد دروسه ويستذكرها، ولا يسمح له بمغادرتها إلا فى أوقات محددة، هذا إلى أن الكلية كانت تحت إشراف مدير أكبر سنا وأقوى شخصية من رئيس النزل العادى الذى يستأجره بعض الطلبة للإقامة فيه، وسرعان ما اختار بعض الأهالى القادرين أن ينزل أبناؤهم فى الكليات لضمان الإشراف عليهم ووضعهم تحت رقابة فعالة، وكان ذلك سنة ١٣١١ عندما نصت لائحة كلية هاركورت بباريس على أنه لرئيس الكلية الحق فى قبول أى طالب - مهما كان البلد الذى ينتمى إليه - ما دام هذا الطالب يتعهد بدفع نفقات إقامته وإيجار الغرفة التى يشغلها فى الكلية.

وكان الأساتذة المشرفون على الكليات يوجهون الطلبة النازلين فيها علميا واجتماعيا، فالطلبة الذين يحضرون أثناء النهار سويا محاضرة واحدة يجتمعون فى كليتهم مساء ليدرسوا ما سمعوه من أساتذتهم، وعندئذ يقوم أقواهم ذاكرة وأحسنهم عرضا بإعادة سرد المحاضرة على زملائه، وإذا كانت كليات باريس قد امتازت بإشراف الأساتذة على الطلبة وتوجيههم علميا، فإن كليات أكسفورد كان ينقصها مثل هذا الإشراف العلمى فى أول الأمر؛ لأن رئيس الكلية فيها كان مكتفا بإدارة شئونها ورعاية مصالحها المالية فحسب دون أن يتدخل فى النشاط العلمى، ولكن حدث عندما أسس وليم وكهام - أسقف ونشستر - الكلية الجديدة New College سنة ١٣٧٩ أن حرص على استكمال هذا النقص فى كليات أكسفورد لا عن طريق تكليف رئيس الكلية بالتدريس



للطلبة، كما كان الحال فى باريس، وإنما عن طريق تكليف قدامى الطلبة بالتدريس لصغارهم مقابل منح إضافية، وكانت هذه الدروس - التى يستمع إليها طلبة الكلية فى المساء - مكملة للمحاضرات التى يتلقونها فى الجامعة أثناء النهار.

وبذلك يكون وكهام قد أدخل نظام الرواد (المثقفين) Tutors فى الكليات الإنجليزية، وهو النظام الذى قدر له أن يلعب دورا كبيرا فى الجامعات الإنجليزية فيما بعد.

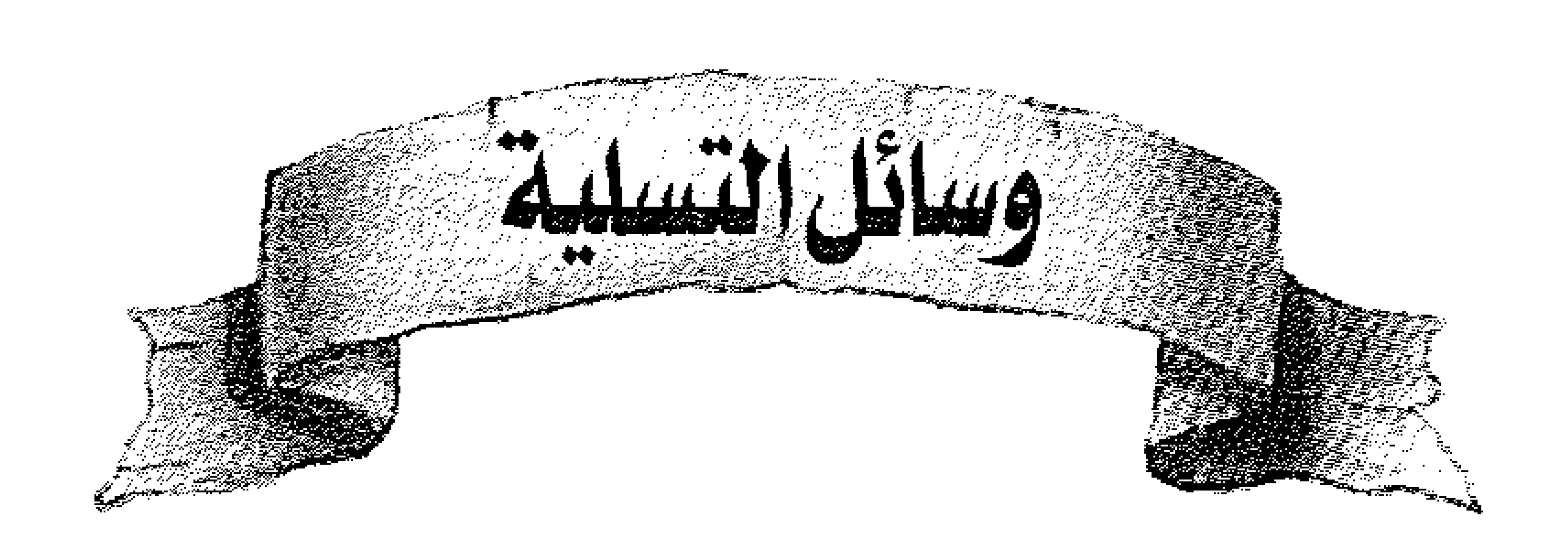
وسرعان ما دعت الحاجة إلى قيام مكتبات خاصة فى الكليات يرجع إليها الطلاب عند استذكار دروسهم، وهكذا أخذت تزداد الصفة العلمية للكلية المنزلية، حتى بدأ أساتذة اللاهوت يحاضرون فى كلية السوربون فى القرن الخامس عشر، ثم تبعهم غيرهم من أساتذة الكليات الأخرى تدريجيا، وبذلك أخذت تتحول الكلية من مجرد نزل لإيواء الطلبة إلى معاهد علمية عليا تابعة للجامعة لها أساتذتها وطلابها ونظمها، مما يعتبر ثورة كبرى فى تاريخ الجامعات.

وإذا كانت الكليات قد مرت بهذه الأدوار الطويلة قبل أن تتخذ صفتها العلمية الحديثة، فإن هذا الوضع اقتصر على البلاد الأوروبية التى نشأت فيها الجامعات فى وقت مبكر، أما فى ألمانيا - حيث جاءت نشأة الجامعات متأخرة نسبيا - فإن الكليات لم تظهر مستقلة فى أول أمرها عن الجامعات، كما كان الحال فى باريس أو بولونا أو أكسفورد ، وإنما قامت الكليات فى ألمانيا بقصد إمداد الجامعات بحاجاتها من المدرسين، وقد نشأت كثير من الكليات الألمانية مع الجامعة فى وقت واحد، بمعنى أن إنشاء الكلية كان جزءا من الخطة العامة الخاصة بإنشاء الجامعة؛ لذلك ظلت الكليات الألمانية فى معظم الحالات تحت إشراف إدارة الجامعات، واعتبرت جزءا لا يتجزأ منها، أما



تسلية الطلبة وعزف العود

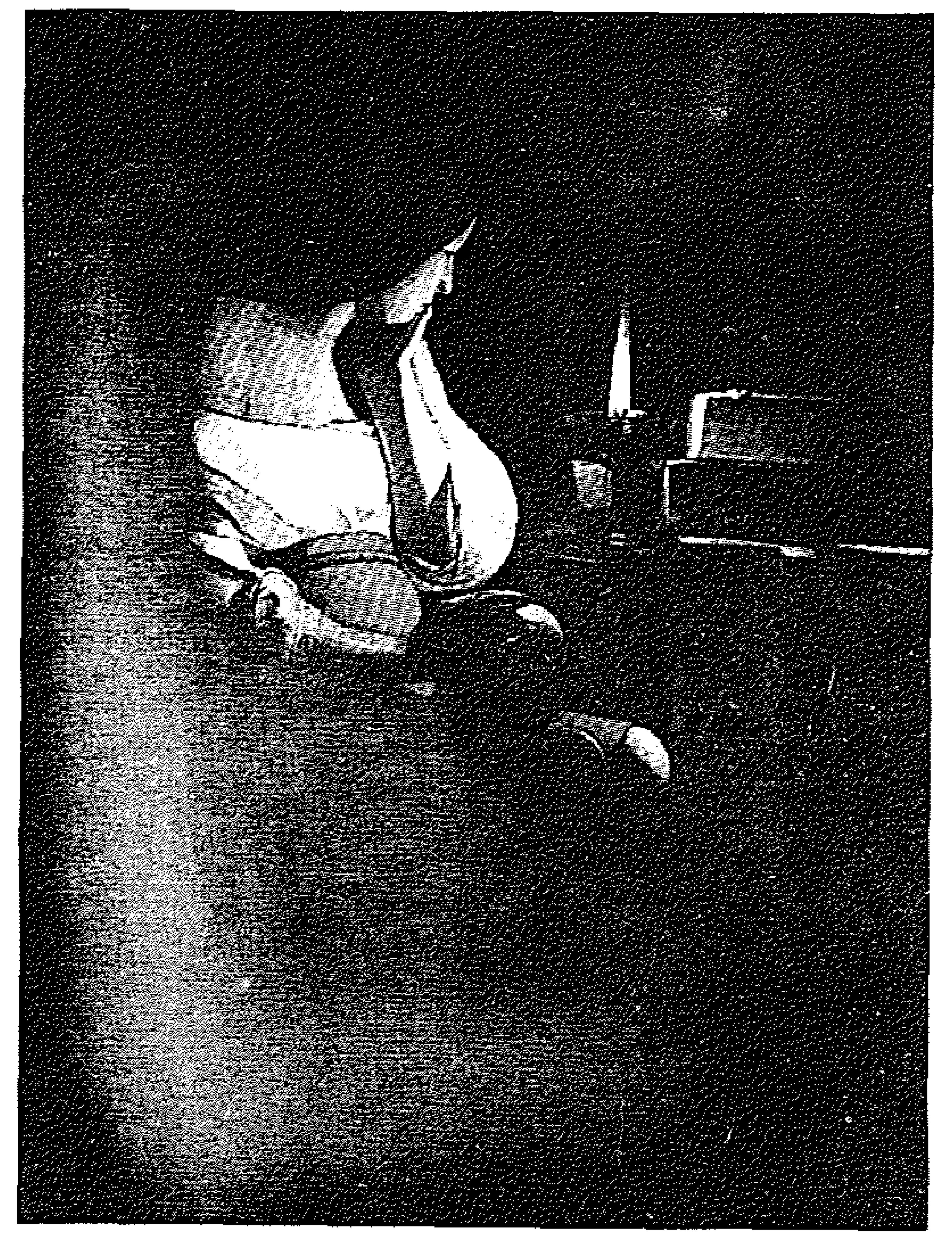
فى باريس بالذات فإن نظام الكليات ظل قائما حتى الثورة الفرنسية، وعندئذ اندثر هذا النظام ليترك خلفه بضعة آثار ـ مبانى أو أسماء ـ تدل عليه مثل السوربون.



وسائل التسلية

خلت الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى من وسائل تسلية يستطيع بها الطلاب أن يرفهوا عن أنفسهم، بل على العكس دأبت اللوائح الجامعية على تحريم وسائل الترفيه عن الطلبة واعتبرت كثيرا من وسائل التسلية جريمة يعاقب عليها، وقد حرمت بعض الجامعات الأوروبية ـ مثل جامعة لاردة ـ على الطلبة دعوة الممثلين أو المهرجين الهزليين إلا فى الأعياد الدينية الهامة مثل عيد الميلاد وعيد الفصح وأسبوع العنصر، أو عند الاحتفال بتوزيع الشهادات العلمية، وحتى فى هذه المناسبات اشترط على الطلبة ألا يقدموا إليهم نقودا وأن يكتفوا بإمدادهم بالطعام مقابل ما يؤدونه من ألعاب، وهكذا نجد أنه من الصعب العثور فى الوثائق المعاصرة على وسيلة من وسائل التسلية صرحت بها الجامعة لطلابها سوى لعب الكرة فى الطريق، والغناء والعزف على العود.

على أن الطلبة ـ ومعظمهم من الشباب ـ لم يعدموا وسيلة يرفهون بها عن أنفسهم، حتى ولو كان فى ذلك مخالفة صريحة للنظم الجامعية، ومن وسائل التسلية التى باشرها طلبة الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى المقامرة والرقص والشراب والعزف على الآلات الموسيقية، ثم لعب الشطرنج، وجميع هذه الألوان حرمتها اللوائح الجامعة فى تلك العصور واعتبرتها أداة لإفساد الأخلاق وصرف الطلبة عن العلم فضلا عن إخلالها بالنظام، وثمة نوع من الشعر انتشر بين طلبة الجامعات فى العصور الوسطى، واتخذوه وسيلة للترويح عن أنفسهم من عناء العمل، ونقصد به الشعر الغنائى المعروف باسم الجليارى (Goliardie) وهو الشعر الذى يمتاز بالفكاهة والطرافة وخفة



درس الطب على الشموع – لوحة للفنان كارافاچيو.. عصر النهضة

الروح، مع الابتكار والتنوع، ويدور موضوع هذه الأشعار حول الغناء والرقص والنساء والشراب، فضلا عن التهكم على رجال الدين الأثرياء والمقارنة بينهم وبين طلبة العلم الفقراء.



وقرب نهاية القرن الخامس عشر أخذ بعض طلاب الكليات الجامعية يقومون بتمثيليات، وهى التمثيليات التى كان لها أثر واضح فى نشأة الدراما الحديثة فى كل من فرنسا وإنجلترا، وتعبر هذه التمثيليات فى مجموعها عن الاتصال الذى أخذ يحدث فى أواخر العصور الوسطى بين الثقافة الأكاديمية والأدب الشعبى فى كثير من بلدان الغرب الأوروبى.



مصاعب حياة الطلبة

عندما نتحدث عن المصاعب التى واجهها طلاب الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى ينبغى أن نذكر أن كثيرا من وسائل الراحة التى ينعم بها إخوانهم اليوم لم يكن لها وجود فى تلك العصور، مما جعل الحياة عندئذ صعبة لا على الطلبة وحدهم بل على المجتمع المحيط بهم كله، على أن طلبة الجامعات أنفسهم كانوا فى حاجة إلى شيء من العناية الخاصة والمساعدة التى تخفف عنهم آلام الغربة ومتاعبها، وتمكنهم من مواصلة الدرس والتحصيل، وقد أتت أولى الصعاب التى واجهت طلبة الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى من نقص وسائل التدفئة فى الشتاء، بحيث إننا نسمع أن الجامعات كانت فى تلك العصور خلوا من المواقد - سواء فى ذلك غرف الدراسة أو غرف مبيت الطلبة فى الكليات، فى الوقت الذى كانت غرف الدرس لا يكسوها إلا القليل من القش، وقد حرمت بعض اللوائح الجامعية على الطلبة الاستعانة بوسائل التدفئة الصناعية وفرضت عليهم تحمل زمهرير الشتاء، ومن جهة أخرى قاسى الطلبة فى العصور الوسطى كثيرا من المتاعب بسبب نقص الضوء داخل غرف الدراسة؛ ذلك أن النوافذ الزجاجية اعتبرت نوعا من الترف فى تلك العصور، فاكتفى بوضع ستائر من القماش على النوافذ، أما الشمع فكانت أثمانه مرتفعة عندئذ بحيث لم يتحمل الطلبة الفقراء تكاليف استذكار دروسهم فى ضوء الشموع، وربما كان هذا هو السبب فى تخصيص وقت المساء للمناقشات العلمية بين الطلبة واستعادة ما درسوه فى الصباح، حيث إن هذا النوع من المناقشات لم يكن فى حاجة إلى كثير من الضوء، أما قلة الكتب وارتفاع أثمانها - قبل معرفة الورق - فكانت من المشاكل الكبرى التى ظل طلاب العلم فى العصور الوسطى يقاسون منها كثيرا.



الفصل الخامس
الجامعات والحياة الأوروبية

ذكر بعض الكتاب أن هناك ثلاث قوى كيفت المجتمع الغربى فى العصور الوسطى، هى الكنيسة والإمبراطورية والجامعة، فإذا كانت الروح الدينية فى غرب أوروبا قد وجدت زعامتها فى البابوية، وإذا كانت السلطة العلمانية بلغت ذروة عظمتها فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فكذلك نبعت جميع جداول المعرفة التى روت المجتمع الغربى فى الشطر الأخير من العصور الوسطى من الجامعات.

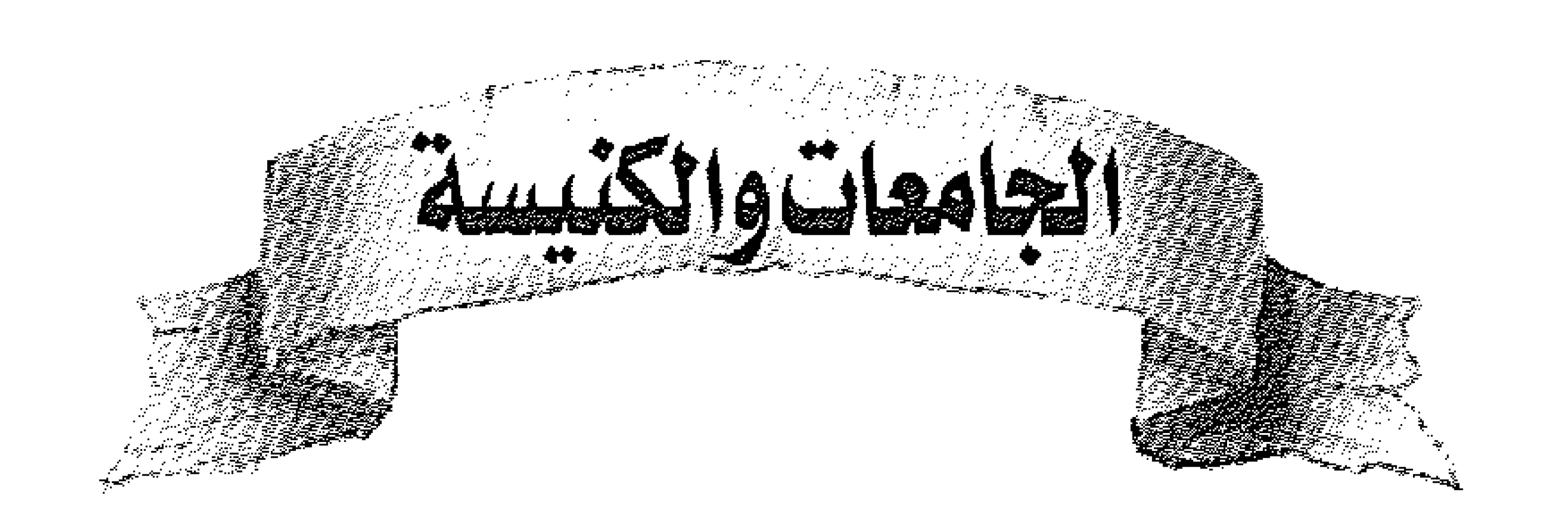
وقد رأينا فى فصول هذا الكتاب كيف اتفقت نشأة الجامعات الأوروبية مع نشأة البابوية والإمبراطورية فى أنها ارتبطت جميعها بظروف غير واضحة، هذا إلى أن كلا من هذه القوى الثلاث تكشف لنا فى تطورها عن كثير من نواحى الحياة الروحية والسياسية والعلمية والاجتماعية فى العصور الوسطى، فالجامعة مثلها مثل الكنيسة الرومانية والإمبراطورية المقدسة تعبر عن محاولة لتحقيق بعض المثل العليا فى حياة أوروبا العصور الوسطى، هذا إلى أن الجامعات تركت أثرا واضحا عميقا فى كثير من أركان



تمثال ابن رشد فى إحدى جامعات أسبانيا تخليدا لفضله



الحياة الأوروبية فى العصور الوسطى بله الحديثة، وبخاصة النواحى الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويتضح لنا ذلك بإلقاء نظرة سريعة على أهم النواحى التى أثرت فيها الجامعات على المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى.



الجامعات والكنيسة

كان الارتباط شديدا بين الكنيسة والجامعة فى العصور الوسطى، حتى أننا رأينا أن معظم الجامعات فى البلاد الغربية نشأت من مدارس أسقفية، وحصلت على مراسيم قيامها من البابوية وظلت شطرا كبيرا من تاريخها فى العصور الوسطى تعانى الكثير من جراء تدخل رجال الدين المحليين وغير المحليين فى شئونها، هذا فضلا عما لمسناه فى الباب السابق من أن الغالبية العظمى من الكليات المنزلية ـ التى شيدت فى المدن الجامعية فى العصور الوسطى لإيواء الطلبة الفقراء ومساعدتهم ـ قام بتأسيسها أساقفة وديريون، ووضعوا لها نظما وشروطا تتفق إلى حد كبير مع روح الكنيسة ونظمها، وقد حدث أكثر من مرة أن تدخلت الكنيسة والبابوية لتحديد برامج الجامعات عن طريق فرض تدريس مواد معينة تخدم الكنيسة وتحقق أهدافها ومصالحها، مثل القانون الكنسى واللاهوت كما تدخلت لتحريم دراسة مواد أخرى تتعارض مع مبادئ الكنيسة ولا تتمشى مع تعاليمها، مثل فلسفة أرسطو وشروح ابن رشد والقانون الرومانى، وحسبنا للوقوف على مدى قوة العلاقة بين الكنيسة والجامعة فى أوروبا العصور الوسطى أن نشير إلى ملاحظتين تكشفان النقاب عن حقيقة هذه العلاقة: الأولى هى أن لفظ Clericus بمعنى قسيس أو رجل الدين أصبح مرادفا فى المعنى للفظ Scholaris بمعنى طالب، والثانية هى أن الزى الأكاديمى الذى اختارته جامعات العصور الوسطى ـ وهو الروب الأسود والقلنسوة ـ يكاد يكون هو نفس الزى الرسمى لرجال الكنيسة فى تلك العصور.

وإذا كان عامة رجال الدين قد أقبلوا على الحياة الجامعية منذ البداية ليتزودوا باللاهوت والقانون الكنسى، بل بالقانون المدنى وأصول الجدل والمنطق، فإن القرن الثانى عشر سرعان ما شهد ازدياد نشاط فئة جديدة من الديريين، وهم الرهبان الفقراء الذين أوشكوا أن يسيطروا على الحياة الجامعية فى سيطرة تامة فى بعض مدن أوروبا، والمعروف أن الرهبان الدومنيكان كرسوا جهودهم فى أول الأمر لمكافحة الهرطقة الألبيجنسية، وفى سبيل تحقيق هذه الغاية عملوا على السيطرة على طبقة المتعلمين وذوى النفوذ؛ لذلك كان من الطبيعى أن يختار القديس دومنيك



الجامعات مركزا لنشاطه وجهوده حتى غدت بولونا معقل الرهبان الدومنيكان فى إيطاليا، وباريس معقلهم فى فرنسا، على حين اختاروا أكسفورد لتكون مركزا لأول دير لهم يؤسسنه فى إنجلترا سنة ١٢٢١، وهكذا لم يلبث أن صار للرهبان الدومنيكان دير فى كل مدينة جامعية هامة فى غرب أوروبا حتى أن جوردان السكسونى الرئيس الثانى لهيئة الدومنيكان قضى شطرا كبيرا من حياته متنقلا من جامعة إلى أخرى يعظ الطلاب ويكتسب لهيئته أنصارا جددا من بين صفوفهم.

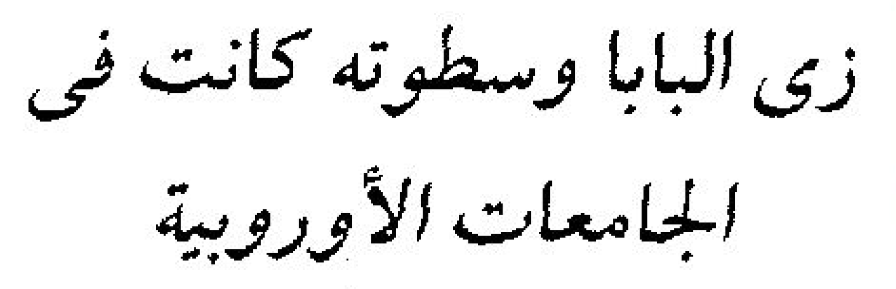
ولم تلبث الهيئة الأخرى من جامعات الرهبان الفقراء - وهى هيئة الفرانسيسكان - أن حذت حذو الدومنيكان فى العمل على تزويد رهبانها بأساس صالح من الدراسات اللاهوتية من ناحية وعلى مد نشاطها إلى الجامعات من ناحية أخرى، وكان أن أسس الفرانسيسكان أول دير لهم فى باريس سنة ١٢٣٠ ثم الدير الثانى فى أكسفورد فى العام التالى، وهكذا سرعان ما ازداد عدد الأساتذة الذين ينتمون إلى هذه المنظمات، والذين قاموا بالتدريس فعلا فى مختلف الجامعات الأوروبية - لا سيما باريس وأكسفورد، وهنا نجد الفرانسيسكان - وبخاصة فى أكسفورد - يوجهون نشاطهم نحو العناية بالرياضيات والعلوم الطبيعية، مع التفرقة بين العلم والدين، وعلى رأس هذا الفريق كان جروستست (١١٧٥- ١٢٥٣) ثم تلميذه روجر بيكون (١٢١٠- ١٢٩٢)، ويرجع إليهما الفضل فى تطبيق مذهب العلم التجريبى فى غرب أوروبا بعد أن أخذوا أصوله عن المسلمين، أما الدومنيكان فقد عملوا على التوفيق بين تعاليم أرسطو من ناحية وأحكام الدين والعقيدة من ناحية أخرى، وبعبارة أخرى عمل الدومنيكان فى باريس - وعلى رأسهم ألبرت الكبير (١٢٠٦- ١٢٨٠) وتوما الأكوينى (١٢٢٥- ١٢٧٤) على تنصير تعاليم أرسطو، فعرضوا هذه التعاليم عرضا نزيها غير مغرض مع التفرقة بين العلم واللاهوت ومحاولة الاستفادة من الفلسفة فى تنفيذ مزاعم ضعاف العقيدة والمتشككين.

على أن تغلغل الرهبان الفقراء فى الحياة الجامعية ومحاولتهم السيطرة على تلك الحياة، أوجد خلافا خطيرا بين هؤلاء الرهبان وبقية أساتذة الجامعات، الأمر الذى أدى إلى إصدار عدة تشريعات - وبخاصة فى جامعة أكسفورد - للحد من نشاط الرهبان الفقراء والحيلولة دون سيطرتهم على الجامعة، أما فى فرنسا فإن أثر هؤلاء الرهبان فى نظم الجامعة وتطورها لم يكن أقل أهمية منه فى الحياة الفكرية داخل الجامعة وخارجها؛ ذلك أنه حدث فى الأزمة التى قامت سنة ١٢٢٩ بين ملك فرنسا وحاشيته من ناحية وجامعة باريس من ناحية أخرى، أن رفض أساتذة الجامعة - من الرهبان - الإذعان لقرار إخوانهم العلمانيين بالإضراب عن الدراسة، بل على العكس انتهز الرهبان فرصة إضراب الأساتذة العلمانيين ليقيموا مدرسة لاهوتية خاصة بهم فى باريس، ولم يستطع الأساتذة العلمانيون أن ينسوا لزملائهم الرهبان هذه الضربة، فاستمرت العلاقات متوترة بين



الطرفين عقب انتهاء الأزمة السابقة، وحاول الأساتذة العلمانيون بشتى الطرق الحد من نفوذ الرهبـان حتى انتهى الأمر سنة ١٢٥٣ بطـرد اثنين من الدومنيكان وواحد من الفـرانسيـسكان من رابطة الأساتذة، كـذلك قررت جـامعـة باريس فى السنة السابقة عدم قـبول أى عضو فى رابطة الأساتذة ما لم يقـسم يمين الولاء والطاعة للوائح الجامعـة، ويتعهد بحفظ أسرارها وتنفـيذ قراراتها، لا سيمـا ما يختص من هذه القرارات بالإضراب عن الدراسة.

وقد رفض الأساتذة الرهبان تنفيذ قـرار القسم السابق مما أوقعهم فى خلاف شديد مع الجامعـة، فأصدرت قرارا بطردهم منها، وليس الموقف فى حـاجة إلى شرح أو إيضاح، إذ أراد الأسـاتـذة من الرهبـان أن يتـمـتـعـوا بامتيـازات رابطة الأساتذة دون أن يلتزمـوا بالخضوع لتعاليم الرابطة، وفى ذلك الوقت توفى البابا إنوسنت الرابـع - الذى دأب عـلى مـساندة الجـامـعـة على حسـاب الرهبان- فـخلفه البابا إسكندر الرابع الذى أصـدر مـرسـومـا سنة ١٣٥٥ حـسـم النزاع فى صورة ترضى الرهبان على حساب الجامعة، وقد أمر هذا البـابا بإعادة الرهبـان المفـصولـين وتوقيع قـرار الحرمان على الجـامعة إذا رفـضت تنفـيـذ المرسـوم البابوى، وكان أن رفضت



زى البابا وسطوته كانت فى الجامعات الأوروبية

الجامعة إعادة الرهبان فحلت بها عقوبة الحرمان، فى الوقت الذى حرمت الجامعة على الأساتذة والطلبة الاقتراب من أديرة الرهبان الفقراء أو دخول منازلهم أو الاختلاط بهم، ولم تلبث هذه المقاطعة أن اتخذت شكل قتال عنيف بين الطرفين فى طرقات باريس، بحيث أصبح الرهبان لا يأمنون على أنفسهم السير فيها، وهكذا كان شتاء ١٣٥٥- ١٣٥٦ من أصعب الأوقات التى مر بها الحى اللاتينى فى باريس نتيجة لكثرة المصادمات والمشاجرات بين الرهبان والعلمانيين.

وفى سنة ١٣٦١ توفى البابا إسكندر الرابع وخلفه البابا أوروبان الرابع فأحس الرهبان الفقراء أنهم فقدوا نصيرهم القوى، وأخذوا يخففون من غلوائهم ويخضعون للقيود التى فرضتها عليهم الجامعة، وأهم هذه القيود هى:

أولا: على الرغم من انتصار الرهبان وعودتهم إلى الجامعة، إلا أن كلية الآداب رفضت أن تسمح للرهبان - أساتذة وطلابا - بدخولها، وظل هذا الحظر من مميزات جامعة باريس فى العصور التالية.

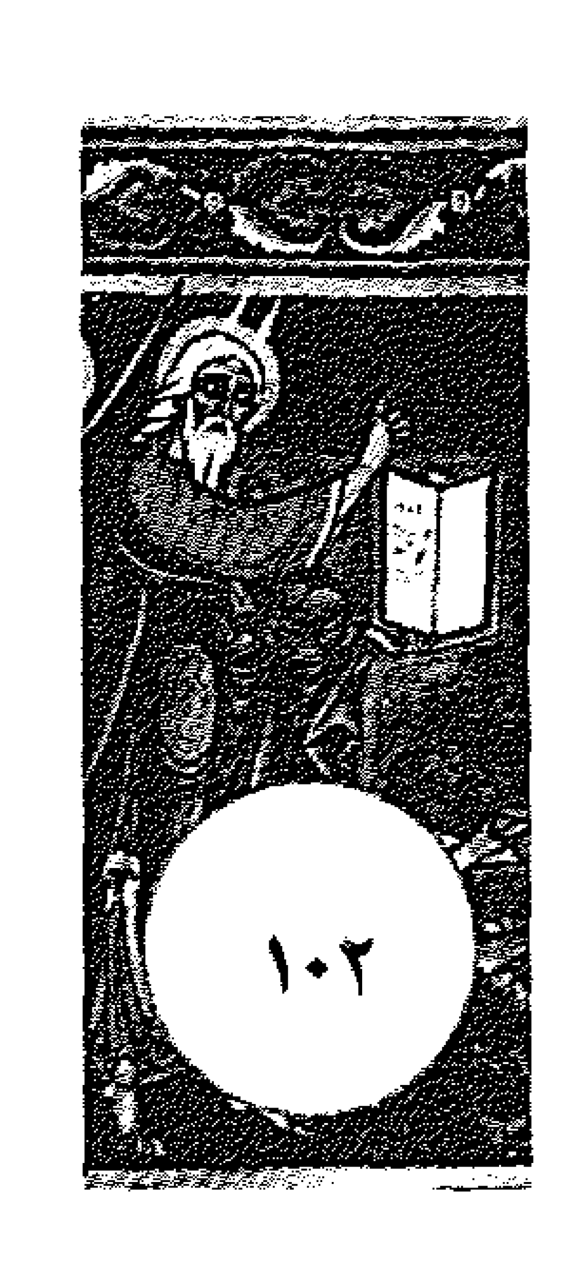
ثانيا: لم يسمح لأية كلية من كليات الجامعة ذات الصبغة الدينية أن يمثلها أكثر من عضو واحد فى حالة الفرانسيسكان واثنين فى حالة الدومنيكان فى أى مجلس عام من مجالس الجامعة.

ثالثا: على الرغم من أن القوانين الجامعية لم تحرم على الطلبة العلمانيين حضور المحاضرات التى يلقيها أساتذة من الرهبان فى اللاهوت، إلا أن الوضع جرى فى جامعة باريس على ألا يحضر محاضرات هؤلاء الأساتذة سوى أفراد طائفتهم من الرهبان الفقراء.

وهكذا لم تحل سنة ١٣١٨ إلا وكانت الجامعة قد بلغت درجة من القوة مكنتها من أن تفرض يمين الولاء لنظمها على الرهبان الفقراء، وفى هذه المرة لم يسع الرهبان سوى الإذعان فى هدوء والخضوع للفكرة التى قاوموها فى عنف مدى ستين سنة، ولكن يلاحظ أنه مع أن النزاع بين جامعة باريس والرهبان الفقراء انتهى على هذا الوجه، إلا أنه ترك آثارا هامة فى حياة الجامعة ونظمها واتجاهاتها، وأهم هذه الآثار هى:



لوحة «توما الأكوينى» - على اليمين يبدو فيلسوف عربى



أولا: أدى هذا النزاع إلى ترابط الجهاز الجامعى وتحقيق مبدأ سيادة الجامعة وقراراتها ولوائحها على أفرادها وكلياتها المختلفة وبخاصة كلية اللاهوت.

ثانيا: وجدت جامعة باريس نفسها فى حاجة إلى مزيد من الأموال أثناء نزاعها مع الرهبان ففرضت ضرائب معينة على أعضائها من الأساتذة والطلاب، وقد أدى ذلك إلى انتعاش ثروة الجامعة ونمو نظمها المالية، مما أكسبها قوة ثبتت دعائمها.

ثالثا: لم يكن هناك مبرر حتى ذلك الوقت لظهور شعور عدائى من جانب الجامعة نحو البابوية، بل إن جامعة باريس حظيت فى الدور الأول من تاريخها بعطف البابوية مثلها مثل طوائف الرهبان أنفسهم، ولكن النزاع بين الجامعة والرهبان ومساندة البابوية للفريق الأخير، بذر بذور التباعد بين البابوية من ناحية وجامعة باريس والكنيسة الفرنسية من ناحية أخرى، وهكذا لم تلبث أن أصبحت جامعة باريس المعقل الرئيسى لفكرة استقلال الكنيسة الفرنسية عن البابوية كما سيلى بعد قليل.



كانت الجامعات الأوروبية دائما منارا لحرية الفكر وقاعدة انبعثت منها آراء الإصلاح الدينى فى العصور الوسطى، لا سيما تلك الجامعات التى وجدت بها كليات اللاهوت ولم تظهر مثل هذه الحركات فى الجامعات الإيطالية أو الأسبانية، حيث صار تدريس اللاهوت بيد جماعة من الرهبان الفقراء؛ ولذلك لم يرتفع صوت فى هذين البلدين ضد الفساد الذى اعترى البابوية والحياة الكنسية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى، وهكذا لم تنبعث دعوة الإصلاح الدينى فى أوروبا فى العصور الوسطى إلا من جامعات إنجلترا وفرنسا وألمانيا، ومن هذه الجامعات امتدت دعوة الإصلاح إلى كثير من بلدان الغرب الأوروبى مما ترك أثرا واضحا فى الحياة الأوروبية.

وقد ظهرت أولى هذه الحركات الإصلاحية فى جامعة أكسفورد، حيث تلقى حنا وكلف (١٣٢٨- ١٣٨٤) تعليمه ثم عكف فى هذه البيئة العلمية على وضع عدة أبحاث هامة حول العلاقات بين السلطتين العلمانية والكنسية. ولم يتردد وكلف فى أن ينتقد البابوية ورجال الدين انتقادا مرا، فنادى بأن تتخلى الكنيسة عن جميع ممتلكاتها؛ لأن الملكية الفردية إنما جاءت نتيجة

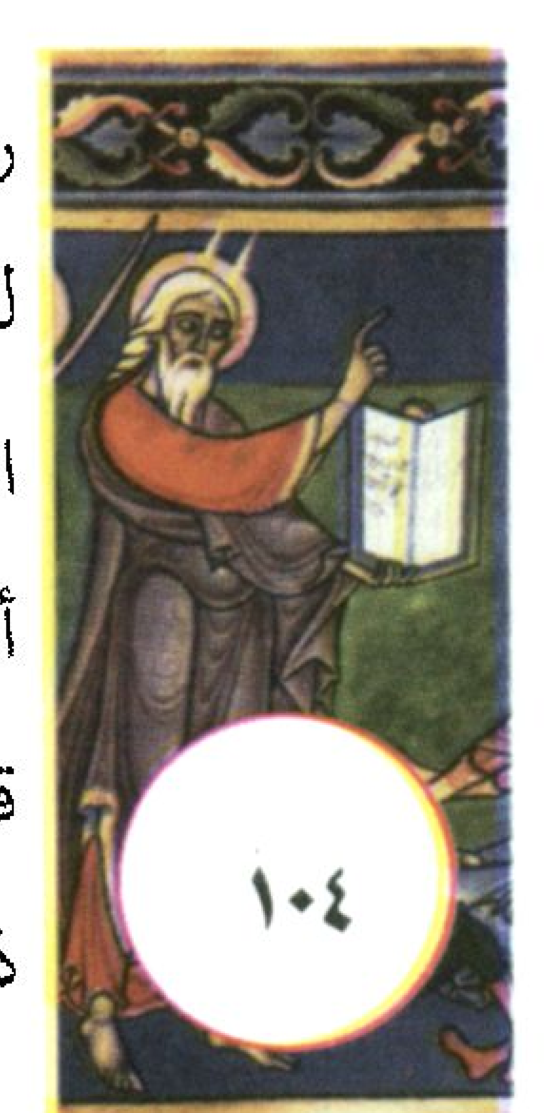
لخطيئة آدم، كما قال بأن الثروة العظيمة التى تمتعت بها الكنيسة ورجالها ليست إلا مظهرا من مظاهر انصراف رجال الدين عن مهامهم الأساسية لأنهم لو قاموا بواجبهم الأصلى ما صارت لهم حاجة إلى هذه الثروة، كذلك عاب وكلف على رجال الدين عدم تفرغهم لواجباتهم واشتغالهم بالسياسة والإدارة، وقال بأن الديريين فئة من المتعطلين يعيشون عيالا على المجتمع. أما البابوية فقد اختصها وكلف بشطر كبير من نقده فنادى بأن تعاليم المسيحية يجب أن تستقى من الإنجيل نفسه لا من أقوال رجال الكنيسة، وبأن الصلة بين الإنسان وخالقه يجب أن تكون مباشرة دون وساطة أحد من رجال الدين مهما بلغ مركزه فى الكنيسة.

وهكذا وضع وكلف حجر الأساس فى بناء الثورة الدينية التى بلغت ذروتها على عهد مارتن لوثر فيما بعد، فانتشرت آراؤه بسرعة لا داخل إنجلترا فحسب، بل خارجها أيضا عبر المانش إلى صلب القارة، حيث صادفت قبولا كبيرا فى نفوس المتعلمين وبخاصة من أبناء الجامعات. وهنا تشير إلى أن الارتباط الفكرى بين جامعات العصور الوسطى كان أسرع وأقوى مما نتصور، على الرغم من ضعف وسائل المواصلات فى تلك العصور؛ ولذلك ليس من الغريب أن نلمس صدى مباشرا لآراء حنا وكلف فى براغ، ومن الثابت أن العلاقات بين أكسفورد وبراغ نمت عقب زواج ابنة شارل الرابع من ريتشارد الثانى ملك إنجلترا مما أدى إلى انتقال كثير من الآراء الإنجليزية إلى براغ، ومنها آراء حنا وكلف.



حرق «حنا هس» - رسم

وكانت جامعة براغ قد أصبحت منذ تأسيسها فى منتصف القرن الرابع عشر مركزا كبيرا للدراسات الجامعية فى وسط أوروبا، ولم تكد تعاليم وكلف تصل إلى براغ حتى وجدت أنصارا كثيرين بين رجال الجامعة مما أفزع الكنيسة فأصدرت أمرا سنة ١٤٠٣ بإعدام هذه التعاليم واعتبار أصحابها من الهراطقة، ولكن وجد من أبناء جامعة براغ - ولا سيما بين التشيك - من عارضوا هذا الإجراء وعلى



رأسهم حنا هس (١٣٧٠- ١٤١٥)، وقد عرف هس هذا بفصاحته وتحمسه للإصلاح الدينى وقوته فى مهاجمة نواحى الضعف فى الكنيسة ومفاسد رجال الدين، فاتخذ من الوعظ والإرشاد أداة قوية لمهاجمة هذه المفاسد، حتى ازداد عدد أنصاره والمؤمنين بآرائه، ولم يلبث هذا الوضع أن هدد الكنيسة الغربية فأنزل البابا قرار الحرمان بحنا هس، ثم انتهى الأمر بإعدامه حرقا سنة ١٤١٥، وإن ظلت ذيول حركته سنوات طويلة بعد ذلك.

وهكذا أخذت الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى تهيئ تعليما كافيا لتخريج عدد من المصلحين الذين تلقوا علومهم فى تلك الجامعات، واتخذوها مركزا لحركاتهم الإصلاحية، وحسب جامعات العصور الوسطى أنها لم تخرج وكلف وهس فقط وإنما أخرجت أيضا «مارتن لوثر» (١٤٨٣- ١٥٤٦) الذى تلقى تعليمه فى جامعة إرفرت والذى تزعم أعظم حركة للإصلاح الدينى تعرضت لها الكنيسة الغربية، على أن دور الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى لم يقتصر على محاولة إصلاح الكنيسة الغربية عن طريق نقدها وتفنيد عيوبها فحسب، بل أيضا عن طريق لم شملها ومداواة عيوبها وترميم ما اعترى بنيانها من تصدع فى الشطر الأخير من تلك العصور، من ذلك أنه عندما حدث الانشقاق الدينى الكبير (١٣٧٨- ١٤١٧) وقفت جامعة باريس فى أول الأمر موقفا محايدا بين بابوات أفينون وبابوات روما، ثم لم تلبث أن أخذت هذه الجامعة تعمل لإزالة هذا الانشقاق ولم شعث الكنيسة، ومن الثابت أن الجامعات الأوروبية قامت بدور رئيسى فى توجيه آراء مجمع بيزا (سنة ١٤٠٩) ثم مجمع كونستانس (١٤١٣- ١٤١٧) ثم مجمع بازل (١٤٣١) حقيقة، إن المراجع التاريخية اعتادت أن تبالغ فى قيمة الدور الذى قامت به بعض القوى السياسية المعاصرة فى توجيه هذه المجامع الدينية ـ وبخاصة ما قام به الإمبراطور سيجموند ـ ولكننا يجب أن نذكر أن هذه المجامع لم تكن صنيعة الملوك والحكام، وإنما يرجع الفضل فى قيامها وتوجيهها إلى الرأى العام فى أوروبا، وهنا قامت الجامعات الأوروبية فى تلك العصور بالدور نفسه الذى تقوم به الإذاعة والصحافة اليوم، من حيث توجيه الرأى

مدخل البابوية فى أفينون

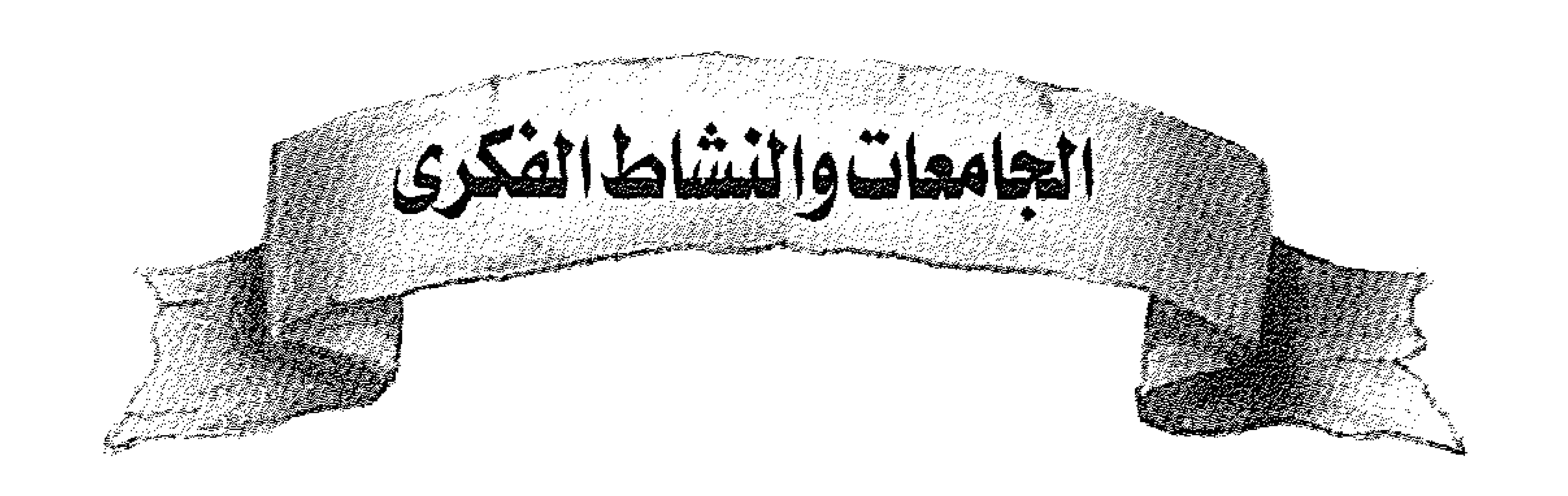


العام وتبصيره بحقائق الأمور، وحسبنا أن مجمع كونستانس اشترك فيه ثلثمائة من فقهاء اللاهوت جلهم من أساتذة الجامعات وخريجيها، كما أن مجمع بيزا حضره مائة وثلاثة وعشرون من رجال اللاهوت كان منهم ثمانون من خريجى جامعة باريس وحدها، وكان يخشى على مجمع كونستانس من الفشل نتيجة لكثرة المشتركين فيه من أساقفة إيطاليا، وهم الذين أخذوا يوجهون المجمع وجهة غير صحيحة، ولكن أعضاء المجمع من خريجى جامعة باريس أنقذوا الموقف فنادوا باتباع طريقة فى التصويت أشبه بطريقة الأروقة المتبعة فى الجامعة، وبذلك قسم جميع أعضاء المجمع إلى أربعة أقسام وافق البلاد التى يمثلونها على أن يكون لكل فريق صوت واحد يعبر عن رأى أعضائه.

ويصح فى ختام كلامنا عن موقف الجامعات من الكنيسة والحركات الإصلاحية أن نشير إلى أن الجامعات الأوروبية لم تلبث فى أواخر العصور الوسطى أن أخذت تناصر مبدأ الكنائس القومية وتقاوم فكرة الكنيسة العالمية التى تجعل الكنائس فى جميع البلاد الغربية خاضعة خضوعا تاما للبابوية، ونخص بالذكر جامعة باريس التى أيدت مبدأ استقلال الكنيسة الفرنسية بشئونها حتى اكتسبت هذه الكنيسة صبغة قومية بحتة على عهد لويس الحادى عشر (١٤٦١- ١٤٨٣)، على أنه إذا كانت جامعة باريس قد ساندت الكنيسة الفرنسية وأيدت اتجاهها القومى، فإن هذه الجامعة نفسها كانت من أسباب عدم امتداد حركة الإصلاح الدينى - التى تزعمها مارتن لوثر - إلى فرنسا، وبذلك خاب أمل لوثر فى أن يجد نصيرا لآرائه فى جامعة باريس بالذات.



مارتن لوثر



١٠٦

لا شك فى أن الجامعات تعبر عن أقصى ما بلغته أوروبا العصور الوسطى من نشاط فى ميدان الثقافة والفكر، فالتنظيم الجامعى والتقاليد الجامعية والنشاط العلمى للجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، تركت جميعها أثرا خطيرا فى تطور أوروبا الثقافى يفوق الأثر الذى تركه أى نوع آخر من أنواع المؤسسات التعليمية التى عرفتها أوروبا فى تلك العصور، ويكفى أن التنظيم الجامعى فى العصور الوسطى كان عالميا لا قوميا، ففتحت الجامعات أبوابها لطلاب العلم الوافدين من مختلف البلاد الغربية دون تفرقة، حتى أصبح من المألوف فى تلك العصور أن يهاجر طالب العلم من بلد إلى آخر ليدرس على هذا أو ذاك من الأساتذة المشهورين؛ لذلك لا مبالغة فى القول بأن دراسة تاريخ الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى إنما تعنى دراسة تاريخ الفكر الأوروبى فى تلك العصور، وبخاصة فى القرون الأربعة الأخيرة التى انتهت بقيام النهضة الأوروبية الكبرى عند مستهل العصور الحديثة، ونقصد بالفكر الأوروبى فى تلك الحقبة نشاط الآداب والدراسات المدرسية فى الفلسفة واللاهوت وإحياء القانون المدنى ونشأة القانون الكنسى وتطوره ومولد العلوم الحديثة كالطب والطبيعة والكيمياء والرياضيات.

وكان أهم ما قامت به الجامعات الأوروبية منذ القرن الثانى عشر هو التوفيق بين المعارف الجديدة التى أخذت تتدفق على غرب أوروبا من ناحية وبين تعاليم الكنيسة ونظريات اللاهوت من ناحية أخرى، وهكذا غدا اللاهوت حجر الزاوية فى صرح البناء العلمى الجديد، وغدت مهمته جمع النتائج التى انتهت إليها بقية العلوم للاستفادة منها فى حل المسائل المتعلقة بطبيعة الله وطبيعة الكون وعلاقة الإنسان بكل منهما، وساعد الجامعات على القيام بمهمتها هذه ما أظهره المعاصرون من حماسة علمية، حتى أن الشباب والكبار قطعوا عشرات الأميال وتحملوا الآم الغربة والوحدة فى سبيل الوصول إلى بيئة جامعية والتزود بما تفيض به هذه البيئة من علوم ومعارف، وهكذا قال بعض الكتاب: إن الحماسة التى أظهرها أهالى العصور الوسطى نحو التعليم الجامعى لم يضارعها إلا الحماسة الصليبية فى القرن الثانى عشر.

وقد جرت العادة عند الكلام على أثر الجامعات الأوروبية فى الحياة الفكرية فى العصور الوسطى أن تفوز الفلسفة المدرسية واللاهوت بالقسط الأكبر من عناية الباحثين ولكن مع اعترافنا



بما كان لـلفلسفـة المدرسية والـلاهوت من أهميـة بالغة فى النشـاط العلمى لتلك العصـور، إلا أننا يجب أن نقرر أن هذه الدراسـات لم تكن أوسع العلوم انتـشارا وأقواها أثرا، فالقانون والدراسات القانونيـة ظلت تحتل المكانة الأولى فى جامعات أوروبا فى العصـور الوسطى بحيث إن معظم هذه الجامـعات ضمت كليـة أو أكثر لدراسة القـانون كما أن نسـبة كبيـرة من الطلاب اختاروا دراسـة القانون بالذات، وهكذا نستطيع القول بأن أهم النتائج التى تمخضت عنهـا نشأة الجامعات الأوروبية كانت خلق طبقة كبيرة من رجال القـانون، وهو أمر ظهرت مزاياه ومساوئه العديد فيما بعد.

وساعد على عظمة الأثر الذى تركته جامـعات العصور الوسطى فى الحياة الفكرية أن منهج الدراسة فى هذه الجامعات اتخذ طابعا عمليا، فاتجه نحو حث الطلبة على التفكير والعمل والبحث والاسـتقـصاء والتـشكك فى حـالة عدم وجـود البرهان القـوى والدليل القـاطع، وبذلك بددت الجامـعات الأوروبية ظلمـة العصور السـابقة وأمدت المجتـمع الأوروبى بفئة ناضـجة من المثقـفين والمتعلمين، وهى الفئة التى أمسكت بزمام الحكومات فى العالم الحديث، وإذا كانت نسبة كبيرة من شباب العصور الوسطى نظرت إلى الجامعات على أنها الباب الذى يوصلهم إلى الكنيسة، وبالتالى إلى المناصب الرفيعة، فإنه ليس معنى ذلك أن الجامعات فى تلك العصور لم تعد طلابها إلا للحياة الدينية، وحسب جامعات العصور الوسطى أنها أمدت الملوك والأمراء بمن احتاجوا إليهم من ساسة ورجال أعمـال، ليس فقط من بين رجال القانون وإنما أيضـا من رجال الآداب واللاهوت حتى أن تاليران نفســه ـ داهية السياسة الفـرنسى فى القرن التاسع عشر ـ أكـد أن رجال اللاهوت هم أقدر الناس على الاشتغال بالسياسـة، ولا غرو فقد كان قبل أن ينغمر فى السياسة أحـد أساقفة فرنسا، ولا شك فى أن ازدياد عدد الجامعات الأوروبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إنما مرجعه إلى حاجة المجتمع عندئذ إلى كثير من الإداريين والقانونيين المثقفين.

وأخيرا، يكفى جامعات العصور الوسطى أثرا فى الحياة الفكرية أنها أنجبت رجلا مثل روجر بيكون (١٢١٠- ١٢٩٢) الذى عمل أستـاذا بأكسفورد والذى أمكنه أن يتنبأ بالوصـول إلى اختراع سفن تسير بالآلات دون حاجة إلى مجداف أو شراع، وطائرات تسير فى الفضاء ويحركها الإنسان كما تفـعل الطير، ومفرقعـات تبيد الجيوش، وروافـع ضخمة لرفع الأثقال، وعـقاقير سامـة تبيد الحشـرات والهوام، ومصـابيح تضىء دون أن ينفذ لها وقـود. . . وبذلك يكون أساتذة الجامـعات الأوروبية فى العصور الوسطى قد رسموا للعالم الحديث الطريق الذى سار فيه فعلا.



الجامعات والحياة السياسية

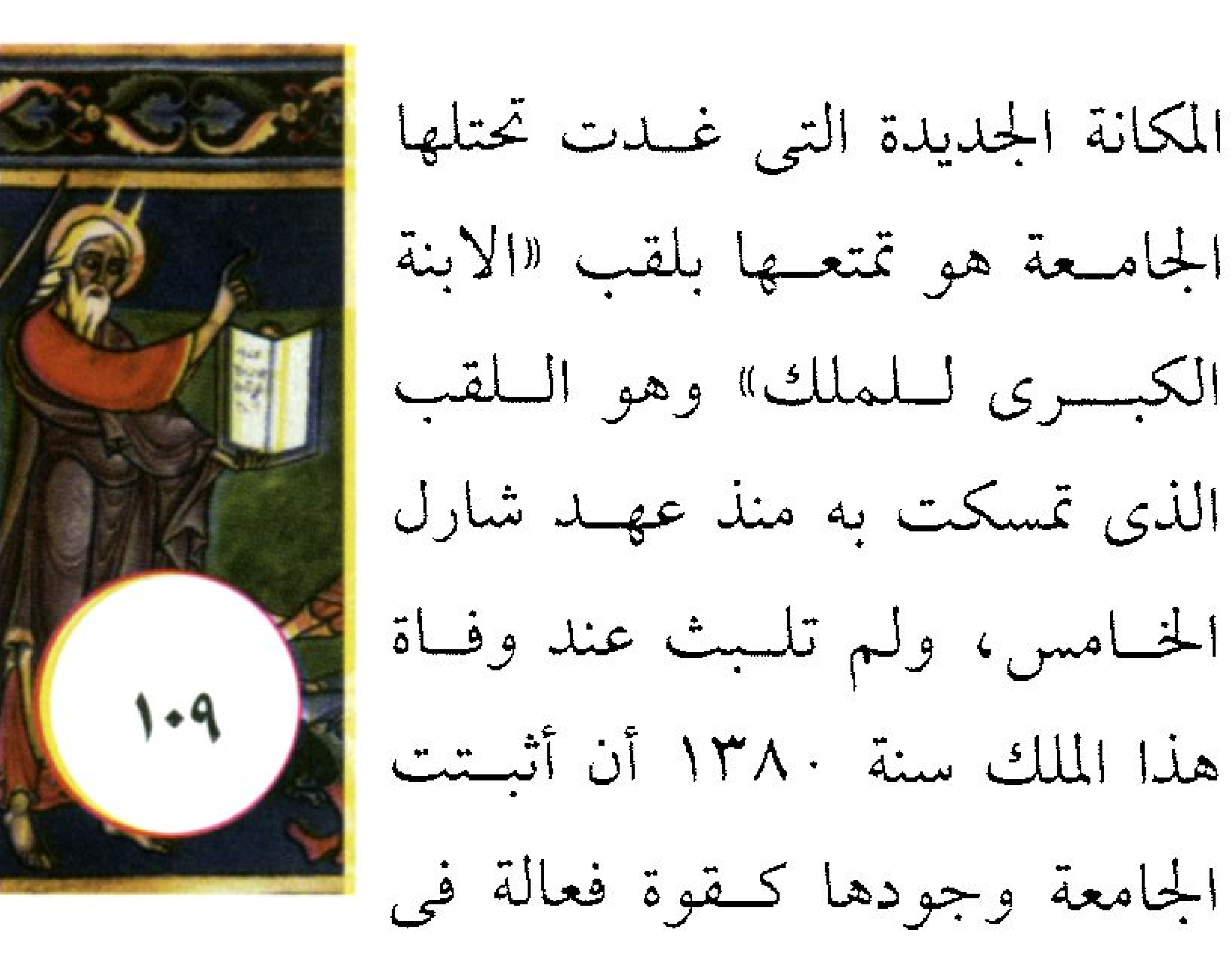
لا شك فى أن الجامعات الغربية أثرت فى الحياة السياسية لأوروبا فى العصور الوسطى عن طريق خريجيها الذين دخلوا خدمة الملوك والأمراء، وبالتالى أسهموا فى توجيه سياسة هؤلاء الملوك والأمراء، على أن هناك طريقا آخر مباشرا أثرت به الجامعات فى الأوضاع السياسية، هو طريقة تدخلها الصريح وإعلان رأيها فى الأحداث الجارية، وهنا نجد جامعة باريس تفوق غيرها من الجامعات المعاصرة فى ذلك الميدان، نتيجة لقيامها فى عاصمة ضخمة لدولة عظيمة، ولا شك فى أن المكانة السياسية العظيمة لمدينة باريس أضفت على جامعتها أهمية كبرى فى الميدانين السياسى والكنسى، وهو أمر لم تحظ به جامعة أوروبية أخرى فى العصور الوسطى.

على أن أساتذة باريس لم يتمكنوا من القيام بدور عظيم فعال على مسرح السياسية الفرنسية إلا بعد أن بلغت جامعتهم ذروة مجدها العلمى، لا سيما وأن الاتجاه العالمى ظل يسود غرب أوروبا فى العصور الوسطى حتى القرن الثالث عشر، هذا إلى أن مولد الجامعة ونشأتها جاء مصحوبا بازدياد نفوذ الإخوان الرهبان (الفرير) فى كل بلد من بلدان الغرب الأوروبى، مما جعل الجامعة توجه جميع جهودها فى ذلك الدور المبكر نحو تدعيم مركزها وإعلان حقها فى الاستقلال، وهكذا لم يبدأ النفوذ السياسى لجامعة باريس فى الظهور إلا بعد أن انقضى عصر كبار الأعلام الذين ارتبطت نشأة الجامعة بأسمائهم، وعندئذ أصبحت جامعة باريس منارا للحرية ومنبرا للرأى العام، ففى باريس وسط شعب محروم من كثير من الامتيازات والحقوق، وعلى مقربة من قصر ملك مستبد طاغية، تكونت نواة مجتمع متعلم تحميه الكنيسة من جور الحكام ويتمتع أفراده بحرية المناقشة وحق التعبير عن رأيه، ولم يلبث هذا الاتجاه التحررى الذى جعل من الجامعة أداة للتعبير عن رأيه ولم يلبث هذا الاتجاه التحررى الذى جعل من الجامعة أداة للتعبير عن صوت الشعب وإيصال هذا الصوت إلى البلاط، أن ازداد وضوحا فى عصر أسرة فالوا (سنة ١٣٢٨) التى اتبع ملوكها سياسة استهدفت مقاومة نفوذ النبلاء والحصول على تأييد الطبقات المتعلمة من رجال الجامعة والقانون.

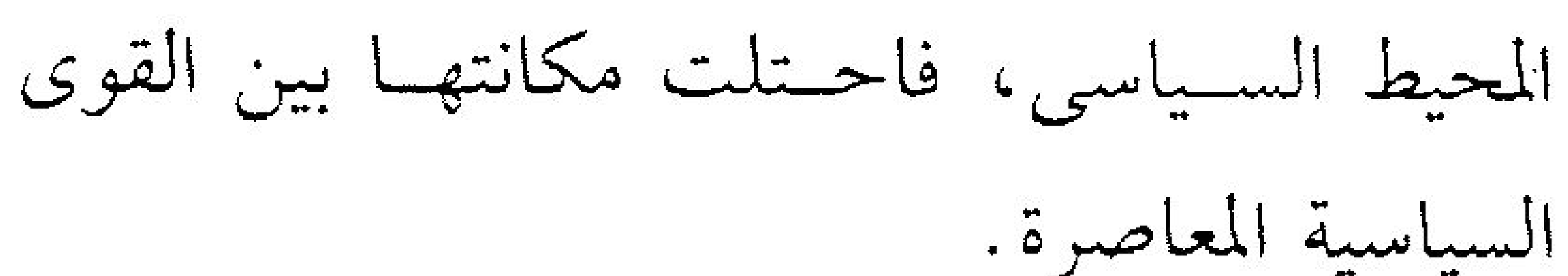
وهكذا صارت جامعة باريس ممثلة تمثيلا كاملا فى كافة المجالس العامة التى اعتاد ملوك فرنسا عقدها فى ذلك العصر، فضلا عن اجتماعات مجلس طبقات الأمة، وخير ما يعبر عن هذه



الملك شارل الخامس

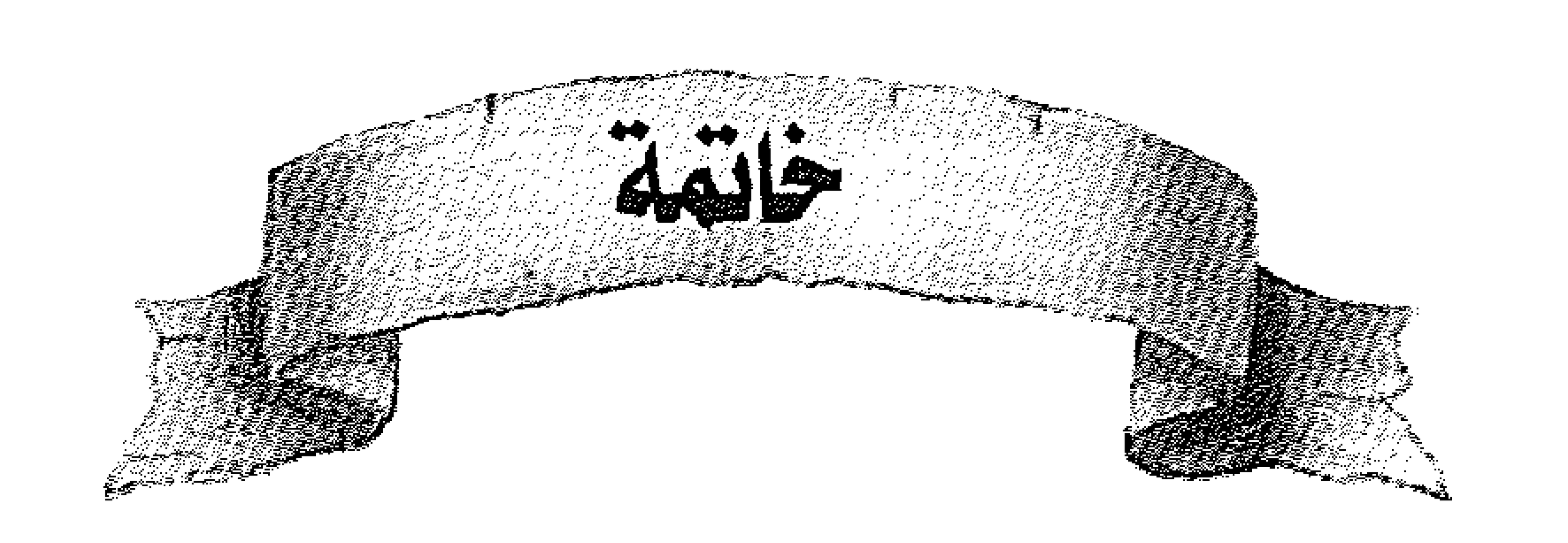


المكانة الجديدة التى غدت تحتلها الجامعة هو تمتعها بلقب «الابنة الكبرى للملك» وهو اللقب الذى تمسكت به منذ عهد شارل الخامس، ولم تلبث عند وفاة هذا الملك سنة ١٣٨٠ أن أثبتت الجامعة وجودها كقوة فعالة فى المحيط السياسى، فاحتلت مكانتها بين القوى السياسية المعاصرة.



أما جامعة بولونا، فعلى الرغم من أهمية الدور الذى قام به أساتذتها فى النزاع بين البابوية والإمبراطورية - وهو النزاع الذى كان دينيا فى ظاهره سياسيا فى باطنه - فإن هذا الدور الذى قام به أساتذة بولونا اتخذ طابعا فرديا لا إجماعيا، هذا فضلا عن أن جامعة بولونا كانت جامعة طلبة لا أساتذة، والطلبة مهما بلغ عددهم وسنهم لن يكونوا على درجة كافية من النضج الفكرى تسمح لهم بتوجيه الرأى العام.





وبعد، فإننا نختتم كلامنا عن الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى بمحاولة الإجابة على سؤالين أولهما: هل كان لهذه الجامعات فضل على النظم الجامعية الحديثة؟ وثانيهما إذا كان المسلمون قد عرفوا الجامعات فى العصور الوسطى قبل أوروبا بعدة قرون فهل تأثرت الجامعات الأوروبية عند نشأتها بالجامعات الإسلامية؟ وإلى أى مدى كان هذا التأثر؟

أما عن السؤال الأول فإن الباحث لا يستطيع أن ينكر بأى حال فضل الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى على الجامعات الحديثة، فجامعات أوروبا اليوم تدين بالكثير من نظمها العلمية الخاصة بالدراسة والامتحانات والدرجات العلمية إلى جامعات العصور الوسطى التى تحتفظ وحدها بشرف الابتكار وفضل الاختراع، وبعبارة أخرى، إن فكرة الجامعات ـ كما نعرفها اليوم ـ يرجع الفضل فيها إلى العصور الوسطى، والعصور الوسطى وحدها، ومن الخطأ الجسيم أن نحاول الرجوع بهذه الفكرة إلى مدارس العالم القديم فى أثينا والإسكندرية وغيرهما، وهى المدارس التى لا تربطها رابطة بالجامعات الحديثة، وحسبنا أن كثيرا من الجامعات الشهيرة التى عرفتها العصور الوسطى ـ مثل باريس وأكسفورد وغيرهما ـ ما زالت قائمة فى مكانها حتى اليوم محتفظة بأسمائها ومكانتها وشهرتها بل بتقاليدها التى ورثتها عن العصور الوسطى.

أما عن السؤال الثانى فإننا لا ننكر قيام الجامعات الإسلامية قبل الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى بسنوات طويلة، فالأزهر مثلا أسس فى القرن العاشر الميلادى والمدرسة النظامية أسسها نظام الملك فى بغداد فى القرن الحادى عشر، كذلك يستطيع الباحث أن يلمس تشابها واضحا بين النظم التى كان معمولا بها فى هذه الجامعات الإسلامية، وتلك التى سارت عليها الجامعات الأوروبية عند نشأتها، ويعترف بذلك الباحثون الأوروبيون أنفسهم فيقول جيوم: «إن طبيعة الدراسة المنظمة، والعلاقة بين الأستاذ وتلميذه والهبات المالية التى عاشت عليها الجامعات وشتى نواحى النشاط فى الحياة الجامعية، كانت بدون شك متشابهة إلى حد كبير، سواء فى بغداد أو فى أكسفورد»، فنظام المعيدين الذى عرفته الجامعات منذ العصور الوسطى والذى ما زال قائما حتى اليوم، سبق أن طبقه العرب فى جامعاتهم ومدارسهم، فكانوا يعينون معيدا لكل مدرس ليعيد على الطلبة ما ألقاه المدرس فيفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج إلى شرح، وإذا كانت الجامعات الأوروبية قد أباحت للطالب الحق فى أن يصبح معيدا عند حصوله على درجة



البكالوريا (أو البكالوريوس) فإن هذا اللفظ الأخير لم تهتد القواميس الأوروبية الحديثة إلى تفسير أصله، مما جعل (جيوم) يظن أن لفظ بكالوريا ليس إلا تحريفا لعبارة «حق الرواية» المستعمل فى المدارس الإسلامية فى العصور الوسطى، بمعنى حق التعليم بتخويل من الغير، ويؤيد هذا الظن أن اللفظ الأوروبى ورد لأول مرة فى أغنية رولان الشهيرة، مما يرجح أن واضع الأغنية استعاره من مسلمى الأندلس.

ولكن هؤلاء الباحثين ـ أمثال جيوم ـ الذين يؤكدون أن الصلات بين الجامعات العربية والأوروبية فى العصور الوسطى أوثق مما يظن، يتحفظون فى الحكم بأن الجامعات الأوروبية تأسست على نمط الجامعات الإسلامية ويقولون: إن هذا القول تنقصه البراهين القاطعة والواقع أننا لا نجد ثمة عائقا يحول دون تأثر الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى بالجامعات الإسلامية؛ ذلك أن النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر ـ وهى النهضة التى كانت نشأة الجامعات من أهم مظاهرها ـ ساعد على قيامها وأدى إلى ازدهارها الاتصال بالمسلمين فى الأندلس وصقلية والشرق والأخذ عنهم، فإذا كان طلاب العلم الغربيون قد تدفقوا على الأندلس والشام ومصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لنقل علوم العرب، فهل يوجد ما يمنعهم من الأخذ بنظم الجامعات الإسلامية، التى وجد منها فى هذه البلاد أمثلة زاهرة؟

على أننا لا نريد أن نبالغ فنقول: إن كل ما عرفته أوروبا من نظم وتقاليد جامعية فى العصور الوسطى أخذته عن المسلمين؛ لأن الحياة العلمية نفسها لها خصائصها التلقائية المشتركة فى جميع العصور وجميع البلاد، فلا يمكن القول مثلا بأن الأساتذة تمتعوا بمركز محترم فى جامعات أوروبا العصور الوسطى؛ لأنهم أخذوا هذا التقليد عن المسلمين، حيث أجمعت المراجع على أن وظيفة التدريس كانت جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعا من ديوان الإنشاء؛ ذلك أن مركز الأستاذ ـ لا سيما فى الدراسات العالية ـ تحيط به دائما الهيبة بحكم وضعه، فلا حاجة إلى أن يحاكى الأوروبيون المسلمين فى هذه الناحية، وإذا كانت شهرة أساتذة الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى كانت العامل الأساسى فى اجتذاب طلاب العلم إليهم من البلاد البعيدة، حتى أصبح من المألوف فى أوروبا فى العصور الوسطى أن يرحل الطالب من بلد إلى آخر ومن جامعة إلى أخرى ليدرس على مشاهير أساتذة عصره، فإنه من المبالغة أن نقول: إن الطلبة الأوروبيين حاكوا فى هذا التقليد طلبة المسلمين الذين اعتادوا التنقل من بلد إلى آخر

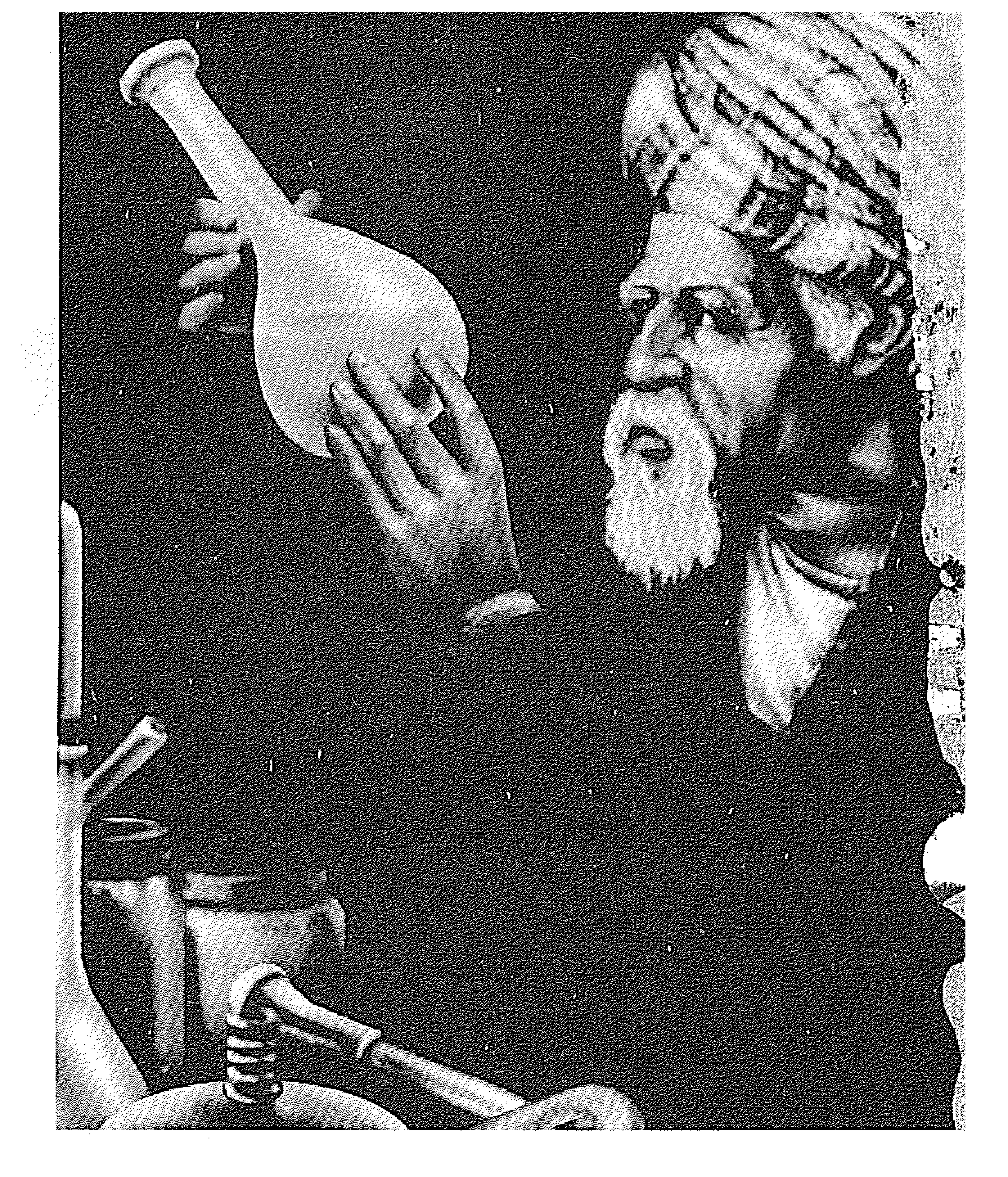


سعيا وراء محدث أو عالم مشهور؛ ذلك أن روح العصر نفسها وصعوبة نقل الآراء والأفكار من بلد إلى آخر وقلة الكتب أملت على الطلبة ـ سواء فى الشرق أو الغرب ـ أن يسلكوا هذا المسلك دون حاجة إلى توافر عنصر المحاكاة، وإذا كنا نسمع أن الطلبة المغتربين فى بولونا أو باريس نظموا أنفسهم فى العصور الوسطى على هيئة جاليات أو أروقة، فإنه من المبالغة التاريخية القول بأنهم أخذوا هذا النظام عن أروقة الجامعات الإسلامية كالأزهر مثلا؛ لأن طبيعة البشر تملى على أى فرد مغترب أن يبحث فى غربته عن أبناء بلده ليتكتلوا جميعا، ويستعينوا بتكاتفهم على مواجهة متاعب الغربة وآلامها.

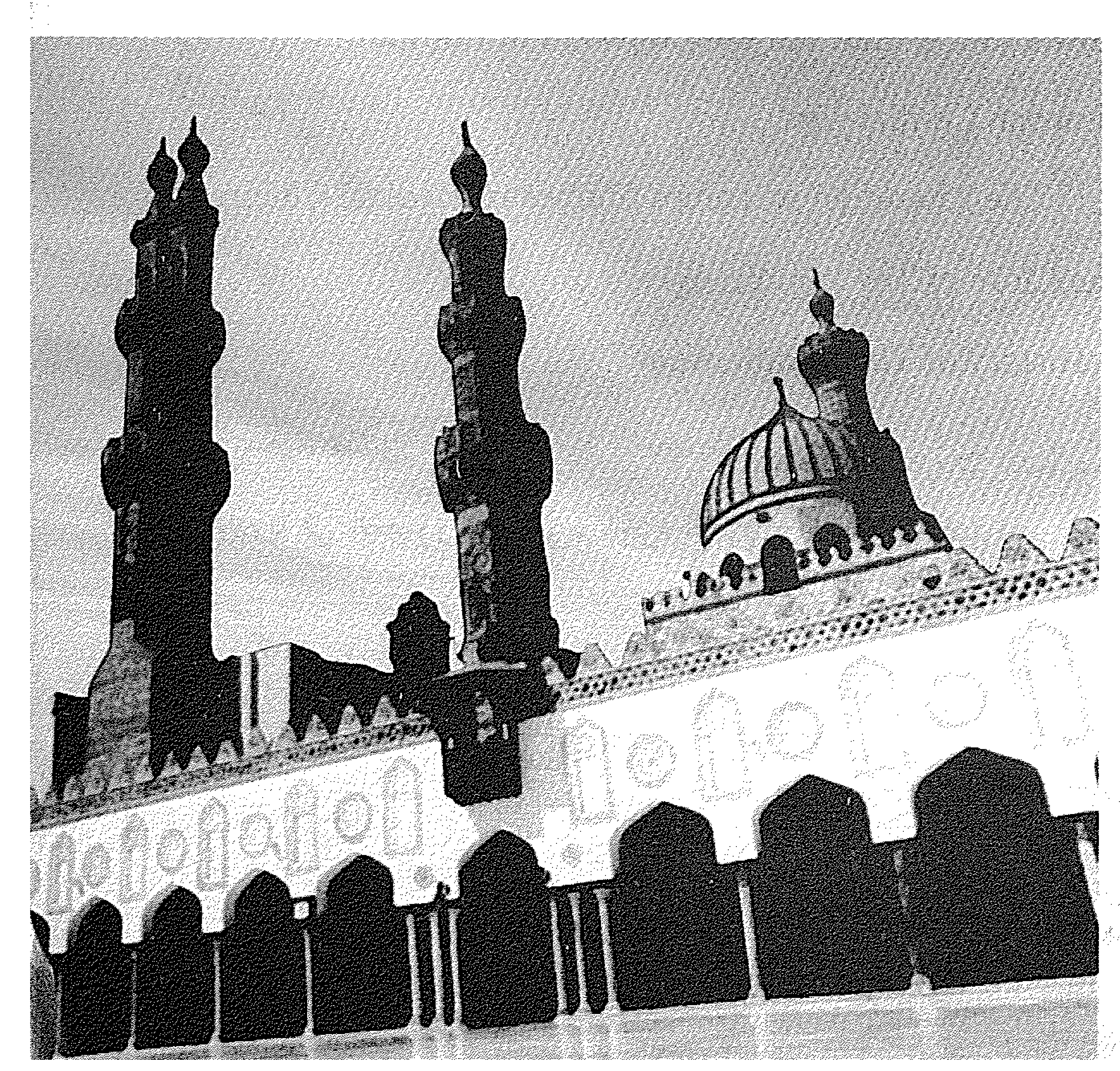
وهكذا تأثرت الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى بالجامعات الإسلامية ولكن إلى حد معين غير بعيد، أما إذا أدخلنا فى اعتبارنا الأثر الذى تركته تدفق العلوم والمعارف الإسلامية على الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، فلابد من الاعتراف عندئذ بأن هذه المعارف أحدثت ثورة ضخمة فى الفكر الأوروبى منذ القرن الثانى عشر، وهى الثورة التى تمخضت عن مولد الجامعات الأوروبية نفسها، ثم اعتماد هذه الجامعات فى حياتها أمدا طويلا على الغذاء الفكرى الذى قدمه لها علماء المسلمين، وحسبنا ما يقوله (جوستاف لوبون) من أن أساتذة جامعة مونبلييه لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا فى الطب إلا منذ خمسين سنة فقط.

«الرازى» زجاج معشق فى جامعة باريس تخليدا لذكراه





رسم تخيلى لابن سينا



جامع الأزهر - أول
جامعة مصرية



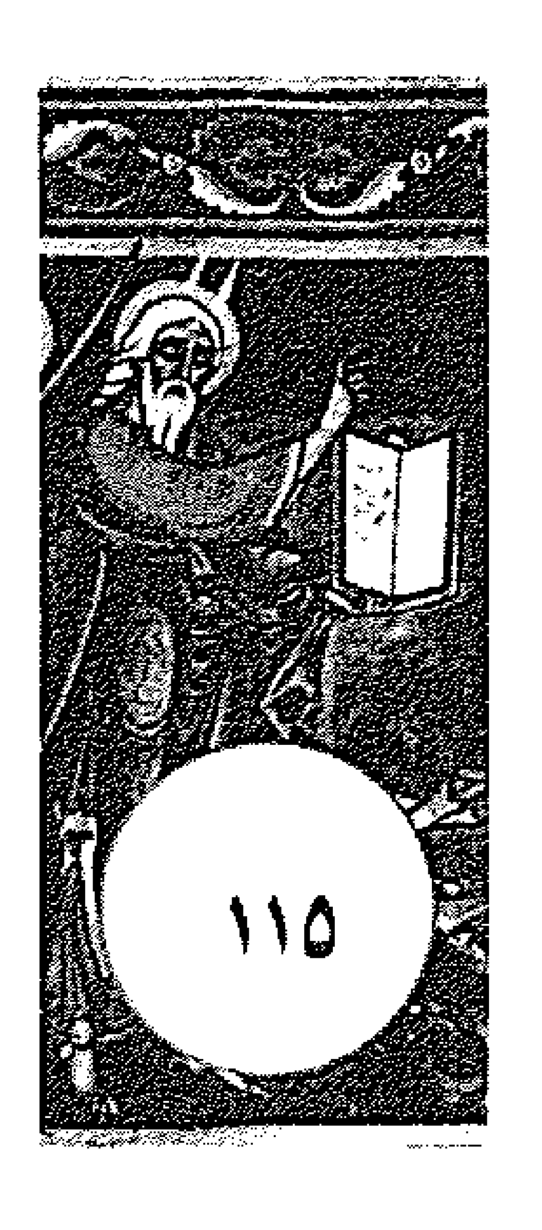


المراجع

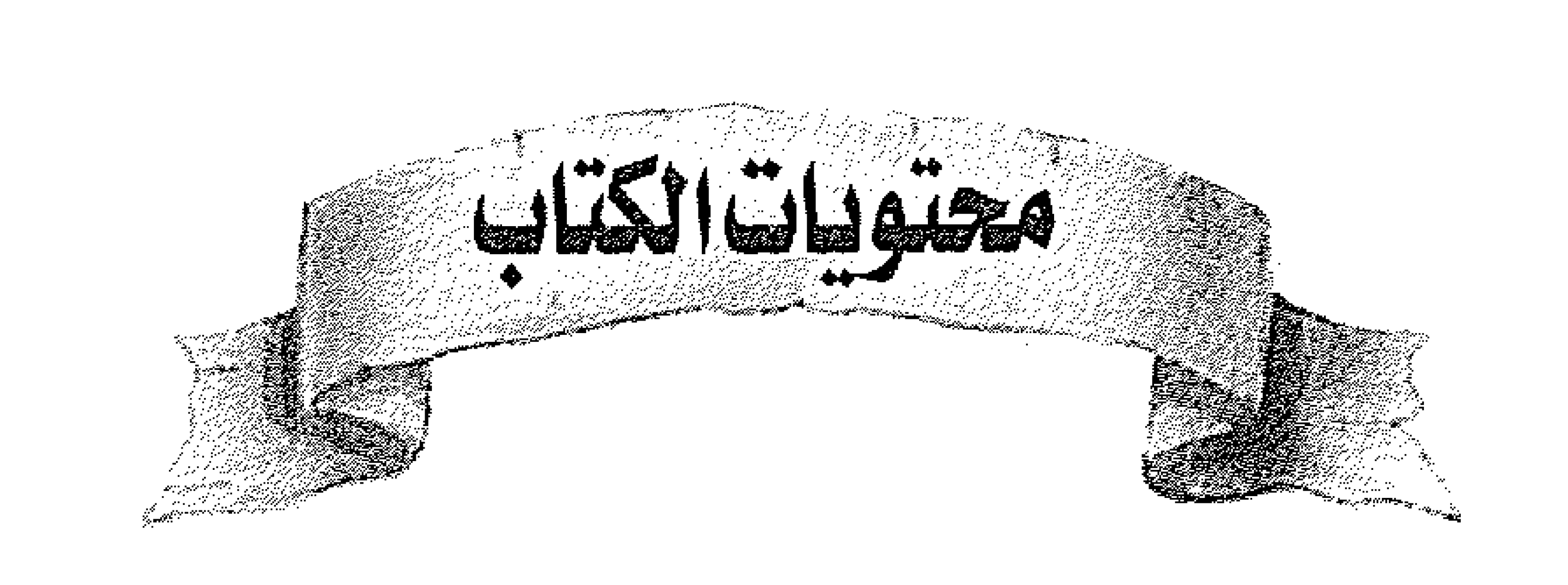
- Bailey (A.E.): The Art and Religion.
- Barker (E); Clark (G), Vaucher (p): The European Inheritance.
- Boissonmade (p): Life and work in Medieval Europ.
- Coulton (G.G.) : Life in the Middle Ages.
- Drapper : A History of Intellectual Development of Europe.
- Eyre (E.) : European Civilization.
- Haskins (C.A.) : The Rise of Universaties Studies in Medical Culeire.
- Lodge (R): The Close of The Middle Ages.
- Painter (S.) A History of The Middle Ages.

- سعيد عاشور :

أوروبا فى العصور الوسطى، الجزء الثانى - النظم والحضارة.



١١٥



محتويات الكتاب



The middle Ages constitute a link between antiquity and modern times, this epoch in Europe has its particular characteristic involving, religion, theology monasticism, and cultural events.

Special stress is made on the renaissance of the twelfth Century, with the establishment of European Universities. The Pioneering institution was the University Pologne in Italy, and the University of Paris in France. It is to be noted that other universities appeared in other European countries at later dates, following the example of the two renowned universities. These universities triggered the European community to adopt a more liberal attitude and way of thinking.

Dr. Said Abdel Fattah Ashoor



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR: THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Editing Directosrs: Chemist/ Amin Mohamed Al-Khodary
Engineer/ Atef Mohamed Al-Khodary

Committee Secretary: Abd El Halim Ibrahim Abd El-Halim

Designed by : Mohy El-Din Fathy El-Shaloudy

Correspondence & Communications:

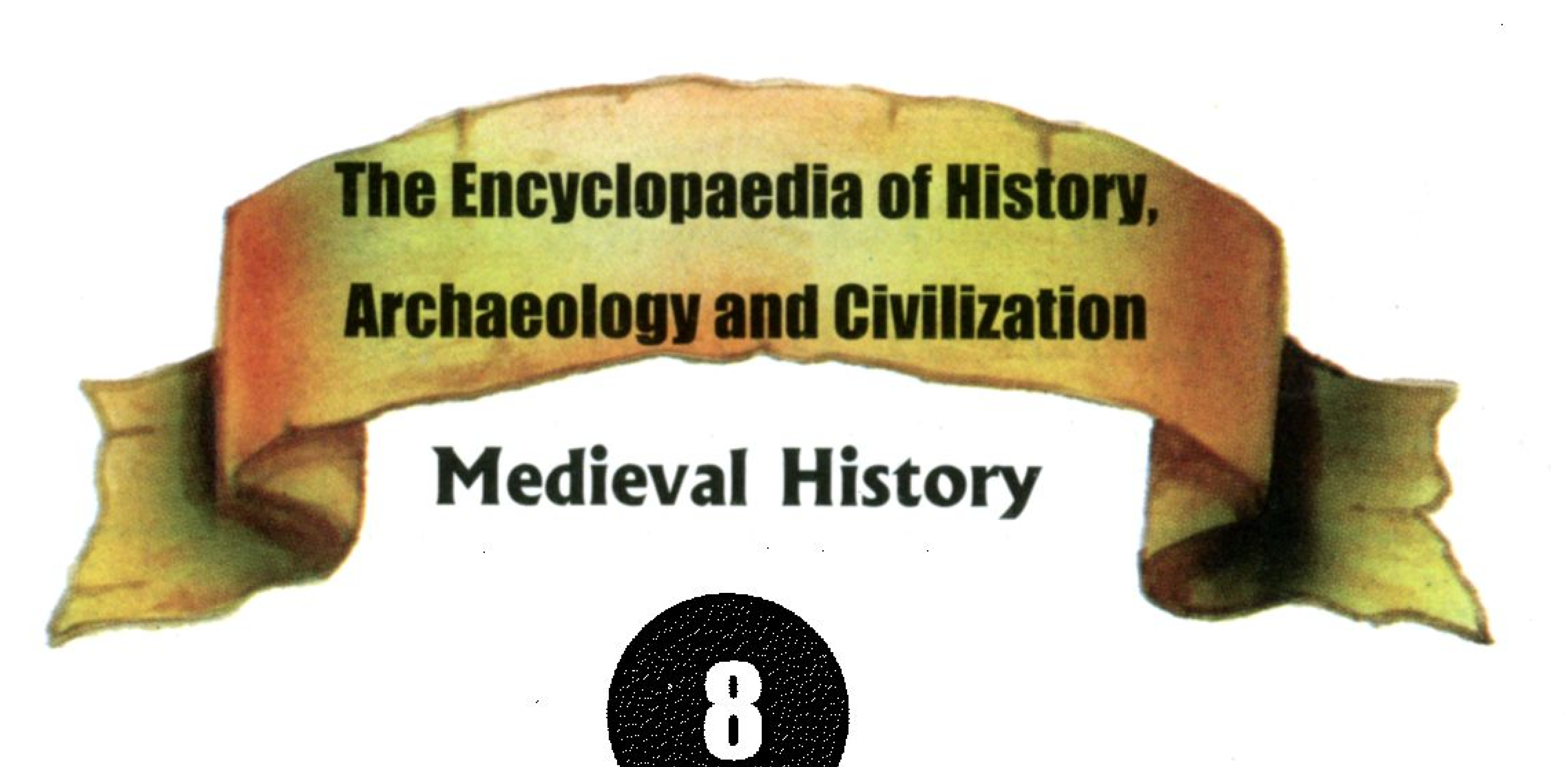
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



European Universities in the Middle Ages



Dr. Said Abdel Fattah Ashoor

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



European Universities In The Middle Ages



Dr. Said Asshour

